تاريخ الكنيسة منذ فجر المسيحية
إلى نهاية القرن الخامس عشر

History of the Church from its Origin to the End of the Fifteenth Century

الأب الدكتور كاميللو باللين

Pr. Dr. Camillo Ballin

إهـــــــداء ٢٠٠٨
دار الكتب و الوثائق القومية
القاهرة

تاريخ الكنيسة

من فجر المسيحية إلى نهاية القرن الخامس عشر



دار شرقيات للنشر والتوزيع

تاريخ الكنيسة

من فجر المسيحية إلى نهاية القرن الخامس عشر

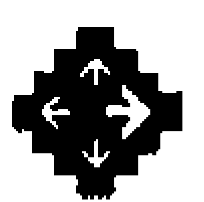
د. كاميللو بالين

History of the Church

from its Origin
to the End of the Fifteenth Century

Fr. Dr. Camillo Ballin

الطبعة الأولى ٢٠٠٤



دار شرقيات للنشر والتوزيع

٥ ش محمد صدقي، هدى شعراوي

الرقم البريدي ١١١١١

باب اللوق، القاهرة

ت ٣٩٠٢٩١٣ فاكس ٣٩٣١٥٤٨

تصميم الغلاف للفنانة: هبة حلمي

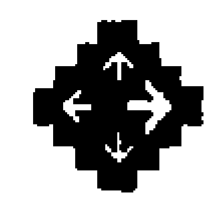
رقم الإيداع: ٢٠٠٤/٩٦٥٠

الترقيم الدولي: ISBN: 977-283-156-2

كاميللو باللين

تاريخ الكنيسة

من فجر المسيحية إلى نهاية القرن الخامس عشر



دار شرقيات للنشر والتوزيع

المحتويات

مقدمة

كتاب عن تاريخ الكنيسة! ربما يتساءل القارئ عن ضرورته أو نفعه. في الواقع، أليست رسالة الكنيسة أن ترفع إلى الله صلوات وابتهالات من أجل العالم وأن تكون بعيدة عن العالم لكي لا تهتم إلا بدورها الروحي؟ بينما سنرى في هذا الكتاب أن الكنيسة كثيرًا ما ارتبطت بشؤون الدُّوَل كما لو كانت واحدة منها. لا شك أن هذا التساؤل له أساس خاصة في الشرق حيث يركز الناس كثيرًا، مسيحيين كانوا أم مسلمين، على الحياة الروحية للإنسان، فلا بد، لكي نرد على السؤال، أن نتأمل قليلاً دور الكنيسة في العالم.

مؤسس الكنيسة هو يسوع المسيح الذي بموته وقيامته وصعوده إلى السماء وإرساله الروح القدس كوَّن شعبًا جديدًا، أي الذين يؤمنون به وبرسالته ويريدون أن يعيشوا على هذه الأرض في المغفرة المتبادلة الصادقة والمحبة المخلصة العميقة ويبدؤون من هنا مجتمعًا جديدًا نسميه "ملكوت الله". فلم تأت الكنيسة نتيجة قرارات واتفاقيات بشرية لأن أصلها ليس من العالم، بل من الله. نقرأ في الدستور في "الطقوس المقدسة" للمجمع الفاتيكاني الثاني (رقم ٢):

"إن من خصائص هذه الكنيسة أنـــها في نفس الوقـــت بشرية وإلهية، مرئية وحافلة بحقائقَ غيرِ مرئيةٍ، جاهدة في العمـــل ومنصرفة إلى التأمل، حاضرة في العالمَ وهي مع ذلك غريبة عنـــه، وذلك بنوع أن ما فيها من عنصر بشري يرتـــهن بالعنصر الإلهـي ويخضع له، والمرئي بغير المرئي، والعمل بالتأمل، والحاضر بالمدينـة الآتية التي نطلبها".

فالكنيسة هي – كما قال القديس برناردوس – "مسكن أرضيّ وقصر سماوي، جسد قابل الموت وهيكـــل مـــن نـــور، موضوع ازدراء أخيرًا في نظر المتكبّرين وعَروس المسيح".

و بما أنّ الكنيسة موجودة على الأرض فلها دور في هـــذا العالم. لكنّ هذا الدور ليس كما هو عند باقي الدُّوَل، فالأخـــيرة مدعوة إلى أن تضمنِ خير الناس ومساواتـــهم أمام المجتمع بينمـــا الكنيسة هدفها أن تُفهِّمَ الناس أنّ هذه الحياة الدنيا منغرســـة في الفناء لكنها متجهة إلى البقاء فإذا كان الإنسان يعيش هنا أخًـــا وخادمًا لأخيه سيحي أخًا ومَلِكًا هناك. لكن هموم الدنيا تجعـــل الإنسانِ ينسى أو يتجاهل دعوته السماوية فينبغي على الكنيســـة أن تُذَكِّره بأنه مدعوّ إلى الحياة الأبديّة وليس إلى الهلاك الأبـــديّ. وحدث، ويحدث، أن ظروف الدُّوَل أو المجتمعات المختلفـــة لم تساعد في تحقيق ذلك لأنّ الظلم والتمييز العنصـــري والرؤســـاء المتكبرين والتعطش إلى السلطة وإلى تملّك الأراضي والغـــنى قـــد أدّت، وتؤدي، إلى نزاعات قاتلة وحروب مدمـــرة وإلى تقلـــب مقياس الحقائق الأساسية وإلى نسيان أن قمة الخليقة وهدف كـــل جهد هو خير الإنسان وسعادته. فلا بد من أنّ الكنيسة تـــدرس

هذه الحالات الخاطئة وأن تدافع عن المظلومين والمساكين وهذا ليس لأنها ترغب في أن تستفيد ماديًّا من تدخلها في شؤون الحكومات وإنما لأنّ دعوتها أن تجعل وجه كل إنسان، وهو مخلوق على صورة الله ومثاله، يتلألأ بنور خالقه السماوي فيعكس هذا النور العظيم على الجميع، على الأشرار والأخيار، لأنّ الله يُشْرِقُ شمسَه على الأشرار والصالحين. فيكون من رسالة الكنيسة أن تسهر وترى إذا كانت حياة الإنسان معرضة للخطأ أو للموت و،عند الضرورة، أن ترفع صوتها لتحرر الإنسان من الظلم الذي وقع فيه. وفي هذه المعركة لا تستطيع الكنيسة أن تستعمل إلا صوتها وصلواتها لأنه ليست لها جيوش ولا وزارة للدفاع ولا أسلحة، لكنها تمتلك ما هو أقوى من ذلك كله وهو كلمة الله ونعمته.

ذكرت منذ قليل أن الكنيسة في نفس الوقت بشرية وإلهية وبما أنَّها مكوَّنة من بشرٍ فلا شك أنه تخلل تاريخها أخطاء لا بل أحيانًا تخللته تلك التراعات نفسُها التي كان على الكنيسة أن تَحُلَّها، فعندما نصادف أشخاصًا أو فترات ظهر فيها الوجه البشري للكنيسة أكثر من وجهها السماويّ لا ننس أنها مغروسة في العالم وبالتالي معرضة للتأثر به.

يقول الإيمان المسيحي إن الروح القدس هو الذي يقود التاريخ والكنيسة وفعلاً نلاحظ أنه قد حررها تدريجيًّا في الألفية الأولى من سيطرة الأباطرة وشجّعها في الألفية الثانية إلى الإصلاح المستمر، وهو الذي يقودها نحو تقديم شهادة الحوار والمحبة في الألفية الثالثة وسيقودها إلى نهاية التاريخ والعالم.

ولكي يتم هذا الحوار بين الشعوب ينبغي أن يعرف كل شعب الشعب الآخر وأن تتعرف كل حضارة على الحضارات الأخرى، أن يعرف الشرق تاريخه الخاص وتاريخ الغرب والعكس وأن يعلم الناطقون بالضاد ماذا حدث في التاريخ عَبْرَ البحر الأبيض المتوسط.

إني أقدم في هذا الكتاب تاريخ الشرق وتاريخ الغرب لأني مقتنع بأن المعرفة المتبادلة تجعلنا نتجنب المواقف المتطرفة التي تؤدي إلى الانقسامات والبغض والإرهاب. وقد بحثت في بعض الكتب ولكن تبعت خاصة الكتاب:

AA. VV. Nouvelle Histoire de l'Eglise, Seuil, Paris, 1963.

بالرغم من أنه قد نشر منذ أربعين عامًا إلا أنه مازال مفيدًا جدًّا لأنه يقدم التاريخ بطريقة موضوعية ولا شك أن العلم العميق الصادق مهم للغاية في دراسة التاريخ.

وأتمنى لكل من سيقرأ هذا الكتاب أن يشكر ويبارك الله مصدر ومرشد وهدف وسيد كل التاريخ.

القاهرة ٣٠ مارس ٢٠٠٤

الأب الدكتور كاميللو باللين

راهب كومبوني

الفصل الأول

الكنيسة الأولى

مقدمة

أ- إنَّ الوثيقة الأساسية التي تساعدنا على دراسة تـــاريخ الكنيسة الأولى هي سفر أعمال الرسل[1]، ولكن هذا الكتـــاب لا يتكلم سوى عن فترة محدودة من تاريخ الكنيسة الأولى.

فسفر أعمال الرسل مؤلف يوناني وكُتِب لليونـــانيين ولا يهتم كثيرًا بالمسيحيين من أصل آرامي (سوري)، وفيه أيضًا شيء من المعارضة تجاه المسيحية الآرامية، بينما كانت أغلبية المسيحيين الأولين من أصل آرامي، فبقيت الكنيسة الأولى مرتبطة بـــالمجتمع اليهودي لمدة طويلة.

ب- لدينا اليوم وثائق أخرى يمكن أن تكمل معلوماتنـــا عن الكنيسة الأولى وهي:

- مخطوطات البحر الميت: تعرفنا قليلاً بالإطار اليـــهودي الذي نشأت فيه الكنيسة الأولى.

---

[1] سفر أعمال الرسل هو سفر من أسفار العهد الجديد في الكتاب المقدس.

- اكتشافات نجع حمادي (بمصر): (خاصة "إنجيل توما") تقدم لنا تقليدًا آراميًا عن أقوال يسوع.

- كتابات يهودية-مسيحية: (مثل "الديداكي" و"صعود أشعيا" وغيرهما) تقدم لنا تقليدًا موازيًا لكتابات العهد الجديد ونجد فيها صدىً مباشرًا للجماعة اليهودية-المسيحية.

ج- ولكننا لا نستطيع أن نستغني عن سفر أعمال الرسل حتى وإن كانت الوثائق الأخرى تكمل ما هو جزئي في أعمال الرسل.

وفي الواقع لعبت الكنيسة اليهودية-المسيحية دورًا حاسمًا حتى سقوط أورشليم سنة ٧٠م؛ ويجب أن نعرف الحقيقة التاريخية في هذه الفترة الأولى التي لا يتكلم عنها سفر أعمال الرسل بصورة كاملة ، ولا ننسى أن سفر أعمال الرسل لا يستهدف تدوين تاريخ الكنيسة الأولى بطريقة علمية كما نفهمه نحن اليوم بل يصف عمل الروح القدس في الكنيسة الناشئة.

١. العنصرة (حلول الروح القدس)

١-١. لا نستطيع أن ندون تاريخ الكنيسة دون أن ننطلق من حلول الروح القدس يوم العنصرة سنة ٣٠م، وإذا تجاهلنا هذا الحدث سيكون وكأننا نريد أن نصرف النظر عن البُعد الإلهي الخاص بالكنيسة؛ فشهادة كتاب أعمال الرسل في

هذا الحدث شهادة أساسية، لأنـها تقـدم تأسـيس الكنيسـة كحدث من أحداث التاريخ المقدس.

١-٢. العناصر الأساسية لحدث العنصرة هي:

رسالة الـروح القـدس المحيـي والمقـدّس (أع ٢/٤: "فامتلأوا كلهم من الروح القدس").

- غاية هذه الرسالة هي تثبيت الجماعة الـتي أسسـها المسيح أثناء حياته العلنية، لقد حل الروح القدس على الاثني عشر "مجتمعين كلهم في مكان واحد" (٢/١) وهؤلاء هم الذين أخـذوا من الروح القدس سلطانًا وقوة جعلاهم رسل المسيح القائم مـن الموت.

١-٣. هناك مقارنة بين ذكر أسمـاء الشـعوب في (أع ٢/٩ وتك ١٠) وبين الوحي في سيناء وفي العلية.

١-٤. في يوم العنصرة يبدأ الرسـل إعـلان الإنجيـل وخصوصًا بطرس الذي يتكلم من بينهم وباسمهم.

كان الرسل قد أخذوا من يسوع رسالة رسمية وسـلطة كاملة ليشهدوا له، ولكنهم لم يستطيعوا أن يبدأوا رسـالتهم إلا بعد العنصرة.

١-٥. موضوع كرازة بطرس هو قيامة يسوع (٢/٢٤، ٢/٣٩، ٣/١٥، ٤/١٠)، والقيامة هي عمـل الله: "ولكـنّ الله أقامه" (٢/٢٤).

١-٦. يأتي الرسل بثلاثة براهين:

- شهادتهم الشخصية (٢/٣٢، ٣/١٥): وهي رؤيتهم المسيح القائم، وكان هدف ظهورات المسيح التي وقعت بين الفصح والصعود هو تأسيس إيمان الرسل، سوف يقول القديس بولس إن هذه الظهورات هي نقطة من النقاط الأساسية للتقليد الذي تسلمه من الرسل (١ كو ١٥/٥-٨)، وشرط الانضمام إلى مجموعة الرسل هو "أن يكون شاهدًا معنا على قيامة يسوع" (١/٢٢). سينضم بولس فيما بعد إلى الاثني عشر لأن يسوع سيظهر له آخر واحدٍ (١ كو ١٥/٨-٩).

- الأعمال العجيبة التي عملها الرسل: "وتمت عجائبٍ وآيات كثيرة على أيدي الرسل" (٢/٤٣أ). يذكر -خاصة- سفر أعمال الرسل شفاء الكسيح ولكن الآيات كانت كثيرة "فاستولى الخوف على جميع النفوس" (٢/٤٣ب)، وكان الرسل يصنعونها باسم يسوع: "بفضل الإيمان باسمه عادت القوة إلى هذا الرجل" (٣/١٦).

- تحقيق النبوءات: وهذا موجه خصوصًا إلى اليهود وذلك لخصوصية حالتهم بالنسبة لاهتدائهم للمسيح، لأن اليهود لا يحتاجون إلى أن يهتدوا إلى الله لأنهم يؤمنون به ولا يحتاجون إلى أن يؤمنوا بمجيء الله إلى العالم لأنهم ينتظرونه منذ قرون عديدة؛ فالمبادرة الوحيدة المطلوبة منهم هي أن يعترفوا بتحقق هذا الانتظار في يسوع الناصري ، وأن يعترفوا بأن هذا هو الحدث الذي تنبأ به الأنبياء.

وغاية كرازات بطرس الثلاث هي أن يعترف اليهود بأن ما تم في يسوع الناصري هو عمل الله، ويجب أن يتغير موقفهم بالنسبة ليسوع الناصري تغيّرًا جذريًا أي يجب أن يتوبوا، وأن يعترفوا بأنهم قد أخطأوا عندما رفضوا أن يروا الطابع الإلهي في يسوع واتهموه بالتجديف لأنه ادعى هذا الطابع لنفسه. بهذا الرفض ابتعد اليهود عن الله- كما فعل آباؤهم الذين اضطهدوا الأنبياء- فالاعتراف بألوهية يسوع الناصري يدل على الاهتداء إلى الله: "فتوبوا وارجعوا تُغفر خطاياكم" (١٩/٣).

وفعلاً تنتهي خُطَب بطرس بهذا النداء إلى التوبة (٣٨/٢، ١٩/٣).

٢ . الشيَع اليهودية

٢-١. نريد الآن أن نضع الجماعة المسيحية الأولى في الإطار اليهودي العام:

- نجد هناك معارضة للمسيحيين- خصوصًا من طرف رؤساء الكهنة والصدوقيين- كما يشهد لذلك (أع ١/٤-٣).

- كان حنان الحَبر الأعظم من سنة ٦ إلى ١٥ ب. م، وبقي تأثيره المعنوي قويًا أثناء حبرية صهره قيافا أيضًا (سنة ١٨ الى ٣٦ ب.م).

- كان حنان وقيافا والكهنة حريصين على بقاء تأثيرهم على الشعب وكانوا يؤيدون الرومان سياسيًا.

- كان الصدوقيون يعارضون التجديدات الدينية (٤/٢).

٢-٢. يروي سفر أعمال الرسل ثلاثة أحداث أظهر فيها رؤساء الكهنة والصدوقيون معارضتهم للجماعة المسيحية:

- كان بطرس ويوحنا يخطبان في الشعب وقبض عليهما الكهنة ورئيس حرس الهيكل والصدوقيون وقادوهما إلى المجلس (٤/١-٢) ثم أطلق سراحهما (٤/٣-٢٣) وكان رئيس حرس الهيكل رئيس الشرطة اليهودية وهو الشخص الذي كان يستخدمه رئيس الكهنة لكي يضمن النظام في الهيكل (لو ٢٢/٥٢).

- بعد ذلك قبض رئيس حرس الهيكل بأمر من رؤساء الكهنة على مجموعة الرسل كلها (٥/١٨,٢٦) وأخذهم إلى المجلس، ثم أطلق سراحهم مرة ثانية. يدل هذا التحرير الذي تم مرتين على أنه لم تكن كل الشيع الموجودة في المجلس تعارض المسيحيين، وفعلاً الفريسي غمالائيل سوف يدافع عن الرسل (٥/٣٤-٣٩)، وفيما بعد سوف ينتهز بولس الرسول فرصة هذا الخلاف بين الفريسيين والصدوقيين لكي ينقذ نفسه من الخطر. كان الفريسيون يقبلون المسيحانية فلم يكن لديهم- من حيث المبدأ- أي مانع على الحركة التي انطلقت من يسوع الناصري، بينما كان الصدوقيون يعترضون على أي نوع من المسيحانية لأسباب عقائدية، كان رؤساء الكهنة - أكثر من الصدوقيين- يرفضون هم أيضًا أي مسيحانية لأنهم كانوا

يرون فيها تهديدًا لسلطانهم الخاص و بالتالي تأثيرهم على الشعب.

- وأخيرًا، اضطهاد ثالث أتى - بلا شك - من بيت حنان وهو الاضطهاد الذي بدأ سنة ٤١م. والذي فيه استشهد يعقوب الرسول- أخو يوحنا- وقُبِضَ على بطرس (١٢/١-١٦).

لقد قُتِلَ يعقوب قبل موت هيرودس بسنة واحدة (١٢/٢٠-٢٣)، لذا فإننا نستطيع أن نؤكد أن يعقوب الرسول مات سنة ٤٣م. وهذا هو الحدث الأول الذي يمكن أن نحدده بدقة في تاريخ الكنيسة الأولى.

٢-٣. إذا كان رؤساء الكهنة والصدوقيون يعارضون تمامًا المسيحيين، فموقف الفريسيين كان مختلفًا من عدة وجوه في هذا الشأن.

لاحظنا كيف أن غمالائيل دافع عن الاثني عشر (٥/٣٤-٣٩) ولكن الفريسيين في اضطهادهم الهلينيين وإسطفانس (سبتمبر ٣٦م) لعبوا دورا رئيسًا (٦/١٢) ووافق أحدهم وهو الفريسي شاؤل على رجم إسطفانس (٨/١) ويدل هذا الفرق على واقع مهم جدًا.

٢-٤. كان الفريسيون متجاوبين مع العبرانيين ومعادين للهلينيين، وكانوا يعاتبون الهلينيين على أنهم لا يهتمون باستقلال اليهود وبالهيكل- الذي كان رمزهم الرئيس- وبالقوانين اليهودية، فنرى هنا مَن هم هؤلاء العبرانيون. هناك

فريسيون كانوا قد آمنوا بالمسيحية (١٥/٥) فكانوا مسيحيين مرتبطين بوطنهم اليهودي ومواظبين على العبادة في الهيكل ومحافظين على القوانين الموسوية، وكان هؤلاء هم المجموعة الأهم في الجماعة الأولى وكانوا يجتذبون تعاطف الفريسيين نظرًا لغيرتهم على الشريعة، وكان الاثنا عشر ينضمون شخصيًا إلى هذه المجموعة التي كان يرأسها يعقوب "أخو الرب" (غل ١/١٩).

٢-٥. يبدو أن لوقا أهمل هذه المجموعة ، والسبب هو أنه يقدم موقف بولس- وكان هناك نزاع مستمر بين أتباع اعتقادات بولس وأتباع موقف يعقوب (غل ٢/١٢)- وبما أن هذه المجموعة قد اختفت سنة ٧٠م، فقد ذهب معهم ذكرهم أيضًا، ولكن هذا الاختفاء يُحَرِّف تاريخ الكنيسة الأولى؛ فقد كان قوم يعقوب والكنيسة اليهودية-المسيحية هم الذين أثّروا أكثر على الجماعة المسيحية في السنين الأولى.

٢-٦. نعرف من الكتابات غير القانونية (مثل: "إنجيل العبرانيين"، "إنجيل توما"، "الرؤى الثلاث ليعقوب"، إلخ)، أن يعقوب كانت له مكانة عظيمة في الكنيسة الأولى ؛ فتذكره هذه الكتابات قبل يوحنا وبطرس، أو تقدمه كالشخص الذي يجب على باقي الرسل أن يتوجهوا إليه، أو كأهم شخصية في الكنيسة. ونلاحظ أيضًا أن هذه المجموعة تميل إلى السيطرة على الكنيسة فنتج عن ذلك تذمر المسيحيين الذين من أصل يهودي هليني، كما يذكر سفر أعمال الرسل (٦/١).

٢-٧. الأسينيون

- نعرف أكثر عنهم الآن من خلال مخطوطات البحر الميت (قمران) التي اكتشفت أخيرًا. كان الأسينيون جماعة متصوفة ومتطرفة في تمسكها بالشريعة اليهودية وفي تطبيقها في الحياة - ويبدو أن أصلهم يرجع إلى الهسيديم في أيام المكابيين - فانعزلوا عن العالم - أي تركوا المدن - وبنوا لأنفسهم مساكن رهبانية كان فيها النظام في منتهى القسوة، وكانوا يسمون أنفسهم أبناء النور وكانوا يسمون الآخرين أبناء الظلمة، وكانوا ينتظرون مسيحَين: أحدهما كاهن والآخر ملك.

وربما كان يوحنا المعمدان قريبًا منهم ولكن ما نعرفه عن يوحنا المعمدان يختلف كثيرًا عما نعرفه عن الأسينيين.

- هناك تشابه كبير في بعض النقاط بين الشيعة الأسينية والجماعة المسيحية ولكن يبدو أن أعضاء الأسينيين لم ينضموا إلى المسيحية، وبلا شك كان لهم تأثير كبير على الشعب -أيضًا من خلال كتاباتهم الكثيرة- فساعدوا بطريقة غير مباشرة في انفتاح بعض الناس على المسيحية وربما كان ذلك سببًا في اهتداء كثير من الذين كانوا يعيشون في الأوساط المتأثرة بهم للمسيح. وهناك شيء غريب آخر وهو أن الأسينيين كان لهم شبه كبير بالمسيحية، ومع ذلك لم يذكرهم العهد الجديد على الإطلاق.

٣ . حياة الجماعة المسيحية الأولى

٣-١. يتكلم سفر أعمال الرسل عن الإطار الذي تعيش فيه الجماعة المسيحية الأولى وفي الوقت نفسه يعطي تلميحًا إلى نوع الحياة في هذه الجماعة الأولى.

٣-٢. يشترك المسيحيون الأولون في العبادة العادية مع الشعب اليهودي: "آلاف اليهود آمنوا وكلهم متعصبون لشريعة موسى" (٢١/٢٠) هذا يعني أن المسيحيين الأولين كانوا مواظبين على ختن أولادهم ومتابعة قوانين التطهير وممارسة تقديس يوم السبت، وأيضًا كانوا يترددون إلى الهيكل كل يوم (٢/٤٦) مثلاً، كان بطرس ويوحنا يصعدان الى الهيكل لصلاة الساعة الثالثة بعد الظهر (٣/١). ويبدو أن المسيحيين الأولين - في نظر الشعب- هم كيهود ذوي إيمان حميم يستحقون بركة الله واحترام الشعب (٥/١٣). ويذكر سفر أعمال الرسل أن المسيحيين كانوا يلتقون كل يوم في الهيكل (٢/٤٦) فكانوا يؤلفون مجموعة خاصة في شعب إسرائيل.

٣-٣. ولكن المسيحيين الأولين كانوا على وعي تام بأنهم يكوّنون جماعة خاصة، ويسمي سفر أعمال الرسل هذه الجماعة "الكنيسة" ويقصد بذلك شعب الله لمّا كان في البرية (٧/٣٨) لذا يعتبر المسيحيون أنفسهم شعب الله الجديد.

٣-٤. لقد أشارت كلمة "الكنيسة" في بدء الأمر إلى الجماعة المسيحية التي كانت في أورشليم، وفيما بعد سينطبق هذا الاسم على كل كنيسة محلية تَتَكوّن مثل الكنيسة الأم في

أورشليم. مثلاً يجمع بولس الكنيسة في أنطاكيا (٢٧/١٤) ويحيي الكنيسة في قيصريا (٢٢/١٨) ولكن يعرف المسيحيون جيدًا أنهم يؤلفون كنيسة واحدة، فصار الاسم "الكنيسة" يدل على الكنيسة الجامعة.

٣-٥. إذا كان المسيحيون يعيشون- من جهة- مع الشعب اليهودي فإنهم كانوا يعيشون أيضًا - من جهة أخرى - حياة خاصة بهم؛ فيجتمعون معًا في بيوت خاصة. يقول سفر أعمال الرسل إنهم كانوا "يكسرون الخبز في البيوت" (٤٦/٢)، نعرف بيتًا من هذه البيوت وهو "بيت مريم أم يوحنا الملقب بمرقس" (١٢/١٢) هناك كانت جماعة كبيرة تجتمع وتصلي بينما كان بطرس في السجن، وسوف نرى بولس يشجع الإخوة المجتمعين في بيت ليديا (٤٠/١٦) ويحتفل بالإفخارستيا في الدور الثالث في بيت في طرواس (٩/٢٠)، فنلاحظ أن المسيحيين كانوا يؤيدون الكنيسة وذلك بوضع بيتهم في خدمة الجماعة، مثل أكيلا وبريسكلة ("الكنيسة التي تجتمع في بيتهما" ١ كو ١٩/١٦).

٣-٦. كان المسيحيون يجتمعون كثيرًا، ويكلمنا سفر أعمال الرسل عن كسر الخبز وتناول الطعام وصلوات التسبيح (٤٦/٢، ١٢/١٢)، وكانت تقام بعض الاجتماعات ليلاً، كان ذلك عندما ذهب بطرس- بعد خروجه العجيب من السجن - إلى بيت مريم أم مرقس ووجد فيه الكنيسة مجتمعة في الصلاة (١٢/١٢)، ومن المؤكد أنه كانت هناك اجتماعات في الليل الذي بين السبت والأحد (٧/٢٠)؛ فكان المسيحيون يشتركون

في الصلوات في الهيكل، ثم كانوا يجتمعون في بيت خاص للقيـــام باحتفالاتـــهم الخاصة، ولكـــن ليـــس مـــن المؤكـــد أن هـــذه الاجتماعات كانت دائمًا بالليل. تخبرنا الرسالة الأولى إلى أهـــل كورنتس عن إفخارستيا مع وليمة (١١/١٧-٣٣)، فربما لم يكـــن هذا الاحتفال بالليل.

٣-٧. ماذا كانوا يعملون أثناء هذه الاحتفالات؟

يكلمنا سفر أعمال الرسل (٤٢/٢) عن التعليم وكســر الخبز والصلوات، ولكن إذا كان سفر أعمـــال الرســل يــروي مضامين الكرازات الموجهة لغير المؤمنين، فإنه لا يتكلم عن التعليم المعطى للجماعة المسيحية، على أية حال نستطيع أن نعرف شـــيئًا من خلال تلميحات نجدها في بعض الآيات.

- في الاحتفالات مع الجماعة المسيحية، كـــان الرســـل يقدمون وعظات لتقوية عزائـــم المؤمنـــين (٢٢/١٤، ٣٢/١٥، ١١/٢٠).

- كان كسر الخبز يلي هذه الوعظات ("كسر الخـــبز" هو المصطلح المستعمل في سفر أعمـــال الرســـل ليـــدل علـــى الإفخارستيا: ٤٢/٢، ٧/٢٠)، وكان يسوع المسيح قد أســـس الإفخارستيا أثناء عشاء فصحي، وكانت هناك بركة الخبز قبـــل العشاء وبركة الكأس بعد العشاء، وحتى اليوم نقول في القـــداس: "كذلك بعد العشاء أخذ الكـــأس فشـــكر..." وقـــد احتفـــظ المسيحيون بـــهذين القسمين (الوعظات و البركة علـــى الخـــبز والكأس) ولكنهم لم يربطوهما بالعشاء إلا لمدة قصيرة، فكان مـــن

الممكن أن يكون هناك عشاء أو لا يكون. والذي كان يرأس الإفخارستيا كان يرفع الشكر، ثم كان يبارك الله على الخبز والكأس باسطًا يديه عليهما وقائلاً كلمات يسوع في العشاء الأخير.

- كانت الإفخارستيا تليها "صلوات"، كما يقول أعمال الرسل (٢/٤٢، ١٢/٥) مقدّمة من الرسل أو من شيوخ الجماعة (٤/٦، ١٣/٣) أو- أيضًا - من أعضاء الجماعة الذين كانوا قد نالوا نعمة خاصة لذلك (١٣/٣،١١/٢٨). ونلاحظ أن حلول الروح القدس يتم أثناء هذه الاجتماعات (٤/٣١). فأصبحت الجماعة المسيحية الهيكل الجديد (٢ بط ٢/٥) حيث يسكن الله والذي يبطل الهيكل القديم، مع أنه كان لايزال موجودًا في ذلك الحين. لقد عاش الهيكلان معًا (الهيكل اليهودي القديم المادي والهيكل الجديد الروحي = المسيحيون) حتى سنة ٧٠م وفي هذه السنة دمّر الهيكل القديم المادي و لم يبقَ سوى الهيكل الجديد الروحي الذي هو الجماعة المسيحية(كنيسة الله).

٣-٨. وهناك وجه آخر مهم للغاية نراه في الجماعة الأولى هو النظام الداخلي بالنسبة للمال، يتكلم سفر أعمال الرسل عن مشاركة تامة بين الإخوة في كل ما كانوا يملكون: "وكان جميع الذين آمنوا جماعة واحدة، يجعلون كل شيء مشتركًا بينهم، يبيعون أملاكهم وأموالهم ويتقاسمون الثمن على قدر احتياج كل منهم" (٤/٢٢، راجع أيضًا ٤/٣٤). يذكر سفر أعمال الرسل بصفة خاصة حالة برنابا الذي كان يملك حقلاً وباعه وألقى ثمنه عند أقدام الرسل (٤/٣٦-٣٧). كما أنه يذكر

حالة حننيا وسفيرة اللذين باعا مِلْكًا وقالا للرسل إنهما قدما لهم الثمن بالكامل، بينما كانا قد احتفظا بجزء منه. يوضح سفر أعمال الرسل أن هذه المشاركة لم تكن إجبارية (٥/٤) فخطيئة حننيا وسفيرة هي أنهما كذبا على الرسل والجماعة.

فكيف كانت هذه المشاركة في الواقع؟ من الصعب أن نعرف ذلك تمامًا. فربما كان هناك صندوق عام لمساعدة المحتاجين، كما كان في المجمع، يشير إلى هذا الوضع المشكلة المتعلقة بخدمة الأرامل (١/٦). ولكن يبدو أن لوقا يشير إلى شيء أعمق وهو مشاركة تامة وحقيقية في كل ما كانوا يملكون. ونحن لا نستغرب هذا لأننا اكتشفنا اليوم أن الجماعة الأسينية كانت تعيش بهذه الصورة، فربما تأثرت الجماعة المسيحية الأولى بهذه الممارسة الأسينية.

٣-٩. كما ألمحنا أعلاه، أثيرت مشكلة توزيع الأرزاق بالتساوي على الأرامل؛ فأخذ اليهود الهلينيون يتذمرون على العبرانيين ويقولون إن أراملهم يُهْمَلْنَ في توزيع المعونة (١/٦)، وقد عالج الرسل هذه المشكلة باختيار سبعة رجال، منهم إسطفانس ليقوموا بهذه الخدمة. ورأينا أن الرسل كانوا قد نظموا جمع وتوزيع المساعدات حسب طريقة اليهود وكان هذا العمل يتم تحت إشراف الرسل أنفسهم. ولكن باختيار هؤلاء السبعة تنازل الرسل عن هذا الإشراف، وأكثر من ذلك، لم يوكلوهم بهذه المهمة فقط بل-أيضًا - من خلال الرسامة (٦/٦) أعطوهم جزءًا من سلطانهم؛ فنرى هؤلاء السبعة يعظون ويعمدون.

في الواقع، يظهر أن الرسل انطلاقًا من مشكلة المساعدة للأرامل الهلينيات لم ينووا أن يعالجوا تلك المشكلة فقط بل أن يُشركوا أناسًا آخرين في رسالتهم، أي يضموا لأنفسهم معاونين.

٣-١٠. نتساءل: إذا كان الرسل رأوا ضرورة اختيار معاونين لهم بالنسبة للهلينيين، لماذا لم يتخذوا المبادرة نفسها بالنسبة للعبرانيين؟

يبدو أن لوقا لم يذكر ما نظّمه الرسل لأجل العبرانيين لأنه لا يهتم بالعبرانيين، وهنا نرى مرة أخرى الناحية الجزئية لسفر أعمال الرسل، فنستطيع أن نقول إن إقامة السبعة هي قرار يخص الهلينيين فقط، أما العبرانيون فكان لهم شيوخ - لا شكَّ أن يعقوب كان واحدًا منهم - نقرأ في أعمال الرسل (١١/٣٠) أن مسيحيي أنطاكيا كانوا يقدمون لشيوخ أورشليم معونتهم لأجل الفقراء؛ فربما يعمل هؤلاء الشيوخ لدى العبرانيين ما كان يعمل السبعة لدى الهلينيين.

٣-١١. شيء مهم هو المكانة البارزة التي يأخذها يعقوب ليس فقط بالنسبة للكنيسة في أورشليم، كما ذكرنا فيما سبق (راجع ٢-٦.)، بل بالنسبة للشيوخ أيضا، مثلاً سوف يأتي بولس إلى أورشليم وسيقابل بطرس ويعقوب، وفي مجمع أورشليم أن يعقوب هو الوحيد الذي - مع بطرس - يتكلم، فمن المؤكد أن يعقوب كان رئيس الجماعة في أورشليم وكان من ضمن مسؤولياته كل ما يخص إدارة هذه الكنيسة المحلية في أورشلبم

(١٢/١٧)؛ فيظهر يعقوب كرئيس مجلس الشيوخ المحلي وفي الوقت نفسه كمشارك في سلطة الرسل.

٣-١٢. هناك رسولان يحملان الاسم نفسه "يعقوب"، فيجب أن نميّز بينهما.

- يعقوب الأكبر: ابن زبدى وسالومة وأخو يوحنا الإنجيلي، نجد اسمه في قائمة الرسل (مت ١٠/٢، مر ٣/١٧) ويُدعى مع أخيه "بوانرجس" أي "ابني الرعد" (لو ٦/١٤، اع ١/١٣ أ) يحضر التجلي (مت ١٧/١، مر ٩/٢، لو ٩/٢٨) كما أنه يحضر شفاء حماة بطرس (مر ١/٢٩(وقيامة بنت يائيرس)مر ٥/٣٧، لو ٨/٥١) مغرور بنفسه، يلومه يسوع (مر ١٠/٣٥-٤١(ويدعوه إلى التسامح)لو ٩/٥٤) يسمع الخطبة الإسكاتولوجية (مر ١٣/٣)، يحضر الصيد العجيب (لو ٥/١٠) يرافق يسوع في بستان الزيتون (مر ١٤/٣٣) نجده مع الرسل الآخرين في أورشليم في انتظار العنصرة (اع ١/١٣ أ) استشهد سنة ٤٣م على يد هيرودس (اع ١٢/٢).

- يعقوب الأصغر: "أخو الرب" (غل ١/١٩) لا نعرف أية قرابة كانت بين يسوع وبينه، ابن قلوبا (أو حلفى) ومريم (مت ١٠/٣، ١٣/٥٥، مر ٦/٣، ١٥/٤٠، ١٦/١) بعد صعود يسوع يصبح يعقوب الصغير رئيس الكنيسة المحلية في أورشليم (اع ١٢/١٧، ١٥/١٣، ٢١/١٨، ١ كو ١٥/٧، غل ١/١٩، ٢/٩و١٢).

نعرف من المؤرخين يوسف فلافيوس وإيوزيبيس أن الشعب كان يقدره كثيرًا – كما لاحظنا – وقد لقّبه بـ "البار" وقد مات بالرجم مع مسيحيين آخرين سنة ٦٢م بسبب الحبر الأعظم أنانس الذي اتهمه بمخالفة الشريعة اليهودية. وحسب الرأي العام فهو مؤلف "رسالة يعقوب" الموجهة إلى المسيحيين المهتدين من اليهودية ومقيمين خارج فلسطين.

٣-١٣. نرى أن كنيسة أورشليم لها وجه واضح وخاص:

– الرسل هم شهود للقيامة ووكلاء للسلطان الذي أخذوه من يسوع المسيح.

– يبدو بطرس رئيسًا للرسل.

– في بدء الأمر، ترأسوا وأداروا – شخصيًا – كنيسة أورشليم وبعد وقت قليل ضموا لأنفسهم معاونين، وهؤلاء المعاونون هم الشيوخ الذين يهتمون بالعبرانيين ويُكوّنون مجلسًا يرأسه يعقوب.

– ثم يقومون بنظام شبيه للهلينيين – فالسبعة المختارون لهم دور لدى الهلينيين مثل دور الشيوخ لدى العبرانيين – ومن الصعب أن نوضح إذا كان إسطفانس في جماعة الهلينيين له نفس الدور كيعقوب في جماعة العبرانيين. وعلى كل حال فرحيل الهلينيين سيجعل من مجلس الشيوخ السلطة الكنسية الوحيدة في أورشليم.

الفصل الثاني

الكنيسة خارج أورشليم

مقدمة

أ- ركّزنا انتباهنا حتى الآن على الكنيسة في أورشليم، حيث ظهرت المسيحية، وبحق تعتبر كنيسة أورشليم أم كل الكنائس ويتكلم عنها بطريقة خاصة سفر أعمال الرسل في الجزء الأول. ولكن أثناء الخمس عشرة سنة الأولى كانت المسيحية قد انتشرت كثيرًا.

ب- انتشرت المسيحية أولاً في الأوساط اليهودية في فلسطين وخارجها ولكنها - من البداية - وصلت أيضًا إلى الأوساط الوثنية. وكما لاحظنا فإن مؤلف سفر أعمال الرسل يوناني وألّفه خاصة لليونانيين لذا فهو يهتم - خصوصًا - بالكنيسة التي نشأت في العالم الوثني الغربي. ولكن رسالة الكنيسة انتشرت في العالم الوثني الشرقي أيضًا - حيث كانت اللغة والثقافة آراميتين - مثلا في عبر الأردن وفنيقيا وبلاد العرب (منطقة النبطية) إلخ وكانت للمسيحية الشرقية أهمية كبيرة في القرنين الأولين، ويقدم لنا سفر أعمال الرسل رسالة الكنيسة كأنها مرتبطة خصوصًا بالهلينيين، ولكن كانت هناك رسالة للكنيسة في العالم الآرامي أيضًا، الكتب المنسوبة لتوما (إنجيل

توما، أعمال توما، مزامير توما هي كلها غير قانونية) هي الصدى المباشر لانتشار الكنيسة في الشرق الوثني.

١. في الجليل

حتى الآن لا نستطيع أن نعرف بالضبط كيف نشأت الكنيسة في الجليل، يشهد سفر أعمال الرسل على وجودها (٣١/٩). كتابات محفورة يهودية–مسيحية قديمة تؤكد بأنه كان هناك تبشير من زمن قديم جدًا. وفي الواقع ربما يكون الترابط العميق بين الجليل واليهودية هو السبب في أن الجليل لم يُبَشّر منذ زمن قديم وهذا شيء غريب جدًا نظرًا للعلاقات الأسرية بين كثيرين من الرسل والجليل.

٢. في السامرة

على العكس من الجليل فإن أصول الكنيسة في السامرة مُدَوّنة في سفر أعمال الرسل، والذي يربط إنشاء الكنيسة في السامرة بطرد الهلينيين من أورشليم سنة ٣٧م. فيلبس، وهو أحد الهلينيين المختارين السبعة الذين كان من بينهم إسطفانس، قد نزل الى السامرة (٤/٨) وبدأ هناك رسالة مثمرة جدًا و"عمّ تلك المدينة فرح عظيم" (٨/٨). ربما قبله السامريون بقلب مفتوح لأنهم كانوا متفقين معه على انتقاد نظام الهيكل والكهنوت في أورشليم. وفعلاً– بعد فيلبس – ذهب بطرس ويوحنا لإتمام عمل

فيلبس التبشيري (١٨/٤). ولكن كانت للسامرة عناصر خاصة أدّت إلى فشل الرسالة، وهذا هو معنى حدث سمعان الساحر الذي أخذ المعمودية من يد فيلبس (١٣/٨) ثم حاول أن يشترك في سلطان بطرس مقابل دفع مبلغ من المال، ولكن كشف بطرس نيته السيئة وأبعده (٨/٢٠-٢٤). ورجع بطرس ويوحنا إلى أورشليم "وهما يبشران قرى كثيرة للسامريين" (٨/٢٥).

يقول يوستينوس إن سمعان الساحر تبعه تلاميذ كثيرون - ربما كانوا جزءا كبيرًا من مسيحيي السامرة - فنجد هنا باكرًا جدًا انحرافًا مسيحيًا سوف يصبح فيما بعد ما نسميه بـ "الغنوصية".

٣. المعمدانيون

٣-١. بين الجماعات الدينية التي كانت على هامش اليهودية الرسمية، يجب أن نذكر المعمدانيين. (السابيون والمسبوتيون هم مثل المعمدانيين تمامًا). كانت هذه الجماعة مكونة من شعوب غير يهودية تعيش على سواحل الأردن ويَمُتُّون بصلة قرابة لليهود؛ ولكنهم كانوا بعيدين عن الجماعة الإسرائيلية.

٣-٢. كان الطقس الأساسي عندهم الاستحمام في نهر الأردن، الذي كانوا يعتبرونه نهرًا مقدسًا. وفي بدء الأمر كان هناك غموض عند اليهود و لم يميزوا بين المعمدانيين والمسيحيين نظرًا للعلاقات التي كانت بين بعضهم بعضًا، وفعلا أعطى يوحنا المعمدان في البداية - ثم الكنيسة المسيحية بعد ذلك

– أهميةً كبيرةً للمعمودية في الأردن، ولكن ما كان مشتركًا بين المعمدانيين والمسيحيين هو فقط الأهمية المعطاة لنهر الأردن.

٤ . البيئة اليونانية–الرومانية الوثنية في فلسطين

وفي فلسطين أيضًا يجب أن نذكر أن الكنيسة واجهت بيئة أخرى وهي البيئة اليونانية–الرومانية الوثنية مما سيسبب لها مشاكل جديدة.

كانت في فلسطين مدن يونانية – خاصة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط – مسكونة خصوصًا من وثنيين ويقول لنا سفر أعمال الرسل إن الهلينيين قد قاموا بالتبشير في هذه المنطقة أيضًا؛ فنجد فيلبس في قيصريا ويافا ونجده أيضًا في غزة يعمد مواطنًا حبشيًا دخل في الدين اليهودي (٢٧/٨). نلاحظ أن بطرس يأتي بعد فيلبس الى هذه المناطق المختلفة (أولاً السامرة، ثم قيصريا وغزة ويافا) ويبدو هكذا أن بطرس يلعب دور المشرف على الكنيسة كافة.

جميع الرسل يعرفون أنهم مسؤولون عن الكنيسة جمعاء ولكن يظهر أن هذا الدور يخص بطرس بطريقة خاصة.

– يروي سفر أعمال الرسل حدث قرنيليوس– قائد مائة من الكتيبة الإيطالية– (١/١٠). وهذا الحدث مهم جدًا لأنه يُوضح لنا مدى انتماء الرسل إلى الجماعة اليهودية. يلاحظ النص أنه كان ممنوعًا على اليهودي أن تكون له علاقات مع وثني

(١٠/٢٨). غير أن بطرس يقول إنه لا يمكن أن تُرفَض المعمودية، وهكذا اعترف الرسل من البداية بأن الجماعة المسيحية كانت منفتحة على الوثنيين.

- انتشرت المسيحية في الخمس عشرة سنة الأولى وخصوصًا في سوريا، والمركز المسيحي الأول - بعد أورشليم - هو أنطاكيا. ولكن إذا كان سفر أعمال الرسل يعطي أهمية كبيرة لأنطاكية، فلأن هذه المدينة كانت تنتمي إلى العالم الهليني أكثر منه إلى العالم الآرامي، فهناك سوريا آرامية، مثل منطقة فينيقيا (أي لبنان وسوريا اليوم) التي فيها دمشق، ومنطقة أسروين، التي فيها أداسا. وقد قامت سوريا الآرامية بدور مهم في انتشار المسيحية، حتى وإن كانت الوثائق القانونية تذكرها فقط.

٥ . دمشق

٥-١. يشير سفر أعمال الرسل إلى دمشق مرتين:

- عندما يهتدي بولس حوالي سنة ٣٨م - وكانت توجد في دمشق جماعة مسيحية - وكان ذاهبًا إلى هناك ليقبض على المسيحيين (٩/٢).

- يربط سفر أعمال الرسل (١١/١٩) التبشير في فينيقيا- وفيها دمشق- بالهلينيين الذين تشتتوا بعد استشهاد إسطفانس. فتكوّنت الجماعة المسيحية في دمشق سنة ٣٧م. وهؤلاء المسيحيون الذين في دمشق هم يهود و إلا ما كانوا

يقعون تحت السلطة القضائية لرئيس الكهنة في أورشليم. ومن ناحية أخرى، فإن سفر أعمال الرسل يوضح أن الكلمة كانت معلَنة لليهود فقط (١٩/١١) وأن بولس كان يكرز بالبشارة في المجامع (٩/٢٠). ويُذْكر أيضًا أحد مسيحيي دمشق وهو حننيا "تقي، محافظ على الشريعة، يشهد له جميع اليهود المقيمين هناك" (١٢/٢٢).

٥-٢. هل نستطيع أن نحدد معلومات أخرى عن هؤلاء المسيحيين الذين كانوا في دمشق؟

- كانت هذه الجماعة مؤسسة من الهلينيين - فالاضطهاد الذي تم على يد بولس كان يقصد به الهلينيين- وكان بولس يقبض على المسيحيين لأنهم هلينيون. فكانت جماعة دمشق (أو جزء منها على الأقل) مكوّنة من هلينيين.

- الكرازة التي يقدمها حننيا لبولس (١٣/٢٢-١٥) لها علاقات كثيرة مع جماعة أسينية مقيمة في دمشق ، أو لمزيد من الدقة في قرية "كوكبا" جنوبي غربي دمشق وعلى بعد ١٥ كلم منها. ربما كان هناك جزء من جماعة دمشق مكوّنًا من أسينيين اهتدوا إلى المسيحية، ونحن في الواقع نعرف أن جماعة يهودية- مسيحية كانت موجودة في" كوكبا" باكرًا جدًا.

- هناك تقليد يقول إن بولس قد اهتدى في "كوكبا"، وتؤيد هذا التقليد الآية ١٧/١ من الرسالة إلى غلاطيا، حيث نقرأ أن بولس بعد الاهتداء التجأ إلى "بلاد العرب". وفي ذلك الحين كانت منطقة "بلاد العرب" هي المملكة النبطية التي كانت تمتد

من دمشق إلى مدينة بيترا (في الأردن حاليًا). فـــلا نســـتبعد أن القرية التي التجأ إليها بولس قد تكون "كوكبا"ولنلاحظ أيضًـا أن سفر أعمال الرسل ٩/٢٣ يفترض أن بولس لم يغـــادر منطقـــة دمشق.

- نستطيع أن نستنتج من هذا كله أن جماعة مســيحية- أصلاً أسينية- كانت موجودة مـــن ســـنة ٣٧م في دمشـــق، في "كوكبا".

٦. أنطاكيا

٦-١. كان أهم مركز في انتشار الكنيسة في سوريا هـو أنطاكيا. لقد وصل الإنجيل إلى هناك بمجيء الهلينيين إليها ســـنة ٣٧م، كما حدث في دمشق. وتُعلَن البشارة أولاً لليهود، ولكـن يذكر سفر أعمال الرسل أن مبشرين من قبرص وقيرينة قادمين من أورشليم وناطقين باليونانية قد توجـــهوا إلى اليونـــانيين، أي إلى الوثنيين. ولقد انضم كثيرون إلى المسيحية فأصبحت أنطاكيـا أول مركز لجماعة مهمة مكوّنة من مســـيحيين كـــانوا في الأصـــل وثنيين،ونظرًا لازدهار الجماعة، يرسل الرسل برنابا إلى أنطاكيـــا سنة ٤٢م، كما كان قد أُرسِلَ بطرس إلى السامرة، ويدل هـــذا على أن الرسل كانوا يريدون أن يضمنوا وحدة الجماعات مـــن خلال إدارتـــهم الجماعية. وفي أنطاكيا أطلقت الجماعـــة علـــى نفسها لأول مرة اسم "المسيحيين" (١١/٢٦).

لا يتكلم سفر أعمال الرسل أكثر منْ ذلك عن هذه الجماعة ويهتم بأنطاكيا فقط كمكان انطلاق الرسالة في آسيا.

٦-٢. ولكن تسمح لنا رسالة بولس إلى أهل غلاطيا أن نعرف أكثر عن هذه الجماعة. لقد قلنا إن كنيسة أنطاكيا هي أول كنيسة مكوّنة من مسيحيين كانوا أصلاً وثنيين. ولكن يكلمنا غل ٢/١٢ عن جماعة يهودية-مسيحية فنجد هنا لأول مرة جماعة مكوّنة من مسيحيينٍ كانوا أصلاً وثنيين بجانب جماعة من المسيحيين كانوا أصلاً يهودا. حسب الرسالة إلى غلاطيا، يبدو بوضوح أن الجماعتين كانتا منفصلتين، حتى وإن كان اليهود قد اهتدوا إلى المسيحية فإنهم كانوا لا يزالون مرتبطين بالشعائر اليهودية التي كانت تمنع أي يهودي أن يأكل مع غير يهودي أي مع وثني، حتى وإن كان هذا الوثني قد أصبح مسيحيًا، وبما إنهم كانوا يحتفلون بالإفخارستيا مع وليمة، فإنه كان مستحيلاً للمسيحيين الذين كانوا من أصل يهودي أن يحتفلوا مع المسيحيين الذين هم من أصل وثني.

سوف نرى فيما بعد المشكلة التي سيسببها هذا الواقع لبطرس:وهل كان باستطاعته- كيهودٍي- أن يشارك في الإفخارستيا مع المسيحيين الذين كانوا أصلاً وثنيين، أو بصفته رسول، هل كان عليه أن يتعدى هذه الانقسامات ويشارك في الإفخارستيا عند الجماعتين؟

خلاصةً لهذه النقطة، نستطيع أن نقول إن أنطاكيا- باكرًا جدًا- هي مركز انطلاق للعمل الإرسالي.

٧. المناطق المجاورة لأنطاكيا

يقول بولس في رسالته إلى أهل غلاطيا إنه يعلن البشارة في سوريا وكيليكيا، بكل تأكيد بين سنة ٤٣م و٤٤م.

لقد تم التبشير في قبرص قبل ذلك، يقول سفر أعمال الرسل (١١/١٩) إن الهلينيين قد أتوا إلى قبرص سنة ٣٧م، كما في أنطاكيا وفينيقيا، وعندما سيذهب بولس وبرنابا إلى قبرص سنة ٤٥م سيجدان هناك جماعات متكوّنة.

٨. آسيا ومقدونيا وأكايا

هذه هي المناطق التي نعرف عن انتشار المسيحية فيها الكثير، وحيث قام بولس وبرنابا بدور حاسم في ذلك، ولنوضح أكثر معلوماتنا عن بولس.

٨-١. مضطهد المسيحيين الهلينيين سنة ٣٦م يهتدي إلى المسيحية سنة ٣٨م. يعيش بولس ثلاث سنوات في جماعة مسيحية- كانوا أصلاً أسينيين- بالقرب من دمشق ويذهب إلى أورشليم سنة ٤١م حيث يقابل بطرس ويعقوب "أخو الرب" (غل ١/١٨، اع ٩/٢٧). يصطدم باليهود الهلينيين (أع ٩/٢٩) ويرجع إلى طرسوس (٩/٣٠) مسقط رأسه. يأتي برنابا إلى طرسوس سنة ٤٨م ليبحث عنه، وكان برنابا قد عرفه سنة ٤١م وكان قد قدمه للرسل، برنابا يأخذ معه بولس إلى أنطاكيا ويعيش الاثنان معًا هناك مدة سنة (٤٢م-٤٣م).

بالنسبة لهما كانت أنطاكيا هي مكان انطلاقهما نحو الإرساليات. وفي الواقع فإن رسالتهما كانت امتداداً لرسالة الاثني عشر فيبقيان في صلة مستمرة معهم. كان برنابا قد قدم لهم بولس سنة ٤١م، وسنة ٤٤م يذهب مرة أخرى إلى أورشليم مع بولس (أع ١١/٣٠، ١٢/٢٥) ويرجعان مع يوحنا ومرقس (أع ١٢/٢٥). قبل ذلك كان الرسل قد أرسلوا إليهما جماعة من الأنبياء، ومن ضمنهم أغابس (١١/٢٧). مما يؤدي إلى أن نشعر فعلاً بأن برنابا وبولس كانا شريكين للرسل في عملهم التبشيري.

٨-٢. يعتبرسفر أعمال الرسل برنابا وبولس من ضمن الأنبياء (١٣/١) والمعلمين. ونجد هذين المنصبين في الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس (١٢/٢٨) تاليين لمنصب الرسل؛ فمن المستحيل أن نرى في الأنبياء والمعلمين أناساً أصحاب مواهب روحانية فقط. ونجد هذين المنصبين في كتاب "الديداكي" أيضاً حيث يبدو أن لهما دوراً إدارياً، وخلافاً للشيوخ الذين يهتمون بإدارة الكنائس المحلية يبدو أن الأنبياء والمعلمين كانوا يُظهرون الناحية الإرسالية للكنيسة. وكان من الممكن أن ينتقل أحدٌ من منصب إلى آخر، مثلاً كان السبعة (الذين منهم إسطفانس) معاونين للكنيسة المحلية في أورشليم ولكنهم أصبحوا مرسَلين عندما طُرِدوا من أورشليم.

٨-٣. وضمن هذه المجموعة من المرسلين يتميز برنابا وبولس بدورهما الخاص، حيث يُذكَر برنابا أولاً فهو بالنسبة للمرسلين الآخرين يكون كيعقوب بالنسبة لشيوخ أورشليم، بينما كان وضع بولس مختلفاً فهو يعتبر نفسه رسولاً بالمعنى

الكامل للكلمة، أي أنه تسلم سلطانه من الرب مباشــرة لأجــل رسالة خاصة. وربما هذا الإدعاء هو الذي سيسبب انقطاعًا مــع برنابا.

٨-٤. تبدأ هذه المجموعة عملها التبشيري ســنة ٤٥م في آسيا، ويعطي سفر أعمال الرسل أهمية كبيرة لهذه المبادرة لأنـــها تمثل بداية عمل بولس الرسولي. تذهب مجموعة المرسلين إلى برجا وأنطاكيا وبيسيديا وأيقونيا ودربا ولسترا في ليقاونيا حيث يعظون أولاً في مجامع اليـــهود (أع ١٣/١٤,٥، ١/١٤) يــوم الســبت ولكنهم يتوجهون إلىالوثنيين أيضًا. وكان هناك أناس كثـــيرون يؤمنون بالمســيح، منــهم يــهود ودخــلاء (٤٣/١٣، ١/١٤) ووثنيون(٤٨/١٣، ١/١٤). ويُكَوّن برنابا وبولس جماعات محليــة ويرسمان شيوخًا بوضع الأيدي (٢٣/١٤) لإدارة هذه الكنـــائس الجديدة- مثلما كان في أورشليم وأنطاكيا- ولكنهما يجدان أيضًـا اعتراضًا عنيفًا من جانب اليـــهود (٤٥/١٣، ٥٠/١٣، ٢/١٤، ١٩/١٤) بينما كان الوثنيون أكثر استعدادًا لقبـــول المســيحية. أصبح هذا الواقع في منتهى الأهمية بالنسبة لبولس، لأنه ابتداءًا مــن الآن سوف يبدأ في تكوين أفكاره اللاهوتية عن رفض اليـــهود واهتداء الوثنيين (٤٦/١٣-٤٧).

٩. هل رسالة بولس هي الوحيدة في الغرب؟

يقول سفر أعمال الرسل إن بطرس- بعـــد استشـــهاد يعقوب سنة ٤٣م وخروجه العجيب من السجن- ترك أورشــليم

وذهب إلى "مكان آخر" (١٢/١٧) ولن نجد بطرس مرة أخرى إلا سنة ٤٩م في مجمع أورشليم.

ليس هناك أي كتاب قانوني يكلمنا عن نشاط بطرس الإرسالي أثناء هذه الفترة، ولكن أوزيبيوس كتب أن بطرس ذهب إلى روما في بداية حكم كلاوديوس سنة ٤٤م تقريبًا، ويبدو- بالتأكيد -أن روما قد بُشِّرَت في الفترة التي بين ٤٣م و٤٩م فكلاوديوس يطرد اليهود من روما سنة ٤٩م لأنهم ثاروا "بدافع من كريستوس"، وهذا يؤكد وجود نزاعات بين يهود ومسيحيين من أصل يهودي وقد وصلت تلك النزاعات إلى الإمبراطور.

يقابل بِولس في كورنثوس سنة ٥١م مسيحيَين (من أصل يهودي) مطرودين من روما بيد كلاوديوس (أكيلا وبرسكيلا) ويكتب- سنة ٥٧م- رسالة إلى جماعة روما التي كانت تعتبر ذات أهمية كبيرة منذ ذلك الحين، وسوف يجد سنة ٦٠م في بوطيولي وروما جماعات مُكَوّنة من قبل.

وفريجيا نفسها لها جزءان: شرقي وغربي، ونعرف تاريخ الكنيسة هناك من خلال شاهد مشهور وهو بابياس الذي كان أسقفا على هيرابوليس، وهي مدينة كانت تقع شرق هذه المنطقة، ويقول إيرينيوس إن بابياس كان زميلاً لبوليكربوس (أسقف إزمير) وشهادته هذه مهمة للغاية لأنه عرف بوليكربوس في شبابه، ويقول إيرينيوس أيضًا إن بابياس كان تلميذًا ليوحنا الرسول، لذا فمن الممكن أن يكون يوحنا الرسول هو ذلك الشيخ الذي يخبرنا عنه بابياس.

الفصل الثالث

الأزمة في الجماعة اليهودية – المسيحية

مقدمة

تسجل الفترة بين سنة ٤٠م وسنة ٧٠م حدثين مهمين جدًا هما:

- الوطنية اليهودية الصاعدة والتي ازدادت شدة، وسيعاني المسيحيون (من أصل يهودي) كثيرًا من ضغط هذه الوطنية عليهم.

- سقوط أورشليم سنة ٧٠م سوف يضرب اليهودية بصورة عامة واليهودية-المسيحية بصورة خاصة ضربة قاسية.

وفي هذه الفترة ستزدهر المسيحية في المحيط الوثني بفضل الحماس الرسولي العظيم لبولس، وينفصل المسيحيون من أصل وثني عن الإطار اليهودي ولكن لن يحدث هذا الانفصال بدون أزمة حقيقية وصعبة؛ فستنهار المسيحية-اليهودية التي كانت ظافرة سنة ٤٩م، بينما ستبدأ المسيحية كما يراها بولس في الانتصار. ونجد في بداية هذه الفترة مجمع أورشليم الذي يبرز وقائع تلك الفترة التي في آخرها ستسقط أورشليم، مما يسبب اختفاء للجماعة اليهودية-المسيحية اختفاء نهائيًا حتى وإن كان تدريجيًا.

سينعقد مجمع نيقيا سنة ٣٢٥ وليس هنـــاك أســقف واحد من الجماعة اليهودية-المسيحية، وقد حضر هذا المجمع ثمانية عشر أسقفًا فلسطينيًا ولكنهم كانوا كلهم مـــن أصــل هليـــني، وستلعب الجماعة اليهودية-المسيحية دورا مهمًا جدًا في القرنـــين الأولين- كما سنرى في الفصل القادم- ثم تختفي نــهائيًا.

١. يقع سنة ٤٩م حدثان يشهدان على أن هناك أزمـــة بين المسيحيين من أصل يهودي والمسيحيين من أصل وثني: مجمـــع أورشليم و حادث أنطاكيا.

١-١. مجمع أورشليم

كان بولس قد عاد إلى أنطاكيا سنة ٤٨م مـــع برنابـــا وكان قد عرض هناك النتائج الإيجابية التي حققها عند الوثنيـــين في آسيا (٢٧/١٤) وعرض أيضًا الإمكانات الجديـــدة للمســـتقبل، وفسر الطريق الذي اتبعه وهو: أن الوثنيين يجب ألا تُطَبّق عليـــهم القوانين الموسَوية وخصوصًا الختان؛ وكان هذا هو وضع تيطـس- الآسيوي- الذي كان بولس قد أخذه معه، و لكن "نزل أناس من اليهودية وأخذوا يُلَقّنون الإخوة فيقولون: إذا لم تختتنوا على سُــنّة موسى، لن تستطيعوا أن تنالوا الخلاص" (١/١٥)؛ فكان الختـــان إجباريًا للجميع.

لقد قيل مرارًا من دارسي تاريخ الكنيســـة إن هــؤلاء المسيحيين الذين أَتَوا من اليهودية إلى أنطاكيا كانوا مـــن قــوم يعقوب، ولكن يجب أن نلاحــظ أن المســيحيين ذوي الأصـــل

اليهودي (وهم الأغلبية في ذلك الحين) كانوا في بدء الأمر قبلوا عدم ضرورة ختان الوثنيين المهتدين، كما سيوضح بطرس (١٥/١٠)؛ فواجب الختان -كما يقولون الآن في أنطاكيا-هو لا شك شيء جديد، فنتساءل: لماذا هذه المطالبة الجديدة؟

يبدو أن السبب هو الوضع السياسي لليهودية، كانت اليهودية قد وصلت إلى نزاع مكشوف مع روما فإذا كان المسيحيون- الذين كانوا في رأي اليهود لا يزالون منتمين إلى الجماعة اليهودية- يقبلون أعضاء غير مختونين، فإن هذا يمثل خيانة لليهودية، خيانة سياسية. فضغط الوطنيين اليهود هو الذي دفع بعض المسيحيين (من أصل يهودي) إلى أن يحافظوا على انتماء المسيحيين إلى الجماعة اليهودية، وأن يتمسكوا بالختان لأنه كان الرمز الواضح والمقنع لهذا الانتماء.

فنرى هنا الخطر: تضامن المسيحية مع مصير إسرائيل الزمني، بينما الكنيسة لها طابع إلهي يفوق كل وطنيات العالم.

يعترض بولسٍ وبرنابا أشد الاعتراض على هذا الموقف؛ فتقترح الجماعة أن تُرفع هذه المشكلة الى أورشليم، أمام الرسل (١٥/٢).

- وفي أورشليم يتجدد الجدال، يدافع بعض المسيحيين- من أصل فريسي- عن ضرورة الختان للوثنيين، ولكن بطرس- باسم الرسل- ويعقوب- باسم الشيوخ- يقطعان الموضوع لصالح بولس ويوضحان أن الوثنيين ينبغي عليهم فقط أن يمتنعوا عن ذبائح الأصنام وعن الدم والحيوان المخنوق وعن الزنى(١٥/٢٩).

ويسجل هذا القرار انفصال الجماعة المسيحية عن الجماعة اليهودية.

١-٢. حادث أنطاكيا (غلاطيا ٢/١١-١٤)

كان قرار مجمع أورشليم قد أبدى رأيه النهائي حول موضوع الختان للوثنيين ولكن عصبية المسيحيين من أصل يهودي لم تهدأ. بعد مجمع أورشليم ذهب بطرس إلى أنطاكيا وكان يعيش هناك مع الجماعتين: اليهودية-المسيحية والوثنية-المسيحية، ولكن جاء قوم من يعقوب متمسكون بشريعة موسى؛ فامتنع بطرس عن تناول الطعام مع المسيحيين من أصل وثني وفعل برنابا مثله أيضًا؛ فواجه بولس بطرس مواجهة شديدة أمام الجماعة كلها.

وينبغي أن نفهم هذا الحادث في إطاره الكامل:

- بولس، الذي يفكر في المسيحيين من أصل وثني، يريد أن يحرر المسيحية من ارتباطاتها باليهودية.

- بطرس يريد أن يتجنب عودة المسيحيين من أصل يهودي إلى اليهودية، يريد أن يحفظهم مشيرًا إلى أنه يمكن للمسيحي أن يكون أمينًا للإيمان المسيحي وللشريعة الموسَوية معًا.

كان الموقفان شرعيين، لكنهما غير قابلين للتوافق، بعد هذا الحادث يفقد بولس الأمل في إمكانية وجود جماعة يهودية-مسيحية ولا يفكر إلا في مستقبل الكنيسة في المحيط اليوناني-

الروماني، ومن هنا نفهم المعارضة الكبيرة التي قامت ضده من طرف المسيحيين من أصل يهودي.

وبطرس- بالعكس- يبدو أنه لم يفقد هذا الأمل،فبولس لا يُحَرِّف الوقائع ولكن نستطيع أن نقول إنه يعطينا عنها وجهًا واحدًا، فمن الواضح - ولا شك- أن رؤية بولس كانت جزئية.

٢. يرجع الفضل في انتشار المسيحية في العالم الوثني خصوصًا لبولس ولمعاونيه، يخبرنا عن ذلك سفر أعمال الرسل ورسائل بولس.

- في مطلع سنة ٥٠م يبدأ بولس سفرًا تبشيريًا جديدًا فيجتاز سوريا وكيليكيا، يزور المسيحيين الذين في دربا ولسترا وأيقونيا وأنطاكيا في بيسيديا ويدخل إلى مناطق جديدة مثل غلاطيا وفريجيا الشمالية وميسيا. وشيء مهم في هذا السَّفر هو أن بولس ينتقل إلى أوروبا ويؤسس كنائس في مقدونيا وأكايا (١ تس ١/٧-٨). وفي مقدونيا يتوقف في فيلبي، ثم يسافر إلى تسالونيكيا وبيريا وأثينا وأخيرًا إلى كورنثوس حيث يبقى سنة ونصف سنة (١٨/١١)، أي من بداية ٥١م حتى صيف سنة ٥٢م. وفي كورنثوس يكتب رسالتين إلى أهل تسالونيكيا، ثم يرجع إلى أنطاكيا مارا بأفسس وأورشليم.

- يسافر مرة أخرى في ربيع ٥٣م ويجتاز غلاطيا وفريجيا ولكن هدف سفره هذه المرة كان أفسس، ومن أفسس يكتب الرسالة إلى غلاطيا والأولى إلى كورنثوس. كان أهل غلاطيا قد

عادوا إلى اتباع الشريعة الموسَوية: المسيح كان قد حررهم، لكنهم كانوا قد عادوا إلى نير العبودية (غل ٥/١).

- يتوقف بولس في مقدونيا ويقصد الرجوع الى أورشليم بعد سفره إلى كورنثوس وروما (٢١/١٩)، لكنه يصل فقط إلى كورنثوس في نهاية سنة ٥٧م (٢/٢٠). وفي شتاء ٥٧م-٥٨م يكتب الرسالة إلى روما، ثم يقصد فيلبي ويمر بطرواس ويتوقف بميليتس ويأتي إلى صور بحرًا ويصل إلى أورشليم في عيد العنصرة سنة ٥٨م (١٦/٢٠).

إن نتيجة إرساليات بولس كانت إيجابية جدًا فقد أسس بين سنة ٥٠م و٥٩م كنائس في مقدونيا (فيلبي وتسالونيكي) وفي أكايا (كورنثوس) ولكن كانت هناك معارضة صاعدة من ناحية المسيحيين (من أصل يهودي) المتأثرين بالوطنية اليهودية، وستسبب هذه المعارضة القبض عليه في أورشليم سنة ٥٨م واستشهاده سنة ٦٧م.

إن كل الصعوبات التي واجهها بولس كان لها سبب واحد وهو معارضة المسيحيين من أصل يهودي.

- في روما يتمتع بولس بحرية مراقبة من سنة ٦٠م حتى سنة ٦٣م، وأثناء ذلك يكتب الرسائل إلى كولوسي وأفسس وفيلبي، وقد أطلق سراحه سنة ٦٣م فواصل بولس نشاطه الإرسالي، وتخبرنا عن هذه الفترة الأخيرة الرسالتان إلى تيموثلوس والرسالة إلى تيتوس.

وفي روما تنفجر الكارثة، فنيرون حاكم الإمبراطورية الرومانية منذ سنة ٥٤م، يتهم المسيحيين بأنهم أحرقوا مدينة روما (سنة ٦٤م) ويَشنّ اضطهاداً عنيفاً ضدهم ويذهب بطرس ضحية هذا العنف. وحسب رسالة البابا أكليماندوس، يبدو أن المسيحيين من أصل يهودي هم الذين بلّغوا عنه السلطات الرومانية حسدًا منه.

أما بولس، فإنه يدخل السجن في روما مرة أخرى ومن هناك يكتب الرسالة الثانية إلى تيموثاوس. ويمكننا أن نحدد استشهاده بسنة ٦٧م. وبولس أيضًا ذهب ضحية حسد المسيحيين من أصل يهودي الذين بلّغوا عنه السلطات الحكومية.

٣. وأثناء هذه السنين، قد صار الوضع في فلسطين من سيء إلى أسوأ. لقد استشهد يعقوب رجمًا سنة ٦٢م ويبدو أن الفريسيين هم السبب لأنهم خافوا من تأثيره على الشعب. فنلاحظ أن هناك عداوة صاعدة ضد المسيحيين لأنهم رفضوا أن ينضموا إلى الحركة المسيحانية ضد الرومان. ووصلت الوطنية سنة ٦٦م إلى أقصى حد. وتبدأ الحرب اليهودية فتلتجئ الجماعة المسيحية إلى "بيللا" عبر الأردن يرأسها سمعان- قريب ليسوع- الذي خلف يعقوب. وهذا الترحيل يدل أكثر من أي شيء آخر على انفصال الجماعة المسيحية النهائي عن اليهودية.

كانت جماعة أورشليم قد حاولت أن تبقى على علاقة مع اليهود وأن تعمل على اهتدائهم للمسيح. وبالرغم من ذلك

اضطهدها اليهود؛ فهي تترك الآن إسرائيل تسير نحـــو مصيرهـــا.
وسنة ٧٠م يحتل الإمبراطور تيتوس أورشليم، ويذبح اليهود ويدمر الهيكل.

الفصل الرابع

أفسس ، أداسا ، روما

مقدمة

أ- إن سقوط أورشليم ينهي المسيحانية اليهودية ويحـــرر المسيحية من ضغط اليهودية. فالكنيسة كانت قد اندمجت كثـــيرًا مع العالم إليهودي ولا يمكن أن تتحرر منه مرة واحدة ولا يمكـــن أيضًا أن تنسجم فورا مع العالم الهليني. فالفترة بـــين ســـنة ٧٠م وسنة ١٤٠م تقريبًا هي فترة بحث واختبار مع العلم بأن المســـيحية الهلينية كانت لاتزال شابة جدًا فلا تستطيع أن تعبر عن حقائقـــها الدينية بأفكارها الخاصة.

ب- وعلى هامش اليهودية والمسيحية، هناك ظـــــهرت شيع غنوصية وحرفت كل الحقائق المسيحية.

ج- ونشهد عنصرًا آخر في هذه الفترة هـــو المواجهـــة الأولى بين المسيحية والإمبراطورية الرومانية.

د- وأخيرًا، نشهد رسالة الكنيسة اليهودية-المســيحية في آسيا وما بين النهرين وفي روما.

يقول المؤرخ أوزيبيوس في الفصل الثالث مـــــن كتابـــه "التاريخ الكنسي" إن الرسل كانوا قد قسموا الأرض المســـكونة إلى مناطق مختلفة، بحيث يعمل كل واحد منهم في منطقة معينـــة. فمثلاً: توما عمل عند الفرثيين (ما بين العراق وإيـــران حاليًـــا)،

ويوحنا في آسيا، وبطرس في البونطس (شمال شرق تركيا حاليًا) وفي روما، إلخ ومن المؤكد أن هذا القول يتضمن جزءًا من الحقيقة، خصوصًا فيما يتعلق بيوحنا و بطرس، أما بالنسبة للآخرين فمن الصعب التحقق من صحة هذا القول.

لقد قامت الكنيسة اليهودية-المسيحية برسالة في آسيا الصغرى، مع يوحنا وفيلبس، وفي منطقة ما بين النهرين (وهما دجلة والفرات) مع يعقوب وتوما، وفي فينيقيا والبونطس وأكايا وروما مع بطرس، فكل كنيسة من هذه الكنائس كانت لها عناصرها الخاصة بها.

١. المسيحية في آسيا

١-١. فريجيا الشرقية

إن الكنيسة في آسيا الصغرى رغم أننا لا نعرف الكثير عن الجزء الشرقي منها (وهو ليكاونيا وكيليكيا)، غير أنها احتفظت بكرازات بولس، واتسمت بالحيوية بوجه عام في الجزء الغربي منها، أي في فريجيا والشواطىء.

وفريجيا نفسها لها جزءان: الشرقي والغربي. نعرف تاريخ الكنيسة هناك من خلال شاهد مشهور وهو بابياس الذي كان أسقفًا على هيرابوليس، وهي مدينة كانت تقع شرق هذه المنطقة. ويقول إيرينيوس إن بابياس كان زميلاً لبوليكربوس في شبابه. ويقول إيرينيوس أيضًا إن بابيساس كان تلميذًا ليوحنا الرسول.

فمن الممكن أن يكون يوحنا الرسول هو ذلك الشيخ الذي يقول بابياس عن نفسه إنه كان تلميذًا له. يقول بابياس في كتابه "تفسير كلمات الرب" حيث جمع التقاليد الخاصة بالرسل إنه سمع في هيرابوليس عن بنات فيلبس الرسول. وفي نهاية القرن الثاني يؤكد بوليكراتوس- أسقف أفسس- هذا الخبر. هؤلاء البنات الأربع هن بنات فيلبس الرسول (وليس فيلبس الشماس) الذي مات في هيرابوليس. وهناك تقاليد أخرى تؤكد هذه العلاقة بين فيلبس الرسول وفريجيا.

لنلاحظ أن فريجيا تقع بالقرب من المنطقة التي عمل فيها يوحنا الرسول، والجدير بالذكر أن فيلبس له دور بارز في إنجيل يوحنا الذي دوّن في تلك الفترة من الزمن، أي في نهاية القرن الأول.

وأخيرًا لنلاحظ أيضًا أن هيرابوليس لم تتسلم أية رسالة من بولس ولا من يوحنا، بينما استلمتها المدن المجاورة، مثل كولوسي ولاوديكيا: فهل كان هذا لأن هيرابوليس كانت منطقة عمل لفيلبس؟

- تختلف اليهودية-المسيحية في آسيا الصغرى عن اليهودية-المسيحية التي نجدها في فلسطين مع يعقوب وفي سوريا مع بطرس، فالطابع الخاص باليهودية-المسيحية في هذه المنطقة هو الحماس الرؤيوي، لذلك بقي الأمل في مسيحانية أرضية حتى بعد سقوط أورشليم (سنة ٧٠م) وربما بسبب هذا الحماس نجد في هذه المنطقة أكبر عدد من الشهداء أثناء هذه الفترة.

١-٢. فريجيا الغربية

كانت فريجيا الشرقية منطقة عمل لفيلبس- كما رأينا- وفريجيا الغربية منطقة عمل ليوحنا الرسول. وامتد عمل يوحنا حتى شواطىء آسيا الصغرى ودام أثناء حكم دوميزيانوس (٨١م-٩٦م) ونيرفا (٩٦م-٩٨م) وتريانوس (٩٨م-١١٧م).

قضى يوحنا مدةً في أورشليم، حيث كان يعتبر مع بطرس ويعقوب عمودًا للكنيسة (أع ٢/٩)، ومن المؤكد أنه حضر مجمع أورشليم سنة ٤٩م ثم اختفى. نجده مرة أخرى في المنفى- بقرار من الإمبراطور دوميزيانوس- في جزيرة بطموس (شمال جزيرة رودس) وعاش بعد المنفى في أفسس حيث تُوفّي. نعرفٍ هذه الأخبار من إيرينيوس- الذي هو من آسيا الصغرى أصلاً- والذي كما ذكرنا أعلاه عرف بوليكربوس الذي كان تلميذًا ليوحنا.

يذكر إيرينيوس مرارًا تعليم يوحنا في أفسس ويحدد أنه عاش حتى حكم تريانوس (٩٨م-١١٧ م) وكان بوليكربوس وبابياس تلميذين له.

- ليس يوحنا هو الأول الذي بشر في هذه المنطقة، فقد رأينا أن بولس أيضًا كان قد عاش في أفسس ولكنه لم يكن هو أيضًا المبشر الأول في فريجيا الغربية لأنه كان قد وجد هناك جماعة يهودية-مسيحية، وهذا المحيط إليهودي-المسيحي سيجد عناصره الخاصة به مع يوحنا. كان يوحنا ينتمي إلى الجماعة الذين أرادوا أن يتنازلوا عن أقل ما يمكن من اليهودية الأصلية، ونرى ذلك

بوضوح في سفر الرؤيا، حيث يدين يوحنا بقسوة الذين يقبلون أن يأكلوا ذبائح الأوثان (رؤ ٢/١٤، ٢/٢٠)، بينما نعرف الحرية التي كان يتطلبها بولس في هذه النقطة. وترى آسيا الصغرى نوعًا خاصًا لليهودية-المسيحية التي تنمو فيها، مثلا ستواصل آسيا الاحتفال بعيد الفصح في اليوم نفسه مع اليهود. ولا ننسى أن الإنجيل والرؤيا يأتيان من هذه البيئة اليهودية-المسيحية حيث كانت التأثيرات الأسينية واضحة جدًا، فتأثر سفر الرؤيا بالاضطراب الذي سببه تنجيس الهيكل سنة ٧٠م ويرى في ذلك عقابًا لإسرائيل، ولكنه ينظر أيضًا إلى أورشليم، حيث ينتظر ظهور أورشليم الجديدة. وفي الإنجيل لايزال موضوع الهيكل سائدًا، لكن يوحنا يراه موجودا في شخصية الكلمة المتجسدة.

- لدينا عكس هذا الاتجاه في رسائل أغناطيوس الأنطاكي الذي اجتاز آسيا الصغرى في نهاية حكم تريانوس. تشهد هذه الرسائل بأن القوانين الموسَوية كانت لا تزال مستمرة هناك، فيحاول أغناطيوس أن يسيطر على المواقف المتطرفة. يكتب إلى جماعة في مدينة مغنازيا أن المسيحيين لا يراعون يوم السبت بل يوم الرب ويضيف أنه ليس معقولاً أن نتكلم عن يسوع وفي الوقت نفسه نتبع اليهودية. ويكتب إلى جماعة في مدينة ترالي بأن التمسك باليهودية يمنع اهتداء الوثنيين، ويكتب إلى جماعة في مدينة فيلادلفيا بأنه يجب ألا نثق بالذين يفسرون الكتاب المقدس حسب المفهوم اليهودي.

لنلاحظ أن أغناطيوس يربط هذا الاعتراض لليهودية-المسيحية بنداء مُلِحّ إلى الوحدة مع الأسقف، وربما يدل ذلك على

أن أفسس بالذات كانت في ذلك الوقت لا تزال بـها جماعـة يهودية-مسيحية موجودة بجانب جماعة وثنية-مسيحية.

- أفسس

من سفر الرؤيا ورسائل أغناطيوس وبابياس وبوليكربوس نعرف شيئًا ما عن المراكز المسيحية المختلفة التي نشأت في آسيا، وأول مركز نجده هو أفسس، فهناك تُوفّي يوحنا الرسول. وفي سفر الرؤيا يتوجه يوحنا أولاً إلى أفسس (٢/١-٨)، فيعترف بأنهم تحملوا المشقات (رؤ ٣) وربما يدل ذلك على الاضطهاد الذي أتى من دوميزيانوس والذي بسببه ذهب يوحنا نفسه ضحية له. ويلوم يوحنا مسيحيي أفسس لأنهم تركوا الحب الأول (رؤ ٤). وسيعترف أغناطيوس- بعد ثلاثين سنة- بتفوق كنيسة أفسس ويشيد بها لأنها طاهرة من أية هرطقة ويذكر أسقفها أونيزيمس بالخير. وحوالي سنة ١٩٠م يقول بوليكراتوس- أسقف أفسس- إن سبعة أعضاء من عائلته كانوا أساقفة من قبله . وفي سنة ١٩٦م يشهد أبولونيوس على أن هناك تقاليد من يوحنا لا تزال مستمرة.

- أزمير

كانت هذه الكنيسة موجودة وقت تدوين سفر الرؤيا، حيث نجد رسالة موجهة إليها (رؤ ٢/٨-١١) وأصبحت ذات أهمية كبيرة عندما صار بوليكربوس أسقفًا عليها سنة ١١٠م. كان أغناطيوس ضيفًا لبوليكربوس في أزمير أثناء سفره إلى روما وسيكتب إليه رسالة من طرواس. وبعد ذلك بقليل، سوف يكتب

بوليكربوس إلى مسيحيي فيلبي ليرسل إليهم مجموعة رسائل أغناطيوس. وكما قلنا، نعرف جيدًا بوليكربوس من خلال إيرينيوس الذي عاش معه في أزمير في شبابه والذي يتكلم عنه في رسالته إلى فلورينس. ويبدو أن بوليكربوس استشهد سنة ١٥٥، بقرار الإمبراطور أنطونينوس (١٣٨-١٦١).

- الكنائس الأخرى في آسيا

لدينا القليل من أخبار الكنائس الأخرى التي نشأت في آسيا. يذكر سفر الرؤيا برغاموس (٢/١٢-١٧) التي كانت مركزًا لعبادة الإمبراطور. وكذلك يذكر ثياتيرا (٢/١٨-٢٩). ويبدو أن كنيسة ساردِيس كان لها أهمية فسوف يكون الأسقف العظيم ميليتون أسقفًا عليها في النصف الثاني من القرن الثاني. ونجد أيضًا كنيسة فيلادلفيا التي يكلمنا عنها يوحنا (رؤ ٣/٧-١٣) وأغناطيوس الأنطاكي . وتشهد رسائل أغناطيوس بوجود كنيسة في مغنازيا وفي ترالي.

لاحظنا أن رسائل أغناطيوس الأنطاكي تدخل في جدال في نقطتين: أنها من ناحية تلح كثيرًا على الوحدة مع الأسقف ومن ناحية أخرى تعترض اليهودية-المسيحية. ربما يكون السبب واحدًا وهو وجود جماعة يهودية-مسيحية مع تمسكها المتطرف باليهودية. فيبدو أن تيارًا يهوديًا قويًا كان موجودًا في آسيا في هذا الوقت.

٢. رسالة الكنيسة الفلسطينية

٢-١. بعد سقوط أورشليم سنة ٧٠م رجع البعض من الجماعة المسيحية- التي كانت قد التجأت إلى بيلا سنة ٦٧م -إلى فلسطين ومن المؤكد إلى أورشليم. يلاحظ المؤرخ أوزيبيوس أن جماعة أورشليم كانت كلها مكونة من عبرانيين أوفياء وكانت تشمل -أقارب ليسوع المسيح- أشخاصًا من سلالة يهوذا الذين عاشوا حتى حكم تريانوس (٩٨-١١٧). لا شك أن رسالة يهوذا تأتي من هذا المحيط إذ نلاحظ فيها طابعًا يهوديًا-مسيحيًا قويًا. ويبدو أن كنيسة أورشليم هي بقية الكنيسة اليهودية-المسيحية القديمة التي كان يرأسها يعقوب وتتميز هذه الكنيسة بالتمسك الشديد بالقوانين اليهودية.

٢-٢. التبشير في مصر

ويرتبط أيضًا تأسيس الكنيسة في مصر بأورشليم، حيث ليس من المعقول ألا يكون قد ذهب إليها مرسلون وهي في المناطق الخاصة برسالة الفلسطينيين لا في المناطق التي بشر فيها بولس، و يبدو أن المرسلين الأولين الذين بشروا في مصر كانوا هلينيين لأن "الرسالة إلى العبرانيين" التي لا شك أنها من أصل مصري لها علاقات واضحة مع خطاب إسطفانس. ولدينا أيضًا قطع من إنجيلين غير قانونيَين وهما: "إنجيل المصريين"، ذكره أكليماندو الإسكندري، و"إنجيل العبرانيين"، ذكره أكليماندوس الإسكندري وأوريجينوس. إن العناصر اليهودية-المسيحية الموجودة في هذين الإنجيلين جلية جدًا، كما يبدو أيضًا من هذين الإنجيلين أنه كانت هناك جماعتان: واحدة مكونة من يهود مهتدين

والأخرى من مصريين مهتدين. ويبدو أيضًا أن بانتينوس- وهو أول علامة في الإسكندرية- كان يهوديًا-مسيحيًا ومرتبطًا بالمحيط الفلسطيني وكان يعرف اللغة العبرية. وفي آخر القرن الثاني، بخصوص المناقشة حول تحديد تاريخ عيد الفصح، يرسل الإسكندريون ردهم عن طريق أسقف أورشليم نارسيسيو.

- يدل نظام السلطة الكنسية في مصر على أنها بُشّرت من الجماعة اليهودية-المسيحية. فكان الأسقف في مصر رئيس الكهنة وكان يتم اختياره من الكهنة أنفسهم الذين كانوا يختارون واحدًا من بينهم. ونرى أن هذا النظام يشبه النظام اليهودي-المسيحي حيث كان الأسقف رئيسًا للكهنة ، بينما كان الوضع في آسيا يختلف، حيث كانوا يتبعون النظام الهليني وفيه يكون معاونو الأسقف هم الشمامسة وليس الكهنة.

٢-٣. التبشير في الأوسروين

وبشرت الكنيسة الفلسطينية أيضًا في الأوسروين (بين سوريا والعراق حاليًا) وأسست هناك جماعة مسيحية ستكون الجماعة الآرامية الوحيدة التي ستستمر.

يبدو أنه من أواخر القرن الأول، قد قَدِمَ مسيحيون آراميون من فلسطين إلى الأوسروين وبشروا الجماعات اليهودية الموجودة هناك. رجل يهودي اسمه طوبيا استقبل آداي المرسل اليهودي-المسيحي. والجدير بالذكر أن مسيحيي الأوسروين يحتفلون بعيد القيامة مثل مسيحيي فلسطين وليس مثل مسيحيي آسيا. وهناك خبر مهم تسلمه المؤرخ أوزيبيوس من أوريجينوس وهو أن توما كان رسول الفرثيين الذين كانوا يسكنون في سوريا

الشرقية في ذلك الحين. وفعلاً يبقى ذكر توما مرتبطًا بمدينة أداسا، حيث يُكرَم جسده من القرن الرابع. وفي الواقع أُلِّفَت في مدينة أداسا الكتب الخاصة بتوما، مثلما أُلفت الكتب الخاصة بفيلبس بفريجيا الشرقية والكتب الخاصة بيوحنا في آسيا. نذكر، من بين الكتب الخاصة بتوما، "إنجيل توما" (مدوّن في نصف القرن الثاني) الذي اكتشف في نجع حمادي (في مصر) والذي يلعب فيه يعقوب دورا مهمًا جدًا. وهذا يؤكد الأصل الأورشليمي لكنيسة أداسا. ونذكر أيضًا "مزامير توما" (مدوّن في القرن الثاني) و"أعمال توما" (مدون في القرن الثالث). إن هذه الكتب كلها غير قانونية. وهناك كتاب آخر (غير قانوني) دُوّن قبل هذه الكتب كلها وهو "تسابيح سليمان"، الذي دوّن في أداسا في نهاية القرن الأول. ونجد علاقات واضحة جدًا بين هذه الكتب الليتورجية التي ذكرناها وبعض الكتب الأسينية في قمران. فلا شك أن هذه الكتب هي مؤلفات مرسلين يهود-مسيحيين من أصل أسيني قدموا من فلسطين.

٢-٤. التبشير في الأديابين

ونرى أيضًا أن المسيحية قد انتشرت في الأديابين (عبر نهر الدجلة) في أواخر القرن الأول. ونحن لا نستغرب من هذا التبشير المبكر لأن جهودا يهودية كبيرة قد تم بذلها في هذه المنطقة أثناء القرن الأول. وبدأت الرسالة اليهودية-المسيحية في هذا المحيط اليهودي. والجدير بالملاحظة أن أساقفة الأديابين- الذين عاشوا في القرن الثاني- كلهم يحملون اسمًا يهوديًا: شمشون،

إسحاق، إبراهيم، موسى، أبيل. وفعلا ستكون مسيحية الأديـابين متأثرة جدا بالعناصر اليهودية-المسيحية.

٢-٥. هل انتشرت رسالة الكنيسة الفلسـطينية حـتى الهند؟

يقول المؤرخ أوزبيوس إن بانتينوس قام برسالة في تلـك المناطق وأنه قد وجد هناك "إنجيل متى" مكتوبا بالحروف العبريـة، فهل يجب أن نفكر أن المسيحية دخلت الهند في أوائل القرن الثـاني بواسطة مرسلين يهود-مسيحيين؟ لا نستبعد ذلك. يقول تقليـد لاحق إن رسول هذه المناطق هـو برثولومـاوس، ربمـا بشـر برثولوماوس بلاد العرب وامتد تبشيره من هذه المناطق حتى الهند.

ومن ناحية أخرى، يبدو أن بـانتينوس كـان مرسـلا يهوديا-مسيحيا قادما من مصر، وهذا يثبت ما قلناه أعـلاه (٢-٢) وهو أن الجماعة الأولى في مصر كان لها طابع فلسطيني أكيد.

٣. رسالة بطرس

٣-١. هناك منطقة ثالثة للمسيحية في ذلك الوقت وهي منطقة بطرس، التي تشمل شواطئ فلسطين وفينيقيـا وسـوريا وكيليكيا التي تطل على البحر الأبيض المتوسط. يعود التبشـير في قيصريا ويافا وصور وصيدا خصوصا إلى بطرس. نعرف ذلك مـن "كرازات" بطرس (المدونة في مطلع القرن الثاني) الـتي لا تحمـل حقيقة تاريخية، لكنها تدل - على الأقل - على وجود بطـرس في تلك المناطق.

أما أنطاكيا فوضعها يختلف لأنه كما سبق وذكرنا، فالكنيسة فيها كانت مؤسسة عن طريق الهلينيين إلى جانب جماعة مسيحية قديمة تابعة لإرشادات يعقوب، وجماعة مسيحية أخرى من أصل وثني اهتدت على يد بولس. تُظهر الكتب المدونة في هذه الفترة نوعًا من اليهودية–المسيحية يختلف عن اليهودية–المسيحية الخاصة بفلسطين وآسيا، نذكر من بين هذه الكتب: "صعود إشعيا" و"رسالة برنابا"، من أصل أنطاكي، و"الديداكي"، الذي يقدم عقيدة لها طابع يهودي–مسيحي واضح. وكما قلنا، لم تكن الجماعتان متفقتين الواحدة مع الأخرى وربما هذا هو السبب الذي من أجله كان أغناطيوس يلح كثيرًا على وحدتهما مع الأسقف الوحيد. ومهما كان الأمر، وإن لم تكن كنيسة أنطاكيا خاصة ببطرس وحده، فإن هناك روابط كثيرة ببطرس.

رأينا أن بطرس أقام هناك في زمن مبكر جدًا. ويشهد تاوفيلوس وسيرابيون أن الكتب المنسوبة لبطرس يقرأها المسيحيون كثيرًا في أنطاكيا . و"صعود إشعيا" هو أول كتاب يذكر استشهاد بطرس. فيبدو أن اليهودية–المسيحية في أنطاكيا تتبع إرشادات بطرس وكذلك في المناطق الفينيقية.

٢–٣. يقول المؤرخ أوزيبيوس إن مقاطعة بونطوس المطلة على البحر الأسود والمناطق المجاورة له (بيتينيا وكبادوكيا وغلاطيا) ترتبط ببطرس. وهناك دلائل أخرى تثبت ذلك. الرسالة الأولى لبطرس موجهة لمسيحيي هذه المناطق. ونعرف من "رسالة" الأسقف ديونيسيوس– أسقف كورنثوس في نصف القرن الثاني–

أن هناك روابط عميقة بين بونطوس وكورنثوس. ونعرف من العهد الجديد أن بعض الجماعات التي أسسها بطرس كانت من كورنثوس (١ كو ١/١٢).

وفي الجدال حول تحديد تاريخ عيد القيامة، انضم أساقفة بونطوس إلى أسقف روما وليس إلى أساقفة آسيا.

- لدينا وثيقة مهمة للغاية عن المسيحية في بيتينيا أثناء حكم تريانوس (٩٨-١١٧) وهي رسالة بلينيوس الأصغر. تتكلم هذه الرسالة عن مشاركة النساء في التبشير وفي بعض الطقوس الليتورجية، مثل مسحة النساء قبل المعمودية، كما سيقول أكليماندوس الإسكندري أيضًا. والجدير بالملاحظة أنه- حسب شهادة ترتوليانوس- في جماعات مارشون- أصلاً من بونطوس- كانت النساء يعلمن ويطردن الشياطين ويعمدن.

- أما اليونان فكانت المنطقة الخاصة ببولس وتعود إليه كنائس مقدونيا وتساليا وأثينا. وقد كتب لوقا وهو في اليونان إنجيله وأعمال الرسل. ولكن في كورنثوس يربط الأسقف ديونيسيوس ذكر بطرس بذكر بولس ربطًا وثيقًا. ونعرف من رسالة يكتبها من روما البابا أكليماندوس الروماني في مطلع القرن الثاني إلى مسيحيي كورنثوس أن هناك روابط بين كورنثوس وروما وأن في روما أيضًا يكون ذكر بطرس مرتبطًا بذكر بولس.

٣-٣. ليست لدينا أخبار عن كنيسة روما في الفترة التالية لاضطهاد نيرون. ربما في هذا الوقت يُدَوِّن مرقس كرازة بطرس. يعطينا إيرينيوس اسم أسقفي روما لهذه الفترة وهما

لينوس وكليتوس ولكننا لا نعرف عنهما إلا الاسم. ويتغير الوضع في سنة ٨٨م تقريبًا عندما يصبح أكليماندوس أسقفًا على روما. وفي رسالته إلى مسيحيي كورنثوس، سنة ١٠٠م تقريبًا يتكلم البابا أكليماندوس عن الكهنة (ويسميهم أيضًا "أساقفة") وعن الشمامسة، ويقول إن استشهاد بطرس وبولس قد حدث في روما. نفهم من هذه الرسالة أن نظام كنيسة روما شبيه جدًا بنظام كنيسة أنطاكيا . ونلاحظ أيضًا في رسالة البابا أكليماندوس طابعًا يهوديًا-مسيحيًا واضحًا. نستنتج ذلك من الأهمية المعطاة لأشخاص العهد القديم. فتذكّرنا هذه العناصر باليهودية-المسيحية كما نجدها في فينيقيا ويبدو أنها تأتي من التقاليد الخاصة ببطرس والتي تَكَوّنَت في شواطئ سوريا وفي روما.

٣-٤. نعرف قليلاً جدًا عن العقدَين الأولَين للقرن الثاني. يعطينا إيرينيوس أسماء أفاريستوس و إسكندر كأساقفة على روما في هذه الفترة. وأثناء حبرية إسكندر يكتب أغناطيوس رسالة إلى مسيحي روما ويشيد بكرامة كنيستهم. ويحدث أثناء حبرية كسيستوس (١١٥-١٢٥) الجدال حول تحديد تاريخ عيد القيامة بين المسيحيين من أصل آسيوي والمسيحيين الآخرين. وخلف تيليسفوروس كسيستوس سنة ١٢٥م واستشهد سنة ١٣٦م.

٣-٥. تكمل الاكتشافات الأثرية بعض ؟الأخبار عن هذه الفترة. أظهرت الحفريات التي أجريت تحت المذبح الرئيسي في كنيسة القديس بطرس بالفاتيكان أن سنة ١٢٠م تقريبًا كان ذكر بطرس الرسول مكرمًا في ذلك المكان. ومن الممكن أن

يكون قبر بطرس نفسه الذي أُكتُشِفَ. على كل حال، نستطيع أن نقول بتأكيد تام أن نُصبًا تذكاريًا يشهد على ذكره ويحتفظ به. يقول الكاهن كايوس، في نهاية القرن الثاني، إنه رأى الأنصاب التذكارية للرسولين بطرس و بولس في الفاتيكان (بالنسبة لبطرس) وفي الطريق نحو مدينة أوستيا (بالنسبة لبولس). وبما أن النصب التذكاري لبطرس يقع في منطقة خاصة بالمقابر، فإنه يؤكد أن المقصود هو ذكر بطرس في روما. وتشهد النقوش الأثرية التي أُكتُشِفَت على الحائط الذي يلصق به النصب التذكاري لبطرس أن ذكر بطرس كان فعلاً مكرمًا عند المسيحيين.

٤. ملامح عن الغنوصية

٤-١. الغنوصية هي تيار فكري تبنته جماعة انحرفت عن اليهودية وأثرت في المسيحيين من أصل يهودي ولها مبادئ تحرف كل الحقائق المسيحية. ربما كانت بعض الاعتقادات قد بدأت في التقليد اليهودي، حيث نرى دور الملائكة في خلق الإنسان وفي منحه الشريعة. ولكن تتبلور عقائد الغنوصية بصورة واضحة بعد سنة ٧٠م. فقد ثار بعض اليهود وبعض اليهود-المسيحيين ضد الله الذي خانهم لأنه لم يُنقِذهم من الاحتلال الروماني. كان اليهود ينتظرون الخلاص من الله بأعجوبة ولكن هذا الخلاص لم يتحقق، بالعكس دُمِّرَت أورشليم ومعها الهيكل أيضًا. فثار هؤلاء الناس ضد الله وضد الخليقة لأنها عمله الرئيسي.

٤-٢. تبدأ الغنوصية في آسيا مع كرينطوس وفي أنطاكيا مع مناندروس. والغنوصية الآسيوية لها طابع عملي واضح وهو رفض الشريعة والمناداة بحرية متطرفة وذلك استنادا لبعض أفكار بولس. بينما كان لغنوصية أنطاكيا طابع نظري أكثر منها، وقد نمت الاثنتان وازدهرتا في الإسكندرية خصوصًا نحو سنة ١٤٠م.

٤-٣. تعتقد الغنوصية أن الله ليس هو الذي خلق الكون بل هناك كائن آخر يجهل الإله الحقيقي. وأن يسوع المسيح هو النبي الذي تنبأ به موسى، لكنه ليس ابن الله، بل ابن يوسف ومريم فقط؛ فبالتالي سر الثالوث الأقدس ليس له أي أساس.

يستطيع الغنوصيون فقط أن يعرفوا الحقائق الدينية، فهم فقط يستطيعون أن يفسروا الكتاب المقدس تفسيرًا سليمًا.

الفصل الخامس

الحياة الليتورجية عند الجماعة اليهودية-المسيحية

مقدمة

بالرغم من تنوع الاتجاهات والعناصر الخاصة بكل منطقة، تبقى هناك أساليب مشتركة لكل الكنائس أثناء الفترة بين سنة ٧٠م وسنة ١٤٠م. وتكون هذه الأساليب المشتركة مثل مرحلة وسيطة بين المسيحية كما بدأت وكما ستكون في العالم اليوناني-الروماني.

سنستخرج المعلومات عن الحياة الليتورجية عند الجماعة اليهودية-المسيحية في هذه الفترة من بعض الأسفار للعهد الجديد ومن الأدب اليهودي-المسيحي ومن بعض البقايا الأثرية.

١ . التنشئة المسيحية

١-١. ليس لدينا مُسَلّمات تاريخية كثيرة بالنسبة لإعدادٍ المعمودية ولكن يبدو أن نظامًا خاصًا بهذا الإعداد كان موجودًا من تاريخٍ قديمٍ جدًا. و نعرف شيئًا عن ذلك من كتاب "الدفاع الأول" ليوستينوس، حيث يقول: "الذين اقتنعوا بالحقائق التي أعلنت لهم ويعتقدون أنها سليمة ويعدون بأنهم سيعيشون وفقًا لتلك الحقائق، يُعَلّمون الصلاة و، من خلال الصوم، يُعَلّمون أيضًا أن يطلبوا من الله الغفران لخطاياهم". فنعرف من هذا النص

أن هناك مرحلتان: أولاً يُعَلّم من يريد الاهتداء كيف تكون الحياة المسيحية، ثم، عندما يعرف الإيمان وبعد أن يثبت أنه قادر على أن يعيش حسب هذا الإيمان، يُقبَل في إعداد نهائي خاص بالليتورجية. نستقي مضامين هاتين المرحلتين من وثائق ذلك الوقت وخصوصًا من "الديداكي" ومن "رسالة برنابا". وكان التعليم العقائدي يختلف إذا كان موجهًا لوثنيين أو يهود. ولم يكن التعليم ينحصر على تقديم أسرار المسيح بل كان يُظهر أيضًا- في هذه الأسرار- تحقيق نبوءات العهد القديم، وكان هذا بالضبط هو مضمون رسالة برنابا.

- لقد لاحظ دارسو هذه الوثائق أن النصوص نفسها تتكرر في كل الوثائق وأن أغلبيتها كانت مأخوذة من العهد الجديد؛ فيدل ذلك على أن مجموعات من هذه النصوص كانت قد تَكَوّنت وكانت في أيدي المبشرين ليستعملوها في التبشير. وفعلاً نجد النصوص نفسها عند مؤلفين عديدين وكثير منهم قد أدخلوا فيها تعديلات لكي يوفقوها مع الكرازة.

١-٢. تقدم لنا الديداكي ورسالة برنابا معلومات مهمة جدًا عن الكرازة الخاصة بالحياة الأخلاقية. ومواضيع هذه الكرازة هي وصتيا المحبة (لله وللقريب: تث ٦/٥، أح ١٩/١٨) وتفسير الطريقين (المؤديتين إلى الخير أو إلى الشر، راجع أيضًا المزمور الأول) وأخيرًا بعض القوانين الأخرى، من ضمنها قوانين مجمع أورشليم. ونلاحظ أيضًا أن كلمات يسوع المذكورة في هذه الكرازات قريبة جدًا من العهد الجديد ولكن فيها تعديلات كبيرة. فيدل ذلك على أن هناك تقليدًا شفهيًا مستقلاً عن

الأناجيل كان متبعًا في التعليم. وكان يختتم هذه الكرازات تسليم الصلاة الربية ("أبانا الذي").

١-٣. هناك مجموعة طقوس أخرى هي طقوس المعمودية، تبدأ هذه الطقوس برفض الشيطان وبإعلان الإيمان بيسوع المسيح. ثم يدخل طالب المعمودية (= الموعوظ = الذي يسمع الوعظ) في زمن خاص بالصوم وأثناء ذلك تُتلى صلوات لطرد الشياطين ويضع الأسقف الأيدي على طالبي المعمودية (= الموعوظين). وتُمنَح المعمودية بتغطيس المتعمد، كما يشهد الديداكي وكتاب "الراعي" (لهرماس). يتم التغطيس ثلاث مرات وكل مرة يُدعى أقنوم من الأقانيم الثلاثة. وتغفر المعمودية الخطايا وتمنح الروح القدس.

- تلي المعمودية طقوس أخرى إضافية فهناك أولاً مسحة بالميرون، رمز إعطاء الروح القدس. نجد هذا الطقس عند ثاوفيلوس الأنطاكي وفي النص القبطي للديداكي وعند ترتوليانوس. ويبدو أنه أتى من محيط يهودي-مسيحي، حيث كانت المعمودية بالماء: معمودية يوحنا التي كانت رمزًا فقط لمغفرة الخطايا واستعداداً لمعمودية يسوع. ويبدو أيضًا أن بعض الجماعات اليهودية-المسيحية لم تعرف إلا هذه المعمودية للتوبة (= معمودية يوحنا، مر ١/٤)، كما حدث لأبولوس قبل أن يكمل أكيلا وبرسكيلا معلوماته عن هذا الموضوع (أع ١٦/٨). في كتاب "التقليد الرسولي" ترافق المسحة المعمودية وتُكوِّن معها سرًا واحدًا، كما حدث للمسيح الذي أخذ المعمودية ومسحة الروح القدس معًا في نهر الأردن.

- ويأتي مع المسحة بالميرون رسم الصليب ويبدو أن علامة الصليب (+) كانت تدل أصلاً على الحرف العبري "التاو"، رمز اسم الله نفسه. ويقول سفر الرؤيا (٣/٧)، على أثر حزقيال ٤/٩، إن المختارين يحملون هذه العلامة على جبينهم.

- يدل تسليم ثوب أبيض على أنه يجب على المتعمد أن يخلع الإنسان القديم وأن يلبس إنسانًا جديدًا. نجد هذا الرمز عند بولس (رو ١٤/١٣، غل ٢٧/٣، اف ٢٤/٤، كول ١٠/٣)، لكنه هو أصلاً من اليهودية.

- يقول هرماس إن تاجًا من أوراق الأشجار كان يوضع على رأس المتعمدين. وهذا الطقس أيضًا له أصل يهودي.

- وهناك طقس آخر له أصل يهودي لأنه مرتبط بعيد المظال (أح ٢٣/٣) وهو شرب قليل من ماء المعمودية. واستمر هذا الطقس في الكنيسة السورية القديمة وكان يأتي فورًا بعد المناولة للمتعمدين الجدد.

- وكان هناك طقس أخير وهو شرب قليل من اللبن والعسل. يبدو أن ذكرًا لهذا الطقس نجده في ١ بط ٢/٢.

- وتلى طقوس المعمودية كرازة لها طابع وعظة فصحية لأن المعمودية كانت تمنح ليلة الفصح. و للمزيد من الدقة كانت تحل محل "الحجادا" وهي وعظة عن تحرير شعب إسرائيل وقت الخروج. وكانت هذه الوعظة تفتتح الوليمة الفصحية عند اليهودية وهدفها تسليم الإيمان للجيل الجديد من خلال حوار

مستمر بين رئيس الاحتفال والأولاد الحاضرين. ويختتم الاحتفال بهذه الوليمة.

٢. الأزمنة الليتورجية

٢-١. اجتماع يوم الأحد

بجانب طقوس التنشئة كان هناك اجتماع يوم ?الأحد يدل عليه العهد الجديد مرارًا وتذكره الديداكي أيضًا ("اجتمعوا يوم الرب لكسر الخبز ورفع الشكر": ٩/١٥) ورسالة برنابا. يدين أغناطيوس الأنطاكي مراعاة السبت ويلح على مراعاة يوم الأحد. وتذكر رسالة بلينيوس اجتماعًا "في يوم محدد" لترتيل أناشيد للمسيح "قبل الفجر".

- وتتكلم الديداكي عن ليتورجيا عامة للتوبة مرتبطة باجتماع يوم الأحد، تختلف هذه الليتورجيا للتوبة عن ليتورجيا مصالحة المخطئين التي يكلمنا عنها كتاب "الراعي" لهرماس والتي كانت خاصة بالحالات الاستثنائية. ربما كان الطلب الأخير في الصلاة الربية ("واغفر لنا خطايانا كما نحن نغفر لمن أخطأ إلينا") ختام هذه الليتورجيا العامة للتوبة.

٢-٢. نعرف تفاصيل أخرى عن اجتماع يوم الأحد من كتاب يوستينوس "الدفاع" الذي دوّن سنة ١٤٠م.

- يبدأ الاجتماع بقراءة "ذكريات الرسل" و"كتابات الأنبياء". يبدو أن التعبير الأول يدل على أن الأناجيل قد دوِّنَت

للاستعمال الليتورجي وأن التعبير الثاني يدل على كتب أخرى مثل رسائل بولس أو رسائل أكليماندوس أو نبوءات هرمس.

- وعظة تلي هذه القراءات.

- ثم تقدم طلبات لأجل النيات الرئيسية للكنيسة.

- فتأتي قبلة السلام.

- تبدأ هنا الصلاة الإفخارستية وفي نهايتها يرد الشعب "آمين!".

- يوزع الشمامسة الخبز المقدس والخمر المقدسة.

- وتجمع العطايا لأجل الفقراء

٢-٣. تعرفنا الأسماء المختلفة المعطاة ليوم الأحد بأصل التسمية.

- تكلمنا رسالة برنابا عن "اليوم الثامن". لا شك أن هذا التعبير خاص بالمحيط اليهودي-المسيحي، حيث كان المؤمنون بعد احتفالهم باليوم السابع اليهودي يمدونه حتى الفجر ليقوموا باحتفالاتهم الخاصة.

- بينما يتكلم يوستينوس عن "اليوم الأول" ويرى فيه علاقة مع خلق الكون. وأخذت أيام الأحد هذه التسمية، وهي اليوم الأول، من ذلك اليوم الأول الأعظم الذي هو يوم قيامة يسوع المسيح.

٢-٤. ويقول كتاب "الديداكي" إن يومَي الأربعاء والجمعة كانا مكرسَين للصوم. لنلاحظ أن هذين اليومين- خصوصًا يوم الأربعاء- كانت لهما أهمية كبيرة عند الأسينيين في قسران. ولنلاحظ أيضًا أن مسيحيين كثيرين- من أصل يهودي- كانوا يحتفلون بيوم السبت ويحتفظون بالختان. وتشهد معارضة أغناطيوس الأنطاكي على مراعاة يوم السبت أن بعض المسيحيين في أنطاكيا كانوا لا يزالون يكرمون يوم السبت في بدء القرن الثاني.

٢-٥. نجد صعوبة كبيرة إذا أردنا تحديد موقف المسيحيين الأولين بالنسبة للأعياد. نستطيع أن نقول بكل تأكيد إن الجماعات اليهودية-المسيحية استمرت في الاحتفال بالأعياد اليهودية. وأغلبية الأعياد المسيحية جاءت بدلاً من بعض الأعياد اليهودية ونرى مثلاً لذلك في مشكلة تحديد يوم الاحتفال بالفصح. كما لاحظنا أن هناك جماعات يهودية-مسيحية في آسيا الصغرى- وفي فلسطين وسوريا وفي روما أيضًا- كانت تحتفل بالفصح في اليوم نفسه مع اليهود، أي ١٤ نيسان (أبريل)، سواء أكان ذلك اليوم يقع يوم الأحد أم لا. وكان هذا الموقف يستند على آيات من العهد القديم التي تحدد ١٤ نيسان ليكون يوم الاحتفال بالفصح: "وفي اليوم الرابعَ عشرَ من الشهر الأول يكون لكم الفصح" حز ٢١/٤٥). ولكن بدأ أيضًا تقليد آخر حدد يوم الاحتفال بالفصح يوم الأحد التالي ليوم ١٤ نيسان (أبريل). وهذا التقليد هو الذي انتصر في آخر الأمر وانتشر في كل الكنيسة.

الفصل السادس

الكنيسة والإمبراطورية الرومانية

مقدمة

في العقود الأولى من تاريخها، لم يكن للكنيسة تأثير اجتماعي كبير كي تسبب مشاكل للإمبراطورية الرومانية، والتقت السلطات الرومانية بالمسيحيين فقط في المسألة التي واجهتهم مع اليهود. فتدخل الرومان في النزاعات بين اليهود والمسيحيين خصوصًا ليدافعوا عن المسيحيين ولأنهم كانوا لا يَرَوْنَ فيهم خطرًا سياسيًا. لكنه كانت هناك اضطهادات عنيفة قد حدثت ضد الكنيسة لأسباب مختلفة.

١. الاضطهادات الأولى

١-١. بدأت الاضطهادات سنة ٦٤م مع الإمبراطور نيرون الذي أسلم المسيحيين للتعذيب لأنه اعتبرهم جنسًا منافقًا، فكانت السلطات الرومانية تقبض أولاً على بعض المسيحيين؛ ثم بناء على إشاراتهم كانت تقبض على كثيرين آخرين، واتهمهم نيرون بأنهم أحرقوا مدينة روما وبأنهم "يُبغضون الجنس البشري". فما معنى هذه العبارة "يبغضون الجنس البشري"؟ كان الرومان يعتقدون أنهم يمثلون الحضارة العظمى

فأي شخصٍ كانت له عادات مختلفة عن عاداتهم كانوا يعتبرونه عدوا لهم.

١-٢. وليس هناك ذكر لاضطهادات أثناء حكم قالبا وأوتون وفيتيليوس الذين حكموا سنة ٦٨م ولا أثناء حكم فيسباسيانوس (٦٨م-٧٩م) وحكم تيطوس (٧٩م-٨١م)، ففي هذه السنين كان الحكام الرومان مشغولين بالثورة اليهودية فأهملوا المسيحيين.

١-٣. يبدأ اضطهاد جديد في فلسطين مع دوميزيانوس (٨١م ، ٩٦م) الذي قبض على كل من كان من نسل داود الملك لأنه كان يريد أن يقضي على المسيحانية اليهودية. فيجد أقارب يسوع المسيح أنفسهم في هذا الاضطهاد لأن يسوع كان من نسل داود.

بينما ضرب دوميزيانوس في روما الأريسطوقراتيين والمثقفين لأنهم كانوا يعارضونه ومن ضمنهم كان هناك مسيحيون، كما اضطهد دوميزيانوس المسيحيين في آسيا الصغرى.

ولدينا وثيقة تؤكد هذا الاضطهاد وهي سفر الرؤيا للقديس يوحنا. هذا السفر هو رسالة أمل وتشجيع موجهة للمؤمنين الذين يعيشون في الاضطهادات. وقد طُرد يوحنا نفسه من أفسس إلى المنفى في بطموس (٩/١). وتتألم كَنيسة أفسس لأجل "الاسم"، اسم المسيح (٣/٢). وفي برغاموس استشهد

أنتيباس "الذي قُتِلَ حيث يوجد إسكندر الشيطان" (٢/١٣)، ويتنبأ يوحنا بأن كثيرين سيساقون إلى السجن (٢/١٠).

١-٤. ولكن إذا كان سفر الرؤيا مهمًا لأنه يعرفنا بالاضطهادات أثناء حكم وميزيانوس، فهو مهم أيضًا وبطريقة خاصة لأنه يصف لنا تغيير موقف المسيحيين بالنسبة للإمبراطورية وهناك تعارض بارز جدًا بين هذا الموقف من المسيحيين وموقف رسائل بولس. فبالنسبة لبولس كان الخطر في اتحاد الكنيسة باليهود ومعارضتها لحكم روما؛ ولذلك يدعو بولس مرارًا إلى الخضوع للسلطة الرومانية وإلى رفع صلوات لأجلها. أما الآن، فقد انقلب الوضع وبدأت الإمبراطورية- ابتداء من نيرون- تضطهد المسيحيين فيجب أن يكون هذا معروفًا للجميع . وفي سفر الرؤيا دلائل كثيرة تثبت هذا الموقف. ويدل الرؤساء السبعة والقرون العشرة (١٣/١) على تعاقب الأباطرة ، وكذلك هناك إشارة واضحة على عبادة الإمبراطور (٢/١٠، ٣/١٠، ١٣/٣-٨) وتسمى روما باسم "بابل" رمز الوثنية المضطهدة (١٤/٨) التي يرأسها نيرون (١٣/١٨).

١-٥. نتساءل: لماذا هذا التشدد من السلطات الرومانية ضد المسيحيين والعكس؟ ذكرنا من قليل أن الرومان لم يكونوا قد ميزوا بعد بين اليهود والمسيحيين وأنهم كانوا قد اضطهدوا الأريسطوقراتيين في روما ونسل داود في فلسطين، فنفهم من ذلك أن سبب تشديد الاضطهادات ضد كنائس آسيا الصغرى هو أن المسيحية في آسيا الصغرى كانت متأثرة جدًا بالتيارات المسيحانية وظهر هناك أيضًا التيار الإيكليروسي القائل بأن يسوع

المسيح سوف يرجع بعد ألف سنة ويبني ملكوته العالمي الذي مركزه أورشليم ، فأصبح من السهل أن يمزج الرومان هذا التيار بالمسيحانية اليهودية؛ فمن ناحية كان اليهود ينتظرون المسيح ومن ناحية أخرى كان المسيحيون ينتظرون عودة المسيح فخاف الرومان من خطورة هذا واضطهدوا كل من كان على علاقة بهذه الحركة.

٢ . الكنيسة أثناء حكم الأنطونيين

٢-١. مات دوميزيانوس سنة ٩٦م ضحية مؤامرة أُقيمت ضده وبعد موته دخل نظام جديد لاختيار الإمبراطور وهو ?أن الشخص الذي يتولى الحكم ويخلف على العرش لا يكون حتمًا من أعضاء الأسرة الحاكمة؛ بل يكون من المؤهلين لهذا المنصب ويتصف بالأخلاقيات العالية والمقدرة الأساسية ولمدة قرن تقريبًا من بعد موت دوميزيانوس تعاقب في الحكم أباطرة لم يكونوا من عائلة واحدة ولا من مدينة روما نفسها بل كانوا من أقاليم بعيدة، مثلاً من إسبانيا. والأباطرة الذين حكموا في هذه الفترة هم: نيرفا (٩٦-٩٨) وترايانوس (٩٨-١١٧) وأدريانوس (١١٧-١٣٨) وأنطونينوس (١٣٨-١٦١) ومركوس أوريليوس (١٦١-١٨٠) وكومودوس (١٨٠-١٩٢). عادة يسمي المؤرخون "أنطونيين" كل هؤلاء الأباطرة الذين حكموا في هذه الفترة ولكن في الحقيقة تعود هذه التسمية فقط لأنطونيوس ولمركوس أوريليوس ولابنه كومودوس.

٢-٢. يفتتح وصول الأنطونيين إلى الحكم فترة راحة بالنسبة للاضطهادات وذلك من عهد نيرفا وهو أول الأنطونيين. ويخبرنا أوزيبيوس بأن يوحنا رجع من المنفى في بطموس واستقر في أفسس. ويبدو أن البابا أكليماندوس كتب رسالته من روما أثناء حكم هذا الإمبراطور ويقول فيها إنه لم يستطع أن يكتبها قبل ذلك بسبب "مصائب حدثت" وربما تلك المصائب هي ؟الاضطهادات التي وقعت في حكم دوميزيانوس.

٢-٣. تولى ترايانوس (٩٨-١١٧) الحكم بعد نيرفا، وهناك وثيقة مهمة جدًا في هذه الفترة وهي رسالة بلينيوس الأصغر (٦١-١١٤ تقريبًا، أسماء "الأصغر" تميزًا عن عمه بلينيوس الأكبر) حاكم بيتينيا (شمال آسيا الصغرى). هذه الرسالة موجهة إلى ترايانوس ويسأل فيها بلينيوس الإمبراطور كيف يجب أن يتصرف مع المسيحيين. هذا لأن بلينيوس كان يحكم بالموت على الذين- بعد استجوابات كثيرة- يرفضون إنكار المسيحية، وبما أن الانتماء نفسه إلى هذا الدين كان يعتبر جريمة؛ فسأل الإمبراطور إذا كان يجب عليه أن يعدم المسيحيين أم لا؟ فرد ترايانوس قائلاً إنه يجب عليه ألا يسعى وراء المسيحيين وأن له السلطة بأن يحكم على الذين عرف أنهم مسيحيون ورفضوا الإنكار، وأضاف أيضًا أنه يجب ألا يقبل بلاغًا من شخص مجهول. فنفهم من هذا الرد أنه لم يكن هناك إعدام بلا محاكمة ، وأن سبب الاتهام لم يكن جرائم معينة وإنما فقط "الاسم"، أي الانتماء إلى المسيحية؛ فكان سبب إدانة المسيحيين لم يكن قانونًا رسميًا ضدهم وإنما كان الانتماء إلى جماعة لها عادات مخالفة

للعادات الجارية في الإمبراطورية الرومانية؛ فلم تكن الاتهامات تأتي من الأباطرة- الذين كانوا بصورة عامة متسامحين- وإنما من الناس، وثنيين كانوا أم يهوداً.

وفعلاً كانت المسيحية تعلن أن كل الناس متساوون لأنهم كلهم أبناء الله وفداهم جميعًا بدمه يسوع المسيح فليس هناك مجال للرق، وتعلن أيضًا أن الإمبراطور له سلطة مدنية فقط فليس له الحق في أن يتدخل في ضمير الإنسان لأن السلطة العظمى لا تأتي منه وإنما من الله، وأيضًا كانت المسيحية تحقق تضامنًا حقيقيًا ومساعدة متبادلة بين المسيحيين. وهذا الطابع الجماعي قد جعل الناس يفهمون أن المسيحيين هم جماعة سرية ويجب رفضهم لأنهم يعتمدون على شخص مات موتًا شائنًا على الصليب فلذلك يحتقرون الآلهة الوطنية. وبالرغم من أن المسيحية لم تقصد الثورة الأساسية المباشرة، فإنها وضعت أسسًا لثورة حقيقية وجذرية وشاملة في أثينا. وبما أن أي تبليغ في أي لحظة كان من الممكن أن يطعن المسيحيين، فإن هؤلاء كانوا يعيشون في حالة عدم استقرار وفي قلق مستمر.

- ما هو مدى انتشار الاضطهادات أثناء حكم ترايانوس؟

بالنسبة لبيتينيا لدينا شهادة بلينيوس الأصغر. أما في فلسطين فاستشهد سمعان، أسقف أورشليم الثاني، وربما كان من ضمن أسباب إعدامه انتماؤه إلى نسل داود. ولكن أعظم شهيد في هذه الحقبة هو أغناطيوس- أسقف أنطاكية- الذي استشهد في

روما كفريسة مرمية للحيوانات المفترسة في ملعب عام بمناسبة عيد وثني.

٢-٤. يبدو أنه لم تكن هناك اضطهادات أثناء حكم أدريانوس (١١٧-١٣٨). وأثناء حكم أنطونينوس (١٣٨-١٦١) فقد بدأ الوثنيون يميزون بين اليهود والمسيحيين. ففي الواقع- حتى الآن- كان الوثنيون يعتبرون المسيحيين جماعة يهودية، بينما الآن بدأوا يلاحظون فيهم شخصيتهم المستقلة ويعتبرونهم أناسًا منفردين ومنعزلين عن المجتمع. غير أن مثقفي هذا العهد كانوا يعتقدون أن المسيحيين ينتمون إلى تلك الفئة الشرقية التي تشكل خطرًا بسبب عاداتها السحرية وأخلاقياتها المشكوك فيها. فيقول فرونطونيوس- معلم أنطونينوس ومركوس أوريليوس- إن المسيحيين يعبدون رأس حمار ويذبحون ويأكلون الأطفال في اجتماعاتهم الخاصة ويمارسون علاقات جنسية محرمة بعد الوليمة في أيام العيد.

٢-٥. ووقعت اضطهادات أخرى أثناء حكم مركوس أوريليوس (١٦١-١٨٠) واستشهد في روما سنة ١٦٥ يوستينوس وفي إزمير بوليكربوس وهناك شهداء كثيرون في ليون (فرنسا) سنة ١٧٧. وكل هؤلاء الشهداء قد ماتوا، مثل أغناطيوس الأنطاكي ، بمناسبة عيد وثني لأن العادة كانت هناك أن يقدم عرض في ملعب عام حيث كانت ترمى الضحايا في الساحة لتخوض صراعًا مع بعض الحيوانات المفترسة. وإذا درسنا ظروف استشهاد المسيحيين أثناء حكم أدريانوس ومركوس أوريليوس، نجد أن أشهر الشهداء قد ماتوا بمناسبة أعياد وثنية.

٣. كتب "الدفاع" عن المسيحية

٣-١. إزاء الاتـهامات التي ذكرناها، رأى المسيحيون أنه كان يجب عليهم أن يقاوموا الأحكام المسبقة وأن يقدموا الحقيقة ليس فقط للأباطرة وإنما للرأي العام أيضًا. فظهرت كتب مؤلفة باللغة اليونانية حسب العقلية اليونانية وتعبيرها الأدبي، وتقصد هذه المؤلفات شرح وتبرير "الاسم" المسيحي أمام الاتـهامات ضده ولكن الهدف الأساسي والمشترك في كل هذه الكتب هو تقديم العقيدة المسيحية الحقيقية للرأي العام لكي تكسب المسيحية احترام الناس وأكثر من ذلك لكي تجذب الناس إليها.

٣-٢. فالدفاع الأول الذي ظهر في التاريخ هو الذي قدمه كوادراتوس للإمبراطور أدريانوس سنة ١٢٤-١٢٥ في أثينا. ولم يصل إلينا من هذا الكتاب سوى بعض القطع.

وظهر أشهر دفاع أثناء حكم أنطونينوس وهو كتاب مؤلف من يوستينوس. وكان يوستينوس قد ولد في السامرة ولكن من عائلة يونانية ووثنية وقد مر بمدارس فلسفية مختلفة حتى اهتدى إلى المسيحية. وأتى إلى روما سنة ١٥٠ بينما كان أنطونينوس إمبراطورا واستشهد سنة ١٦٥. لقد كتب يوستينوس كتابين: "الدفاع الأول" و"الدفاع الثاني"، وأثبت فيهما أن المسيحيين لديهم التقوى الحقيقية وأن تعاليمهم تتوافق مع تعاليم أشهر الفلاسفة اليونانيين مثل سقراط وهيراكليتوس وأفلاطون، ثم قدم فضائل المسيحيين وأبرز خضوعهم للقوانين المدنية.

٣-٣. وهناك كتب أخرى للدفاع قد كتبت أثناء الاضطهادات من مركوس أوريليوس ما بين سنة ١٧٦ و١٨٠. نذكر منها الدفاع الذي كتبه ميليطون، حيث يقول إن ازدهار الأفكار المسيحية في الإمبراطورية قد توافق مع ازدهار القوة الرومانية نفسها، والدفاع الذي كتبه أثيناغوراس في أثينا والذي قدمه للإمبراطور مركوس أوريليوس ولكومودوس الذي كان الإمبراطور قد أشركه معه في الحكم والذي سيخلفه سنة ١٨٠. والطابع الأساسي لكل هذه الكتب هو أنها وثائق رسمية موجهة للأباطرة.

٣-٤. وهناك كتب أخرى موجهة إلى أفراد معينين أو إلى يونانيين بصورة عامة. ونذكر من ضمن هذه الكتب مؤلفات ثيوفيلوس، أسقف أنطاكيا، أثناء حكم مركوس أوريليوس، ومؤلفات تازيانوس، تلميذ يوستينوس والرسالة إلى ديوغنيتوس التي، بطريقة رائعة، تقدم المسيحية وتواجه اعتراضات مثقف وثني.

٣-٥. إن هؤلاء المؤلفين لا يطالبون فقط بحق قانوني للمسيحيين بل يقدمون أيضًا المسيحيين كأصحاب الميراث الحضاري اليوناني الروماني الحقيقيين. وينحدر من هنا الطابع المزدوج لكتبهم: من ناحية ينددون بأشكال الوثنية المختلفة وبأسرارها وبعبادة الإمبراطور ويدينون الأخلاقيات الوثنية، ومن ناحية أخرى يعرضون العقيدة المسيحية ويُصِرّون خصوصًا على الإيمان بإله واحد وعلى القيامة ويصفون الأخلاقيات المسيحية فلا

يطالبون الحكام بالتسامح فقط وإنما يعلنون أن هناك عهدًا بين المسيحية والفلسفة وبين الكنيسة والإمبراطورية.

الفصل السابع

الجماعة المسيحية في القرن الثاني

مقدمة

- تظهر الجماعة المسيحية في القرن الثاني ذات حيوية غنية جدًا؛ فنجد الأساقفة يدافعون بشدة ومهارة عظيمة عن العقيدة المسيحية الصحيحة ضد التيارات الفكرية واللاهوتية المخطئة التي بدأت تنتشر في كثير من المناطق... كما إننا نلاحظ أن كنيسة روما لها دور رئيس في تناول بعض المواضيع مثل موضوع تحديد تاريخ عيد الفصح.

- وتكتشف الجماعة المسيحية في هذا القرن أن فيها مواهب عديدة وأن فيها مؤمنين ينتمون إليها انتماءً تامًا ومؤمنين ينتمون إليها جزئيًا مثل الموعوظين والمخطئين. وسوف نعطي هنا لمحة عن تلك المواهب وسنتكلم أكثر عن العلاقة بين البتولية والزواج وعن الاستشهاد.

١. تاريخ عيد الفصح

إن النزاعات اللاهوتية التي ظهرت في هذا القرن لم تحدث فقط بين الكنيسة ومجموعات المؤمنين المتطرفين بل داخل الكنائس نفسها – التي انتمى أعضاؤها إلى تقاليد مختلفة – وقد

قاومت بعضها بعضًا في تحديد تاريخ عيد الفصح. فكانت الكنيسة في آسيا الصغرى، بصورة عامة، تتبع تقليد يوحنا الرسول وتحتفل بالفصح في اليوم نفسه مع اليهود، أي اليوم الرابع عشر من نيسان (أبريل). بينما كانت أغلبية المسيحيين خارج آسيا يحتفلون بالفصح يوم الأحد بعد الرابع عشر من نيسان (أبريل). وانفجر هذا النزاع لأول مرة في جماعة روما بين المسيحيين من آسيا والمسيحيين من روما، وكان ذلك نحو سنة ١٢٠، أثناء حبرية البابا كسيستوس. وحدث النزاع نفسه مرة أخرى عندما زار بوليكربوس، أسقف إزمير، روما أثناء حبرية البابا أنيسيتوس (١٥٥-١٦٦). فلم يستطع أنيسيتوس أن يقنع بوليكربوس بألا يحتفل بعيد الفصح في اليوم الرابع عشر من نيسان لأن ذلك كان عادة "يوحنا الرسول والآخرين الذين عاش معهم"، وبوليكربوس "لم ينل من أنيسيتوس أن يترك العادة التي كانت للكهنة قبل منه"، وبالرغم من عدم الاتفاق فارق بعضهما بعضًا في سلام. ويبدو أن هذه المشكلة قد رجعت مرارا خصوصًا أثناء حبرية البابا سوتيريوس (١٦٦-١٧٤). أما أثناء حبرية البابا فيكتور (١٨٩-١٩٩) فقد انعقدت مجامع محلية مختلفة لدراسة هذا الموضوع فكانت كل كنيسة تحدد موقفها وتخبر عن ذلك الكنائس الأخرى وقد قرأ أوزيبيوس في مكتبة القيصريا رسالة أساقفة فلسطين ورسالة سينودس روما (المنعقد تحت رئاسة البابا فيكتور) ورسالة سينودس بونطوس (المنعقد تحت رئاسة الأسقف بالماس) ورسالة من الجماعات المسيحية في فرنسا ورسالة أساقفة الأوسروين (بين سوريا والعراق حاليًا) ورسالة أسقف كورنثوس.

وهذه القائمة مهمة جدًا لأنها تثبت أن الكنائس الشرقية، وخصوصًا كنيسة الإسكندرية، كانت متفقة مع الكنائس الغربية في هذا الشأن. فكانت جميع هذه الكنائس تقول إنه يجب أن يحتفل بعيد الفصح يوم الأحد. ولكن مازال أساقفة آسيا الصغرى مرتبطين بموقفهم. فكتب بوليكراتوس، أسقف أفسس، إلى البابا فيكتور وذكره بأن الاحتفال بعيد الفصح في اليوم الرابع عشر من نيسان كان خاصًا بالرسولين فيلبس ويوحنا وببوليكربوس وميليطون. وحسب شهادة أوزيبيوس، كان يريد البابا فيكتور أن يكتب إلى جميع الأساقفة ليبلغهم أن كنائس آسيا الصغرى ليست في الشركة بعد مع الكنيسة الجامعة ولكن تدخل إيرينيوس ودعا فيكتور إلى أن يتبع معاملة أسلافه وأن يقبل العادة المزدوجة.

٢. الأساقفة

٢-١. نلتقي في هذا القرن بأساقفة عرفوا كيف يواجهون التيارات اللاهوتية الجديدة المختلفة وعرفوا كيف يمثلون في الوقت نفسه التقليد العام للإيمان ووحدته. فنجد في فلسطين أساقفة من أصل يوناني ويبرز أثناء حكم مركوس أوريليوس نارسيزيوس، أسقف أورشليم. ونجد في أنطاكيا ثيوفيلوس، المشهور ككاتب وكمبشر. وأن آسيا الصغرى هي المركز الأكثر حيوية في الكنيسة وتبدأ هناك البدع ولكن نجد هناك أيضا أشهر الأساقفة. فنذكر منهم أبوليناريس، أسقف هيرابوليس، وميليطون، أسقف سارديس وهو فخر الكنيسة في

آسيا الصغرى (وذكرنا كتابه "الدفاع" في الفصل السابق) وقد دافع بشدة عن الاحتفال بالفصح في اليوم الرابع عشر من نيسان، وبوليكراتوس، أسقف أفسس. ويبدو أن بوليكراتوس هو رئيس أساقفة آسيا الصغرى لأنه هو الذي يمثل أساقفة آسيا الصغرى في المناقشة مع أسقف روما حول موضوع تاريخ عيد الفصح. ونجد في اليونان ديونيزيوس، أسقف كورنثوس، وفي الإسكندرية ديميتريوس، الذي اصبح أسقفًا أثناء حكم كومودوس، ونجد في روما: بيوس (١٤٠-١٥٥) وأنيسيتوس (١٥٥-١٦٦) وسوتيريوس (١٦٦-١٧٤) وإيليوتيريوس (١٧٤-١٨٩) وفيكتور (١٨٩-١٩٩).

وكان عمل هؤلاء الأساقفة موجهًا، طبعًا، إلى جماعاتهم التي كانوا يرأسونها، وكان تأثيرهم أيضًا على الكنائس الأخرى كبيرًا جدًا. فبدأت مجامع محلية تنعقد، كما رأينا في مناقشة موضوع تاريخ عيد الفصح، وبدأت كل منطقة تتحد حول أسقف رئيسي، أي بطريرك، فلدينا بوليكراتوس في أفسس وفيكتور في روما وسيرابيون في أورشليم وبالماس في بونطوس ويبدو ؟أن علاقات خاصة كانت موجودة هناك بين كنائس هذه المناطق المختلفة.

٢-٢. وفي هذه الصورة الشاملة للكنيسة، كانت لكنيسة روما سلطة خاصة. فأتى بوليكربوس إلى روما سنة ١٥٥ ليناقش بعض المواضيع مع البابا أنيسيتوس، وكتب ديونيزيوس، أسقف كورنثوس، إلى كنيسة روما وإلى البابا سوتيريوس، وكتب بوليكراتوس إلى أسقف روما وليس إلى غيره ليدافع، باسم أساقفة

آسيا الصغرى، عن عادة الاحتفال بعيد الفصح في اليوم الرابع عشر من نيسان. فمن الصعب أن نرى في هذه الأحداث أن روما مهمة فقط لأنها عاصمة الإمبراطورية، وكذلك على المستوى الكنسي لا تظهر روما فقط كممثلة لتقليد من التقاليد الموروثة من الرسل، بل - بكلام أصح - أن روما تمثل تقليدًا من هذه التقاليد وهو تقليد بطرس، ولكن يبدو بوضوح أن هذا التقليد له سلطة خاصة وهذا ما يعترف به إيرينيوس - آسيوي الأصل وفرنسي بالتبني- في كتابه "ضد الهراطقة".

٣. المواهب في الجماعة المسيحية

٣-١. نعرف وجود هذه المواهب في الجماعة المسيحية في القرن الثاني من خلال كتاب "الراعي" لهرماس. فيميز هرماس في نظام الكنيسة بين فئات مختلفة، منها: الكهنة (ويسميهم أيضًا "أساقفة") والمرسلون المتجولون و الأرامل (راجع طيموتاوس ٥/٩-١٠) ويبدو أن دورهن هو تعليم النساء.

- وبجانب هذه المواهب التنظيمية، يصف هرماس المواهب الروحية التي من أهمها النبوءة والتي تتحقق خصوصًا في رفع الشكر في الاجتماعات الليتورجية. ويتكلم هرماس أيضًا عن المخطئين ويميز فيهم أنواعًا مختلفة. فهناك أولاً الأشخاص الذين عرفوا الإنجيل ولكنهم امتنعوا عن المعمودية تهربًا من التزاماتها، ثم الذين قبلوا المعمودية ولكنهم انفصلوا نهائيًا عن الله (ويسميهم هرماس "الخطأة القساة")، ثم الآخرين، أي الذين

تركوا طريق الحقيقة، وأخيرا المسيحيون الذين مازالوا مرتبطين بغنى هذا العالم. ويقول هرماس إن جميع هؤلاء المخطئين يقعون خارج الخلاص لكنهم يستطيعون أن يتوبوا. وشروط التوبة قاسية جدا وأولها الاهتداء، أي تغيير الحياة، ولكن الاهتداء نفسه لا يكفي بل يجب أن يأتي بالتكفير: "أنت تتصور أن الخطايا تغفر في الحال، كلا، يجب على التائب أن يخضع للتألم وأن يعيش متواضعا وأن يتحمل كل أنواع المحن" (٧/٤).

٣-٢. البتولية والزواج

نلتقي في هذا القرن بمشكلة خاصة وهي العلاقة بين البتولية والزواج. وكان القديس بولس قد تناول هذا الموضوع في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس ولكن الآن يعتقد البعض أن الانتماء إلى المسيحية يتطلب البتولية فلا يعتبر المتزوجون الذين كانوا يعيشون حياتهم الزوجية الطبيعية أعضاء حقيقيين في الكنيسة. و يظهر هذا المنطق خصوصا في البيئة اليهودية-المسيحية الناتجة من رسالة الكنيسة الفلسطينية، أي في مصر (راجع "إنجيل العبرانيين" و"إنجيل المصريين") وفي فلسطين (راجع "إنجيل يعقوب") وفي أداسا (راجع "تسابيح سليمان" و"إنجيل توما") وفي روما (راجع "الراعي" لهرماس). فالمشكلة ليست في القيمة العظيمة التي يخصون بها البتولية، فنجد تثبيتا لتلك القيمة في رسالة القديس بولس الأولى إلى أهل كورنثوس (٢٥/٧) حيث يوصي بولس الشباب بأن يحتفظوا بالبتولية (لكنه لا يجعلها أمرا واجبا للجميع) وفي أعمال الرسل (٩/٢١) حيث يتكلم الكاتب عن "أربع بنات عذارى" لفيلبس، ونجد أيضا هذا التثبيت فيما

بعد عند أغناطيوس الأنطاكي وعند يوستينوس، بل المشكلة هي في العلاقة بين البتولية والزواج. فيعتبر الزواج "عشبًا مرًا للفردوس". ويبدو أن في المناطق المتأثرة باليهودية-المسيحية كان هناك اتجاه إلى أن تعتبر ملء الحياة المسيحية متعارضًا مع الزواج ولكن لم يكن ذلك موقف اليهودية الرسمية، فمن هنا نفهم مرة أخرى أهمية تأثير التيارات اليهودية الهاشمية على المسيحية الأولى.

وسوف يوضح أكليماندوس الإسكندري في كتابه "أسترومات" الثالث أن البتولية مكرمة إذا كانت تنبعث من محبة الله وليس من ازدراء الزواج، فتدريجيًا سيكون الموقف المتطرف خاصًا بمجموعات هرطوقية فقط.

٣-٣. الاستشهاد

- يظهر الاستشهاد في الكتب المختلفة كالصورة العظيمة للقداسة المسيحية، كما يقول سفر الرؤيا، وهو السفر الخاص بـ "الذين أتوا من الشدة الكبرى وقد غسلوا حللهم وبيضوها بدم الحمل. لذلك هم أمام عرش الله يعبدونه نهارًا وليلاً في هيكله" (١٣/١٤-١٥). فالشهيد يدخل الفردوس مباشرة وتكرم عظامه. نجد ذلك في كتاب "استشهاد بوليكربوس" حيث نقرأ: "لقد جمعنا عظامه التي نكرمها أكثر من اللآلئ الثمينة ووضعناها في مكان مناسب. وهناك سوف نجتمع، على قدر الإمكان، في جو فرح وابتهال، لكي نحتفل، بعون الله، بذكرى اليوم الذي فيه وُلِدَ بوليكربوس عند الله من خلال الاستشهاد" (١٨/١-٣). فنجد هنا بداية إكرام الشهداء وستقام الإفخارستيا على مقابرهم.

- وتقدم الكتب المختلفة أيضًا الاستشهاد كنزاع قاس مع الشيطان وانتصار عليه وكتشبيه بآلام المسيح، لا بل أكثر من ذلك كاتحاد بالله وكتشبيه بالقيامة. ويجد الاستشهاد تعبيره الأعظم كطريق نحو التبدل الكامل في يسوع المسيح خصوصًا في "الرسالة إلى روما" لأغناطيوس الأنطاكي فلم يظهر في أي نص آخر أجمل وصف للاستشهاد كمشاركة في موت وقيامة المسيح: "يحسن عليّ أن أموت لأتحد بيسوع المسيح، فهو الذي أبحث عنه، لأنه هو الذي مات من أجلي، وهو الذي أريده، لأنه هو الذي قام من أجلنا. فميلادي يقترب، فدعوني أنال النور الطاهر وعندما سأكون هناك سأكون إنسانًا كاملاً. دعوني مقتديًا بالالآم الإلهية". لنلاحظ العبارات: "ميلادي يقترب" و"عندما سأكون هناك سأكون إنسانًا كاملاً".

ويقول أغناطيوس في نص آخر إن الشهيد هو "التلميذ الحقيقي".

- وتعلمنا كتب هذا القرن أن الاستشهاد لا يبني فقط الكنيسة من خلال الشهادة التي يقدمها وإنما له هدف فدائي، فيفدي الشعب لأن الشهيد يبذل حياته لأجل شعبه. يقول أكليماندوس الإسكندري إن الاستشهاد هو أساسًا ملء المحبة: "نسمي الاستشهاد كمالاً ليس لأنه يقع في آخر الحياة وإنما لأنه يُظْهِر كمال المحبة".

الفصل الثامن

الجماعة المسيحية في القرن الثالث

مقدمة

تعيش الكنيسة في هذا القرن توترًا داخليًا شديدًا بسبب المشاكل الجديدة التي طرأت عليها وهي:

- ما هو الموقف الذي يجب اتخاذه تجاه المسيحيين الذين- تحت ضغط الاضطهادات- ينكرون المسيحية؟

- ما هي العلاقة بين كنيسة روما والكنائس المحلية؟

وبالرغم من التوتر؛ فقد انتشرت المسيحية انتشاراً كبيرًا بين الطبقات الاجتماعية وبدأت تنظم طريقة إعداد الموعوظين وتعترف رسميًا، من خلال تعيين بارزٍ أو رِسامة، بالمواهب التي ظهرت بين أعضائها، وتنسقها تنسيقا لائقا. ومع هذا النمو للكنيسة بدأ أيضًا الفن المسيحي. وبدأت الإمبراطورية تتأثر أكثر فأكثر بالمسيحية وبالمسيحيين الذين ارتقوا العديد من المناصب الحكومية المهمة، مما سهل على قسطنطينوس إعلان موقفه تجاه المسيحية واعترافه بها رسميًا.

١. مرسوم سبتيميوس ساويروس

١-١. تشهد نهاية القرن الثاني وبداية الثالث تياراً متشدداً، كله آمال بعودة المسيح القريبة وبالتالي نداء بحياة

مسيحية تقشفية وزهدية، (مع كل ما سيأتي نتيجة ذلك) و كلــه حماس للاستشهاد ورفض الزواج. فتظهر كتب منتحلة (= غـــير قانونية) كثيرة مثل "أعمال بطرس" و"أعمال بولس"، إلخ. ونقــرأ في أعمال بطرس أنه يجب على المتزوجين ألاّ يمارسوا حياتـــــهم الزوجية الطبيعية وأن يعيشوا جميعًا، رجالا ونساء، في العفة. لقــد لاحظنا ظهور هذا التيار الفكري في القرن الماضي، لكنه يــأخذ الآن صورة واضحة وانتشارا واسعًا.

وتنتشر الآن بدعة كانت قد بدأت في القرن الماضي وهي "المونطانية" (من مؤسسها "مونطان" وهو من فريجيــــا - آســـيا الصغرى - وقد بدأ في نشر تعاليمه سنة ١٥٦). فتؤمن المونطانيـة بكل هذه الاعتقادات وتريد أن تطبقها على حيـــاة المســيحيين بطريقة متطرفة.

وتظهر أيضًا كتب كثيرة عن الشهداء، مثـــل "أعمـــال القديس يوستينوس" و"استشهاد بوليكربوس"، و"آلام فيليســـيتا وبرباتوا"، إلخ. ويروي ترتوليانوس عن مسيحيين قد تقدموا عـددا غفيرًا إلى حاكم آسيا الصغـــرى أنيـــوس أنطونينـــوس ليعلنـــوا مسيحيتهم واستعدادهم للاستشهاد، فطردهم الحـــاكم جميعًـــا. و، كما قلنا، كانت هذه الإشادة بالاستشهاد مرتبطة بالاعتقاد بأن يسوع المسيح سيعود قريبًا جدًا. ونجد هذا الاعتقاد، الذي يــأتي أصلا من آسيا الصغرى، ومقدونيا في الوقت نفسه لدى مسيحيين في أفريقيا وفي آسيا الصغرى وفي روما وفي الإســـكندرية، فـــلا يبالي أوريجينوس ولا ترتوليانوس ولا هيبوليتوس بمصـــير الذيـــن يحيون على الأرض، فهم يتوقون إلى شيء واحد وهو الاستشهاد.

١-٢. ولكن ليس كل المسيحيين يتبعون هذه الأفكار، فإذا كان أوريجينوس قد أظهر غيرته على الاستشهاد (وهذا أثناء الاضطهادات!)، فقد اتخذ أكليماندوس الإسكندري موقفًا آخر في الظروف نفسها وهرب من مدينة الإسكندرية. و لم يتبع الأساقفة هذه الأفكار لأنهم كانوا يهتمون بخلاص أكبر عدد ممكن من المسيحيين وكانوا يعرفون أنه ليس كل المسيحيين يستطيعون أن يتحملوا الاستشهاد فكانوا لا يريدون أن يتعرض أحد للخطر عبثًا. وسيسبب هذا الاختلاف بالذات توترًا في الكنيسة: سينفصل ترتوليانوس عن الكنيسة ويؤسس شيعة أخرى وسيواجه هيبوليتوس البابا زيفيرينوس والبابا كالليستوس بعنف في منتهى الشدة وسيبعد ديميتريوس، أسقف الإسكندرية، أوريجينوس. وسبب الخلاف واحد: صراع بين أناس عاشقين لكنيسة مثالية وبين رعاة واعين بظروف الكنيسة الواقعية.

١-٣. لقد كانت حالة المسيحيين، في السنوات الأخيرة من حكم الأنطونيين، قد تحسنت وكان وضعهم القانوني مازال كما هو من قبل، ولكن لم يكن الأباطرة يضايقونهم. فلم تكن هناك اضطهادات منذ حكم مركوس أوريليوس (١٦١-١٨٠) وكومودوس الذي يخلفه سنة ١٨٠ والذي سيقبل مسيحيين بين حاشيته. ويبدو أن هذا الوضع سيستمر أيضًا في بداية حكم سبتيميوس ساويروس، فهو أيضًا يقبل أن يكون هناك مسيحيون بين معاونيه. وهذا لأن اهتمامه الوحيد كان خير وخدمة الإمبراطورية فلم يكن يريد أن يبعد أناسًا ماهرين فقط لأنهم مسيحيون، بالعكس، فإنه كان مستعدًا أن يحميهم إذا كانوا

يخدمون وينفعون الدولة. ومع ذلك، فسيقع اضطهاد ضد المسيحيين أثناء حكمه والسبب هو المواقف المسيحية الشديدة التي وضحناها. فبينما كان سبتيميوس ساويروس يحاول أن يحسن قوانين الزواج ليقوي العائلة، وكان هؤلاء المسيحيون ينكرون الزواج ويدعون كل إخوتهم إلى العفة وعندما كانت حدود الإمبراطورية مهددة من الشرق (البارثيون) ومن الشمال (السكوتيون) فكان من الضروري أن تتحد كل قوى الإمبراطورية في صف واحد، غير أن هؤلاء المسيحيين كانوا ينادون أيضًا برفض الخدمة العسكرية.

فأصدر سبتيميوس ساويروس مرسومًا سنة ٢٠٢ منع فيه المسيحيين من أن يقبلوا أعضاء جددا في الكنيسة، فمنع بهذا انتشار المسيحية، وهذا هو الإجراء القانوني الأول في التاريخ ضد المسيحيين.

١-٤. وهنا يجب أن نلفت الانتباه إلى بعض الملاحظات:

- لم يستهدف سبتيميوس ساويروس الكنيسة بذاتها وإنما مؤيدي المواقف المتطرفة.

- لم يكن الأساقفة، في هذه الحقبة، موضوع أية مضايقة.

- لم يكن مرسوم سبتيميوس ساويروس موجهًا للمسيحيين فقط وإنما لليهود أيضًا.

ولكن سيسبب هذا المرسوم اضطهاداً في مصر وفي أفريقيا (الشمالية). لنذكر بين الشهداء المشهورين: ليونيداس، أبو أوريجينوس، الذي استشهد في الإسكندرية بقطع رأسه سنة ٢٠٢، واستشهدت في قرطاجنة (أفريقيا الشمالية، في تونس حاليًا) فيليسيتا وبرباتوا سنة ٢٠٣ وخلال هذا الاضطهاد استشهد إيرينيوس في فرنسا.

لنلاحظ أن الشهداء كانوا خصوصًا من الموعوظين أو من المتعمدين حديثًا وربما يكون هذا مرتبطًا بطبيعة مرسوم سبتيميوس ساويروس الذي كان قد منع انضمام أعضاء جدد. فالجريمة كانت في قبول الأعداد للمعمودية أو في قبول المعمودية نفسها وكذلك كان المبشر معرضًا للخطر لأنه كان يخالف القانون نفسه.

٢. هيبوليتوس وكاليستوس

لقد ولد هيبوليتوس نحو سنة ١٧٠ وكان كاهنًا من كنيسة روما وألف كتبًا كثيرة تناول فيها كل المواضيع: كتاب مقدس، لاهوت عقائدي، إلخ. ولكنه أظهر اهتمامًا خاصًا بالليتورجيا وترك لنا وصفًا عن الإفخارستيا كما كان يحتفل بها في روما في هذا الوقت، فهو شاهد ومرجع في منتهى ؟الأهمية لكي نعرف ليتورجيا هذه الكنيسة.

ولكن كانت كنيسة روما في ذلك الحين تتألم من الانقسامات المسببة من التيارين اللذين لاحظناهما سابقًا وأيد

هيبوليتوس الموقف المتشدد ودفعه إلى ذلك أيضًا تأثير التقليد الآسيوي عليه، وهناك تشابه كبير بين هيبوليتوس وإيرينيوس الذي كان هيبوليتوس يعتبره معلمه. فيجب أن نقرأ في هذا الإطار الصفحات التي كتبها هيبوليتوس وحيث يهاجم بعنف شديد البابا زيفيرينوس (الذي خلف فيكتور) والبابا كالليستوس (الذي خلف زيفيرينوس). فيتهم البابا زيفيرينوس بأنه هرطوقي ويتهم البابا كالليستوس بأنه سبب تسيبًا خطيرًا في الكنيسة. ولكن يجب أن نفهم أن البابا زيفيرينوس والبابا كالليستوس هما ليسا رجلين مفكرَين وإنما رجلا عمل، رجلان واقعيان. وأثناء حبريتهما قد نمت الكنيسة نموًا كبيرًا واكتسبت تعاطف السلطات الحاكمة وازدهرت . فكان هذا كله يتطلب تكيّف الكنيسة مع الظروف الجديدة. لكن هيبوليتوس رفض هذه الضرورة للتكيف رفضًا قطعيًا، فهو يحب أن يتصور الكنيسة كقبضة مسيحيين قليلي العدد وقديسين وفي صراع مع العالم وعائشين في الزهد والفقر. ويسخر من صورة رائعة للكنيسة يقدمها كالليستوس وهي أن الكنيسة مثل فلك نوح حيث يوجد جميع أنواع الحيوانات وحكم الله فقط يستطيع أن يميز ويفصل بين الطيبين والأشرار. فيخطئ هيبوليتوس لأنه يرى أن تطور الكنيسة لا يتطلب مواقف جديدة، ولا يفهم أن الكنيسة ليست شيعة أطهار وقديسين وإنما بيتًا لكل الناس. ولكن يجب ألاّ نفهم من ذلك أن هيبوليتوس كان هرطوقيًا أو منفصلاً عن البابا، فعنفه في التعبير يأتي بنسبة كبيرة من الأسلوب الأدبي نفسه وأيضًا من رؤيته للمسيحية ودورها، فكان هيبوليتوس ممثلاً للنزاهة وكانت السلطات الكنسية على

الصواب عندما رفضت قبول تلك الرؤية. وعلى كل حال، كان هيبوليتوس معلمًا كبيرًا للكنيسة وليس هناك مانع من أن نكرمه قديسًا مثل خصمه كاالليستوس، كما سيكون البابا كورنيليوس والأسقف قيبريانوس متحدَين في القداسة بالرغم من اختلافهما.

٣. ميلاد أفريقيا المسيحية

٣-١. كان الإمبراطور سبتيميوس ساويروس من أصل أفريقي فبذل هو نفسه - وخلفاؤه من بعده - مجهودات كبيرة في جميع النواحي، لتنمية أفريقيا، التي كانت تنحصر في ذلك الحين على ما نسميه حاليًا "تونس". فتأسست مدن كثيرة تحمل آثارها أسماء الأباطرة حتى اليوم.

وكانت مدينة قرطاجنة مهمة جدًا على المستوى الثقافي، حتى وإن لم تكن عالمية مثل روما، فكانت وقتئذ أهم مركز للأدب اللاتيني.

- نعتقد أن المسيحية قد حلت في قرطاجنة نحو نهاية القرن الأول، والآن نستطيع أن نفهم كيف كان عدد المسيحيين كبيرًا وقت ترتوليانوس. سيجمع مجمع قرطاجنة سنة ٢١٦ واحدًا وسبعين أسقفًا ولكن لا نعرف كيف واصل التبشير سيره. فمن المحتمل أن تكون الاهتداءات قد بدأت عند الجماعات اليهودية، التي كانت عديدة في أفريقيا، ثم انتشرت أيضًا بين الناطقين باليونانية، الذين أصدروا منذ سنة ١٨٠ وثيقة أفريقية لاتينية وهي "أعمال الشهداء السيليتانيين"، ينكرون فيها أن هؤلاء الشهداء

لديهم "كتب ورسائل بولس" ويفترض هذا أنه كانت قد تمت ترجمة العهد الجديد إلى اللاتينية وسيقول ترتوليانوس بعد ذلك بقليل إنه يوجد ترجمة إلى اللاتينية للكتاب المقدس بالكامل. فهكذا تتجسد لنا المسيحية الأفريقية قبل ترتوليانوس: كثيرة العدد لكنها لا تعبر عن نفسها بطريقة أصيلة.

وليس هناك أي أدب مسيحي أفريقي قبل ترتوليانوس فهو نفسه ثنائي اللغة؛ فكان الصلة الجوهرية بين المسيحية اليونانية والمسيحية اللاتينية وأكثر من ذلك، سيفتتح الحضارة اللاتينية الأفريقية. فيبدو أن أفريقيا قبل ترتوليانوس لها عنصران: + شعب مسيحي من أصل لاتيني وهو كثير العدد وذو حيوية بارزة + وحضارة لاتزال بنسبة كبيرة جدا يونانية. إن أهم أعمال ترتوليانوس هي أنه أعطى هذه المسيحية تعبيرها الأصيل.

٣-٢. لقد ولد ترتوليانوس نحو سنة ١٦٠ ودرس القانون في قرطاجنة واشتهر في روما كرجل القانون. وقد تأثر بشهادة الشهداء في روما، واهتدى إلى المسيحية نحو سنة ١٩٥ ورجع إلى قرطاجنة، حيث عين مسؤولا عن طريق الموعوظين ورسم كاهنا. ومن ثم تدخل في كل المناقشات اللاهوتية المسيحية بعبقرية باهرة في الجدال. ولكن بعد قليل، أدرك أن هناك خلافات بينه وبين الأساقفة، وهي الخلافات نفسها التي وجدناها عند هيبوليتوس. فيريد ترتوليانوس مسيحية مستعدة للمعركة حتى تواجه العالم الوثني وتقطع أية علاقة به. فيطرد بلا رحمة إلى خارج الكنيسة كل من لا يشاركه في هذا الموقف. ويرى ترتوليانوس في شيعة المونطانية التحقيق الأمثل للمسيحية

الصحيحة، وتحت تأثير هذه الشيعة، ألف كتبا عن البتولية يــرى فيها التحقق الصحيح للمسيحية ، وعن رفض المسيحيين للخدمــة العسكرية. ونستطيع أن نفهم الخطر الكبير الذي كان يشكله هذا الموقف، فإنه كان قد سبب إصدار مرسوم سبتيميوس ساويروس. فكان المجهود الأكبر للأساقفة هو أن يظهروا أن الإيمان المســيحي لا يعارض الوطنية السليمة وذلك استنادا على موقـــف بولــس الرسول وكل أساقفة روما في هذا الشأن. فنتج عن هذا الصــراع كسر الوحدة بين ترتوليانوس والكنيســـة وســنة ٢١١ انضــم ترتوليانوس إلى المونطانية وذهب يؤلف كتبا للإشادة بالاستشــهاد ("آلام فيليسيتا وبرباتوا") وضد المسيحيين الذين لم يستشـــهدوا. وأيضا يهاجم البابا كالليستوس (٢١٧-٢٢٢) لأنه كان يقبـــل توبة كل المخطئين بدون استثناء (وكان هيبوليتوس أيضـــا قـــد عارض هذا المرســـوم البـــابوي). فيقـــاوم ترتوليـــانوس البابـــا كالليستوس عارضا له موقفه وهو أن هناك خطايـــا غـــير قابلـــة للغفران على الإطلاق مثل الزنى والقتل وإنكار المسيحية ويتـــهم البابا وأسقف قرطاجنة بأنـــهما يريدان مسيحية حسب عقليـــة العالم وبأنـــهما يتعاهدان مع الشر.

ويهمنا ترتوليانوس لأنه يعرفنا بالصراعات التي كـــانت في أفريقيا والتي كانت مشابـــهة للتي كانت في روما ويهمنا أيضـــا لأن المسيحية الأفريقية ستأخذ من خلاله طابعها الخاص. وكـــان ترتوليانوس كاتبا لاتينيا ورجل قـــانون وفيلســـوفا؛ فـــأدخل في اللاهوت مصطلحات قانونية ستؤثر على اللاهوت الغربي كثـــيرا جدا ، ونجد عند ترتوليانوس مقولات ستندمج في اللاهوت الغربي

وسيستعملها خلفاؤه بفضل الروح القانونية الموجودة فيها والتي هي خاصة بالشعب اللاتيني.

٤. طريق الموعوظين

٤-١. لم يكن، في زمن يوستينوس، أي تنظيم للموعوظين. فمن كان يريد أن يصبح مسيحيًّا كان عليه أن يتعلم الدين المسيحي عن طريق المؤمنين أو القراءة أو الكرازات مثل كرازات يوستينوس.

ولكن الأمر يختلف في القرن الثالث. فيخبرنا أوريجينوس بأنه بعد فترة بدائية يُبحَث فيها عن ?الاستعداد الحقيقي لدى الذين يميلون إلى المسيحية، يدخل هؤلاء الراغبون في طريق الموعوظين لكي يأخذوا فيه التعليم ولكي يتمرنوا على الحياة المسيحية. وهناك مرحلتان في طريق الموعوظين:

- يقدم الشبين طالب المعمودية إلى المسؤولين عن طريق الموعوظين الذين يسألونه عن أسباب اهتدائه وعن حالته الاجتماعية وعن مهنته. وإذا كان طلبه مقبولا يصبح الطالب "موعوظا" (= الذي يسمع الوعظ) ويتابع لمدة ثلاث سنوات الكرازات المقدمة من المبشر، علمانيا كان أم من رتبة الإيكليروس، وتنتهي كل كرازة بالصلاة.

- وبعد هذه المرحلة الأولى، يفحص المسؤولون كيف عاش كل موعوظ حياته أثناء بقائه في طريق الموعوظين وإذا رأوا

أنه يستحق أن يتقدم إلى المعمودية، يقبلونه في المرحلة الثانية وهي الإعداد المباشر للمعمودية. وتستمر هذه المرحلة الثانية مدة الزمن الأربعيني وتنتهي بالمعمودية التي تمنح ليلة الفصح. أسماء الموعوظين في هذه الفترة الثانية "المستنيرين" (Illuminati) أو في التقليد اللاتيني: "المختارين" (Electi) أو "الذين يقدمون الطلب معًا" (Competentes). وأثناء هذه المرحلة تعقد اجتماعات يومية تنتهي بصلاة لطرد الشياطين ووضع الأيدي. ويصوم المختارون يومي الجمعة والسبت قبل المعمودية. ويوم السبت يقوم الأسقف بصلاة احتفالية لطرد الشياطين يليها النفخ في وجه المختار ورسم إشارة الصليب على جبينه وعلى أذنيه وعلى أنفه. وتبدأ في المساء سهرة تقام فيها قراءات وكرازات وتنتهي السهرة بمنح المعمودية.

٤-٢. وتمنح المعمودية في مكان خاص وهو خارج الكنيسة ويتكون طقسها بتغطيس المختار ثلاث مرات وبإعلان كل مرة بالإيمان المسيحي. وتتم بعد ذلك طقوس أخرى وهي المسحة بالميرون وتسليم الثوب الأبيض وشرب مزيج من لبن وعسل، رمز لجسد المسيح. وبعد المعمودية يدخل المسيحيون الجدد في الكنيسة حيث يشتركون لأول مرة في الإفخارستيا مع المسيحيين الآخرين ويتبادلون معهم لأول مرة قبلة السلام.

٥. سر المصالحة

٥-١. بجانب أسرار التنشئة، نجد في القرن الثالث طقسًا آخر وهو المصالحة. والمصالحة ليست عملاً قانونيًّا وإنما سر

حقيقي. فكل من يرتكب خطيئة كبيرة، علنًا أو في الخفية، يمنع من الحضور في اجتماعات الجماعة المسيحية وإذا أراد أن يرجع إلى حياته المسيحية يجب عليه أن ينضم لمدة معينة إلى مجموعة "التائبين". وأثناء بقائه مع التائبين يجب على التائب أن يثبت بأعماله أنه فعلاً قد تاب عمًّا فعل، فإذا رأى المسؤولون أن حياة التائب قد تغيرت، يقبلونه من جديد في الجماعة المسيحية من خلال طقس احتفالي علني يمنح فيه سر المصالحة. وبما أن المسيحي المخطئ قد أظهر أنه ليس قادراً على أن يعيش حسب متطلبات الحياة المسيحية، فإن هناك شروطًا للقبول من جديد وهي أكثر صعوبة من شروط القبول في المعمودية، وذلك لتتأكد الكنيسة من جدية من توبته.

٥-٢. هل من الممكن أن يمنح سر المصالحة أكثر من مرة؟ يعتقد هيبوليتوس وترتوليانوس وأوريجينوس أنه لا يمكن أن يعطى الغفران إلا مرة واحدة في الحياة ويبدو أنه هكذا كانت العادة العامة في القرن الثالث.

ويبقى أن نعرف إذا كانت الكنيسة تستطيع أن تغفر جميع الخطايا أو إذا كانت هناك خطايا لا تستطيع أن تغفرها. وكانت هذه النقطة سبب خلاف كبير بين السلطات الكنسية وبعض اللاهوتيين. وكما رأينا كان ترتوليانوس يقول إن خطايا الزنى والقتل وإنكار المسيحية لا غفران لها، ولكن لم يتفق معه أسقف روما ولا أغلبية الأساقفة.

وكانت قد ظهرت هذه المشكلة أيضًا بين أساقفة بونطوس في نهاية القرن الثاني وكان ديونيزيوس، أسقف كورنثوس، قد تدخل في المناقشة وحلها لصالح التسامح.

٦. الرتب الكنسية

٦-١. نظمت الكنيسة نفسها في هذا القرن تنظيمًا سيدوم حتى اليوم في أركانه الأساسية. فهناك الدرجات الرئيسية الثلاث وهي: الأسقف والكاهن والشماس. وتأتي بعدها الدرجات الأخرى وهي: القراء والمبشرون والمكلفون بطرد الشياطين ونجد في روما المسؤولين عن أبواب الكنيسة.

وهناك أيضًا رتبة خاصة وهي "المعترفون"، أي المسيحيون المحبوسون في السجن بسبب إيمانهم المسيحي. وكانت الكنيسة تكرم المعترفين إكرام الكهنة حتى وإن لم تكن لهم السلطة نفسها. وفي أفريقيا كان للمعترفين دور في الشفاعة لأجل المخطئين ولكنهم لم يستطيعوا أن يعطوهم الحل. أما في روما فلم يكن لهم رتبة خاصة.

٦-٢. ومسألة أخيرة هي رتب النساء. فأقدم وأهم رتبة هي رتبة الأرامل، ولكن ليست لهن أية رسامة، كما يؤكد هيبوليتوس. وهناك أيضًا العذارى والشماسات اللواتي يهتممن بالنساء المسيحيات الجديدات ويبدو أنهن كن يأخذن رسامة مع وضع الأيدي.

٧. الفن المسيحي

رأينا في الفصل الأول كيف أن المسيحيين كانوا يجتمعون في بدء الأمر في غرفة مقدمة لهم من صاحب بيت خاص. ولكن في مطلع القرن الثالث يتغير الوضع فنجد تلميحات إلى أماكن خاصة بالعبادة. وحدث هذا أثناء حبرية زيفيرينوس وكالليستوس وهي فترة هدوء نسبي.

نعرف أن في ذلك الوقت كان من الممكن أن يمتلك المسيحيون مقابر، وفعلاً يكلف البابا زيفيرينوس الشماس كالليستوس بإدارة مقابر الكنيسة. وربما كانت الحالة كذلك بالنسبة للكنائس. فأقدم مكان مكرس للعبادة هو في "دورا إيوروبوس" (في الأردن حاليًا) الذي يعود تاريخه إلى قبل سنة ٢٥٦، والجدير بالذكر أن هذه الكنيسة لا تختلف في رسمها عن البيوت المجاورة والخاصة بالسكن، فكانت هذه الكنيسة بيتًا خاصًا استعمل ككنيسة. ويتغير الوضع مرة أخرى في النصف الثاني من القرن الثالث، حيث يبدأ المسيحيون في بناء الكنائس والتي يعطونها شكلاً غير شكل بيوتهم الخاصة. ومع بناية الكنائس بدأ المسيحيون أيضًا يزينونها برسومات تساعد على معرفة أحداث الكتاب المقدس أو بعض الحقائق الإيمانية.

٨. أوريجينوس

٨-١. يخبرنا عنه المؤرخ أوزيبيوس الذي ذكرناه مرارًا في هذه الصفحات والذي كان من خلفاء أوريجينوس في

الإيكليروس اللاهوتي الذي فتحه أوريجينوس في قيصريا بفلسطين، وسيصبح فيما بعد أسقفًا على مدينة القيصريا.

٨-٢. لقد وُلِدَ أوريجينوس سنة ١٨٥ من عائلة مسيحية. وكان مازال شابًا، عندما انفجر اضطهاد سبتيميوس ساويروس، حيث مات أبوه ليونيداس شهيدًا سنة ٢٠٨. فقد تكوّن أوريجينوس في كنيسة متألمة ومهددة بسبب الاضطهادات وسيتأثر كثيرًا بهذه الأزمنة البُطولية. وطلب منه ديميتريوس، أسقف الإسكندرية، أن يكرس نفسه كليةً للتبشير. فباع أوريجينوس كتبه الخاصة بالعلوم الأخرى وأوقف وقته كله لدراسة الكتاب المقدس ولتعليم الموعوظين. وكان الموعوظون هم الهدف الأول في هذا الاضطهاد، فأعانهم أوريجينوس كثيرًا وشجعهم. ولكن وجد بين سامعيه في التعليم "هراطقة وأناسًا متأثرين بالدراسات الفلسفية اليونانية" فاقتنع بأنه إذا كان يريد أن يناقشهم يجب عليه أن يعرف علومهم. لذلك ترك أوريجينوس عمله لدى الموعوظين ورجع إلى الدراسات فدرس خصوصًا الفلسفة. وقد جعله هذا التكوين الفيلسوفي قادرًا على أن يؤسس كلية حيث كانت تُدَرَّس كل العلوم بهدف التعمق في مفهوم كلمة الله. ودرّس أوريجينوس في هذه الإيكليروس بين سنة ٢١٢ و٢٣١. وأثناء ذلك سافر إلى فلسطين، حيث إسكندر- أسقف أورشليم- كان قد دعاه ليفسر الكتاب المقدس إلى الجماعة المسيحية. فبدأ أوريجينوس نشاطه كواعظ. وأثناء إقامة ثانية هناك، سنة ٢٣٠، رسمه ثيوكتيستوس، أسقف القيصريا، كاهنًا. ولكن ديميتريوس، أسقف الإسكندرية، أدان هذا القرار لأنه غير

شرعي وأبعد أوريجينوس من الإيكليروس ومـــن الإســـكندرية. فالتجأ أوريجينوس إلى صديقه الأسقف ثيوكتيستوس وأســـس في القيصريا كلية أخرى وجعل هذه المدينة مركزًا ثقافيًا مهمًا جـــدًا. وخلال هذه السنين، كان قد ذاع صيته وتأثيره. وقد زار أيضًـــا أسقف روما زيفيرينوس سنة ٢١٧، وسنة ٢٣٢ ذهب إلى أثينـــا ليناقش مواضيع كنسية عاجلة. وبعد ذلك، ذهب مرات كثـــيرة إلى الجزيرة العربية (بلاد الشام حاليًا) ليتناقش مـــع الأســاقفة. ومات أوريجينوس بعد نصف القرن الثاني بقليل. وقـــد انفجـــر اضطهاد من الإمبراطور ديسيوس فقُبِضَ على أوريجينوس وعُـــذّب ومات بين ٢٥٢ و٢٥٣ في مدينة صُور أثناء حكم قاللوس.

٨-٣. لقد أصبح أوريجينوس مشهوراً في تفسير الكتـاب المقدس، فهو الذي أسس النقـــد في الكتـــاب المقـــدس بكتابـــه "Hexaples"، حيث نظم في ستة أعمدة متوازية الترجمات اليونانيـــة للكتاب المقدس والنص العبري والنص العبري مرة أخرى ولكـــن مكتوب بالحروف اليونانية. ولفهم أعمق للكتاب المقدس، فقـــد بحث أيضًا عن أصل الكلمات بالعبرية وسأل الحاخام، وحفـــر في المغارات الواقعة جانب نـــهر الأردن. ولقد اهتم أوريجينوس أيضًا بالحوار مع الوثنية والفلسفة الجارية في زمانه، فهو تقبل كل القيـم اليونانية لكنه نقضها أيضًا مبينًا ضعف الوثنية. كما أبرز إبـــداع المسيحية وانفتاح على العالم وطابعها التاريخي. وكواعظ، فقـــد أظهر أوريجينوس معرفة عظيمة عن الإنسان، وحرية في التعبـــير، وروحانية عميقة، فيبدو من كتاباته أنه فعلاً رجل الله. وقدكـــان أوريجينوس أحد مؤسسي الروحانية المسيحية وكان تأثيره كبـــيرًا

جدًا على الحياة النسكية فتابعه رجال مشهورون في هذا الشأن مثل أثناسيوس وغريغوريوس النيسي وأفاغريوس.

وأحب أوريجينوس أن يستبدل مفهوم الكتاب المقدس كإثبات تاريخي للخلاص بمفهوم آخر وهو أن في الكتاب المقدس رموزًا كثيرة فالكلمات مليئة بمعان سرية وروحية. ولننتبه أن أوريجينوس لا ينكر المعنى التاريخي لكنه يهمله مفضلاً عليه المعنى الروحي.

٩. كورنيليوس وقيبريانوس

٩-١. انتشار الكنيسة في نصف القرن الثالث

تنتشر الكنيسة في نصف القرن الثالث في فرنسا وإسبانيا وشمال إيطاليا، حيث تبدأ الكراسي الأسقفية في ميلانو وفي أكويلايا وفي رافينا. ولكن لاتزال روما وقرطاجنة المراكز ذات الأهمية الكبرى. وأساقفة روما بعد كالليستوس (٢١٨-٢٢٣)هم: أوربانوس (٢٢٣-٢٣٠) وبونزيانوس (٢٣٠-٢٣٥) وأنتيروس (٢٣٥-٢٣٦) وفابيانوس (٢٣٦-٢٥٠) وكورنيليوس (٢٥١-٢٥٣). وإذا كانت اليونانية لاتزال اللغة الرئيسة في الليتورجيا، فإن اللاتينية أيضًا قد ازداد استعمالها. ونعرف أن مجمع روما الذي انعقد سنة ٢٥١ (والذي أدان الكاهن الروماني نوفازيانوس) فقد جمع ستين أسقفًا آتين من المناطق المجاورة لروما. فهكذا تصبح روما بطريركية (= مجموعة إبراشيات يرأسها أسقف رئيسي يسكن في العاصمة مع تعاون

أساقفة الإبراشيات المختلفة). ونجد هذا النظام أيضا في الشـــرق، حيث أسقف أنطاكيا وأسقف الإسكندرية لهمـــا الصـــدارة في منطقتهما وتتحقق هذه الصدارة في جميع المجامع المحلية التي تبلـــغ الكنائس الأخرى بقراراتـــها الخاصة.

ويبدو أن الكنيسة في نصف القرن الثالث كان لها تنظيـــم واضح ويبدو أيضا أن مجمع روما وأسقف روما لهما سلطة خاصة يعترف بـــها قيبريانوس.

- والمركز الكبير الثاني هـــو قرطاجنـــة. وقـــد عقـــد أغريبينوس، أسقف قرطاجنة، مجمعا نحو سنة ٢٢٠ وجمـــع فيـــه سبعين أسقفا من أفريقيا، ونحو سنة ٢٤٠ عقد أسقف دونـــاتوس مجمعا آخر وجمع فيه تسعين أسقفا ونجد العدد نفســـه في المجمـــع الذي عقده قيبريانوس سنة ٢٥٦. فكانت الكنيسة قد انتشـــرت كثيرا في أفريقيا في نصف القرن الثالث وبين كل الأساقفة يـــبرز واحد ذو شخصية باهرة وهو سيسيليوس قيبريانوس.

٩-٢. سيسيليوس قيبريانوس

كان قيبريانوس كاتبا عظيما ونذكر بين مؤلفاته كتابـــا عن وحدة الكنيسة وهو الكتاب الأول الذي ظهر في التاريخ عـــن الكنيسة من الناحية اللاهوتية وسيكون له تأثير كبير جدا على من أتى بعد قيبريانوس.

ولم يكن قيبريانوس كاتبا فقط فهو كان أســـقفا علـــى قرطاجنة سنة ٢٤٨ وبالتالي رئيس لأساقفة أفريقيا وسيكون لـــه

دور أساسي في حياة الكنيسة في أفريقيا وفي الغرب اللاتيني بصورة عامة.

ونلتقي في الغرب اللاتيني بثلاث مسائل رئيسية وهي:

- نظام التوبة للمسيحيين الذين - تحت ضغط الاضطهادات - أنكروا إيمانهم

- المعمودية الممنوحة من هراطقة

- العلاقة بين كنيسة روما والكنائس المحلية

فقد رأينا أن روما كانت فيها جماعات مسيحية مختلفة الأصل ورأينا الخلاف بين هيبوليتوس وكاالليستوس وسيتجدد هذا الخلاف من وقت إلى آخر بين أناس يريدون كنيسة مكونة فقط من أنبياء ومعترفين وعذارى وبين أناس يريدون كنيسة تشمل كل الشعب المسيحي عامة.

أما كنيسة قرطاجنة فهي أكثر تجانسا ولكن لها قضاياها الخاصة. فقد رأينا ميول ترتوليانوس إلى المسيحية الآسيوية وكان ترتوليانوس قد دفع هذه الميول إلى أقصى حدودها عندما اندمج مع المونطانية ولكن يفهمنا هذا أن الاتجاهات الأفريقية كانت أقرب إلى التقليد الآسيوي مما هي إلى التقليد الروماني. فهذا هو ?الإطار الذي فيه يواجه الغرب اللاتيني القضايا الكبيرة في نصف القرن الثالث.

٩-٣. نظام التوبة للمسيحيين الذين- تحت ضغط الاضطهادات- أنكروا إيمانهم

لقد طالب الإمبراطور ديسيوس في مطلع سنة ٢٥٠ جميع المواطنين بأن يشتركوا في تقديم ذبيحة عامة للآلهة الخالدة وكان مطلوبا منهم أن يحرقوا بضع حبات من البخور أمام الأصنام رمزا للوحدة الوطنية. وكان هذا أمرا لجميع المواطنين وليس فقط للمسيحيين. فكثير منهم تنازلوا عن إيمانهم وقبلوا التعبد للآلهة الوثنية. وبعد أن مضت هذه العاصفة، ظهرت القضية وهي: ما الموقف الذي يجب اتخاذه تجاه المسيحيين الذين أنكروا إيمانهم (Lapsi) ؟ وفي قرطاجنة كان بعض الكهنة يقبلون هؤلاء المخطئين، اعتمادا على توصية من المعترفين، بدون أن يطالبوهم بفترة توبة. فأعطى قيبريانوس رأيه وهو أنه لا يرفض توصية المعترفين وشفاعتهم في الصلاة ويتقبل أن تمنح المصالحة لهؤلاء المخطئين ولكن يلح على ضرورة وجود توبة طويلة وقاسية. فيظهر قيبريانوس أكثر تشددا من الكهنة الذين كان يهاجمهم ولكن ليس له التصلب الذي رأيناه عند ترتوليانوس، الذي كان يقول إن هناك خطايا لا تستطيع الكنيسة أن تغفرها وخصوصا خطيئة إنكار الإيمان. وهكذا لم يكن موقف قيبريانوس يختلف من موقف كاالليستوس الذي كان هيبوليتوس قد اتهمه بأنه تساهلي أكثر من اللازم وأيضا لم يكن يختلف عن موقف كتاب "الراعي" لهرماس الذي كان ترتوليانوس قد رفضه، بل كان هو الموقف الذي اتخذه أكليماندوس الإسكندري وأوريجينوس. فكان الاعتقاد العام أن المصالحة لا تعرف حدودا، من حيث المبدأ، لكن متطلباتها لا بد أن تكون باهظة. وهذا لأنه يجب أن تتأكد الكنيسة من ضمان تنفيذ التعهدات المسيحية، خوفا من سقوط

ثان. وبما أن الخطيئة اثبتت أن هذا الضمان لم يكن كافيا، فيجب أن يطالب في التوبة بأكثر مما يطالب به في المعمودية.

فبلغ قيبريانوس كنيسة روما والكنائس الأخرى بهذا الموقف. ولم يكن هناك أسقف على كنيسة روما سنة ٢٥٠ لأن فابيانوس كان قد استشهد في بدء اضطهادات ديسيوس ولم يكن له خليفة بعد في هذا الوقت. ولكن لدينا رد كنيسة روما وهو مدون من الكاهن نوفازيانوس الذي يكتب "باسم الكهنة والشمامسة المقيمين في روما". فيقول نوفازيانوس في رده إنه موافق على موقف قيبريانوس ولكن يضيف أيضا أن كنيسة روما تنتظر انعقاد المجمع الخاص بها واختيار الأسقف الجديد وسترسل بعد ذلك قرارها النهائي. وسنة ٢٥١ يختار كورنيليوس أسقفا على روما فيقوم نوفازيانوس ضده ويطلب أن يكون أسقفا ويكشف موقفه الشخصي بهذا الشأن ويقول إنه لا يجب منح أية مصالحة لمنكري الإيمان. فهكذا كان قد عاد مرة أخرى الاختلاف بين هيبوليتوس وكالليستوس. ويرسل نوفازيانوس مبعوثيه إلى أفريقيا وإلى الإسكندرية وإلى أنطاكيا وإلى فرنسا. ولكن يعقد كورنيليوس مجمعا في روما سنة ٢٥١ ويدين نوفازيانوس ويخبر الكنائس الأخرى بهذا القرار. فيبدي قيبريانوس موافقته التامة مع كورنيليوس. ففي هذا الاختلاف الأول ليس هناك أي تعارض بين روما وقرطاجنة. وكان نوفازيانوس يؤمن بأن الكنيسة ليست سوى مجموعة صغيرة لا بد أن تعيش في صراع مع العالم لأنها كنيسة مكونة من أنبياء وشهداء، بينما كان يعترض عليه الأساقفة الذين، كما لاحظنا

سابقًا، يعتبرون الكنيسة شعبًا يشمل جميع الناس، بينما يوجد في الكنيسة مكان خاص لبعض الناس الروحيين، وستكون الحياة النسكية الرد على هذا الاحتياج، ولكن يجب أن يكون فيها مكان لعامة المسيحيين.

٩-٤. المعمودية الممنوحة من هراطقة

كانت كنيسة أفريقيا تعارض شرعية المعمودية الممنوحة من الهراطقة وكان هذا الموقف لترتوليانوس أيضًا. ونحو سنة ٢٠٠ كان قد عقد أغريبينوس، أسقف قرطاجنة، مجمعًا أفريقيًا وقرر فيه عدداً من القرارات المتفقة مع اتجاه كنيسة أفريقيا. وعندما أتى قيبريانوس وافق هو أيضًا على هذا الموقف وعقد مجامع أخرى سنة ٢٥٥ و٢٥٦ وأثبت الموقف نفسه. ولكن قد عارض إسطفانوس، أسقف روما، خليفة كورنيليوس، هذا الموقف بشدة وقال إن الهراطقة الذين يهتدون يمكن أن تمنح لهم المصالحة مع وضع الأيدي ولا يجب عليهم أن يقبلوا المعمودية مرة أخرى. فكان هذا يساوي القول إن المعمودية حتى وإن كانت ممنوحة من هرطوقي، كانت شرعية. وكانت القضية معقدة لأنه كانت هناك أنواع مختلفة جدا بينها وبين بعضها بعضا من الهراطقة، فكان بعدهم عن الكنيسة على درجات مختلفة، من تلاميذ نوفازيانوس إلى الغنوصيين، فكان من الطبيعي أن يتساءل الأساقفة إذا كانت المعمودية الممنوحة من بعض الهراطقة شرعية أم لا. ومن المؤكد أن إسطفانوس كان على حق عندما وضع مبدأ أن المعمودية الممنوحة حسب الشروط المطلوبة تكون دائما شرعية حتى وإذا كانت معطاة من هرطوقي فلا يمكن تكرير منحها مرة أخرى،

وبقي هذا المبدأ ثابتًا في الكنيسة. وانضم أيضًا إلى هـذا الـرأي ديونيزيوس، أسقف الإسكندرية. بينما وجد قيبريـانوس تـأييدًا لموقفه عند أساقفة آسيا، حيث كان أساقفة فريجيا قـد ناقشـوا موضوع شرعية المعمودية الممنوحـة مـن أعضـاء المونطانيـة. فالأساقفة الذين رفضوا الاعتراف بالمعمودية الآتية من المونطانيـة كانوا فعلاً على حق، أمَّا إسطفانوس الذي اتخذ الموقف العكسـي لأنه كان أمامه فقط المنشقون من روما كان على حـق أيضًـا. وسبب الخلاف هو أن الطرفين نظرا إلى القضية بصـورة عامـة بدون أن يميزا بين هرطوقي وهرطوقي آخر وكان هذا التمييـز لا بد منه خصوصًا في مثل هذه القضية.

فنلاحظ أن قيبريانوس يأخذ مع روما موقفين مختلفـين. فهو كان متفقًا مع أسقف روما في قبول منكري الإيمـان بينمـا اعترض عليه في موضوع تكرار المعمودية. وهذا يأخذنا إلى القضية الثالثة.

٩-٥. العلاقة بين كنيسة روما والكنائس المحلية

من ناحية، كان قيبريانوس شاهدًا كبيرًا علـى وحـدة الكنيسة التي تتحقق في وحدة الأساقفة بينهم وبين بعضهم بعضًـا وبينهم وبين أسقف روما. ويؤكد ذلك في كتابه عـن وحـدة الكنيسة، حيث يثبت أولية أسقف روما في طبعته الأولى، ولكـن، من ناحية أخرى، كان قيبريانوس حريصًا جدًا على دور الأسـقف المحلي الذي كان يعتبره المسؤول عن الاحتفاظ بالتقليد المـوروث من أسلافه لأنه القاعدة لوحدة الجماعة. فنجد عنـد قيبريـانوس

نوعًا من الالتباس، أو بتعبير أصح، يجد قيبريانوس نفسه في التقاء تيارين يراهما سليمَين ولكن لا يعرف كيف يوفق بينهما. فهو مرتبط بوحدة الكنيسة الجامعة وبالأخص بأولية أسقف روما، لكنه مرتبط أيضًا بحقوق الأساقفة المحليين. ويبدو أن إسطفانوس، من ناحيته، كان على وعي تام بحقه في التدخل في شؤون الكنائس الأخرى. ويعترف له قيبريانوس بهذا الحق لأنه التجأ إليه في قضية نوفازيانوس. فليس الخلاف في مبدأ الأولية لأسقف روما بل في امتداد تلك الأولية. فما يرفضه قيبريانوس هو التدخل في شؤون تظهر له أنها شؤون الكنيسة المحلية. ولكن بما أن هذه القضية كانت تخص العقيدة، فإنه كان من حق إسطفانوس أن يتدخل فيها. وسيثبت المستقبل أن الحق كان مع إسطفانوس. فنرى أنه من هذا الزمن المبكر ستظهر الحاجة الماسة للتمسك بالسلطة المركزية من جهة والتمسك بالحقوق المحلية من جهة أخرى.

١٠. نهاية القرن الثالث

١٠-١. من ديسيوس إلى أوريليانوس

كان إسكندر ساويروس قد اغتيل سنة ٢٣٥ وجاءت بعده فترة من الفوضى؛ فاستولى العسكر على الحكم حتى يحتفظوا بالنظام في الإمبراطورية واضطهدوا كثيرًا من المسيحيين لأنهم كانوا يرون فيهم سبب الانقسامات في الدولة.

– يخلف إسكندر ساويروس القائد العام ماكسيمينوس وهو قائد يهاجم الأساقفة ويطرد البابا بونزيانوس إلى المنفى.

– وترجع مع الإمبراطور فيليبوس العربي سياسة التسامح وكانت هناك مراسلة بينه وبين أوريجينوس، ولا نستبعد أنه كان مسيحيًا. ولكن ينفجر أثناء حكمه اضطهاد عنيف جدًا ضد مسيحيي الإسكندرية، ربما بسبب مشاكل محلية لا علاقة لها بسياسة الإمبراطور.

– وانفجر مع الإمبراطور ديسيوس أول اضطهاد ضد المسيحيين بقرار من السلطة الرومانية وهو الاضطهاد الذي ذكرناه سابقًا والذي سببه قضية قبول التوبة للذين كانوا قد أحرقوا بضع حبات من البخور للأصنام الوثنية. ولقد استشهد في هذا الاضطهاد البابا فابيانوس والكاهن الروماني هيبوليتوس (٢٠ يناير ٢٥٠)، بينما هرب من الإسكندرية الأسقف ديونيزيوس ومن قرطاجنة الأسقف قيبريانوس. ويوقف ديسيوس الاضطهاد سنة ٢٥١ فتستطيع كنيسة روما أن تختار الخليفة لفابيانوس واختارت كورنيليوس، الذي أصبح أسقفا على روما.

– ويعلن فيبيوس قاللوس نفسه إمبراطوراً ويبدأ الاضطهاد من جديد سنة ٢٥٢، فكان على البابا كورنيليوس أن ينفي اختياريًا، وقد مات في المنفى سنة ٢٥٣. وطرد خليفته لوسيوس إلى المنفى.

– وجاء إلى الحكم سنة ٢٥٣ فاليريانوس الذي قتل فيبيوس وسيبقى في الحكم حتى سنة ٢٦٠. وتمتع المسيحيون بنوع

من الراحة حتى سنة ٢٥٧، حيث ينفجر خلالها اضطهاد عنيف ضدهم. ويبدو أن السبب هو وزير المالية ماكرينوس، الذي - ونظرًا للظروف المالية الصعبة للإمبراطورية - دفع الإمبراطور إلى اتخاذ عدد من القرارات ضد المسيحيين؛ فأصبح هكذا رجل الدولة الأول في التاريخ الذي عارض المسيحية بشدة لكي يستفيد ماليًا. فأصدر الإمبراطور مرسومًا سنة ٢٥٧ منع فيه العبادة المسيحية والاجتماعات في المقابر وأمر كل الإيكليروس بتقديم ذبيحة وثنية. وهذه هي المرة الأولى التي تمنع فيها العبادة المسيحية. وأمر مرسوم آخر سنة ٢٥٨ بقتل فوري للإكليروس الذين يرفضون تقديم الذبيحة الوثنية والاستيلاء على ممتلكات المسيحيين الأغنياء. وكان هذا الاضطهاد دمويًا جدًا. ويقول أوزيبيوس إنه كان هناك عددٌ من الشهداء في فلسطين وفي قرطاجنة. وقد قبض على قيبريانوس بعد المرسوم الأول وقُتِل بعد الثاني. واستشهد في روما البابا كسيستوس مع الشمامسة.

- ولقد اغتيل فاليريانوس سنة ٢٦٠ وخلفه ابنه قاللیانوس الذي كان قد أشركه فاليريانوس في الحكم منذ سنة ٢٥٣. وأصدر قاللیانوس سنة ٢٦٠ مرسومًا لصالح المسيحيين فسمح لهم ببناء الكنائس وأمرٍ بإعادة الكنائس والمقابر التي كانت الدولة قد استولت عليها سابقا.

- وتابع خلفاء قاللوس السياسة نفسها ، وخلفاؤه هم: كلاوديوس (٢٦٨-٢٧٠) أوريليانوس (٢٧٠-٢٧٥). وسيحاول أوريليانوس أن ينمي العبادة للإله الأوحد وهو الشمس وستكون هذه العبادة التعبير الأخير لدين الإمبراطورية الوثني.

ولكن أوريليانوس كان متسامحًا مع المسيحيين واعترف واقعيًا - وإن لم يكن قانونيًا - بالسلطة الكنسية الشرعية. فكانت الكنيسة - قبيل القرن الرابع - واقعًا لا تستطيع الدولة أن تتجاهله. وسيصدق قسطنطينوس قانونيًا على هذا الوضع المكتسب. فقد اقتنى دم الشهداء أن يكون هناك شعب مسيحي.

١٠-٢. الكنيسة في الشرق

- لا شك أن الكنيسة في نهاية القرن الثالث كانت قد تأسست تأسيسًا متينًا في الغرب، لكنها كانت لم تتعدَ أوسط المدن الكبيرة، ما عدا حول روما وقرطاجنة، وبالإضافة إلى ذلك فانها تبدأ الآن فقط أن تؤثر على المجالات الثقافية وأن تعبر عن نفسها باللاتينية. بينما — وبالعكس - كان للكنيسة في الشرق قرنان من التاريخ فاستطاعت أن تتسع اتساعًا ملحوظًا. فنجد أن آسيا الصغرى وكبادوكيا وسوريا وفلسطين ومصر قد أصبحت بنسبة كبيرة مسيحية.

- ونجد في الإسكندرية، عند نصف القرن الثالث، أسقفًا عظيمًا وهو ديونيزيوس الذي سيكون أسقفًا على هذه المدينة من سنة ٢٤٨ إلى سنة ٢٦٤. ومن خلال مراسلاته نستطيع أن نتعرف على كل القضايا الكبيرة الخاصة بكنيسة هذا الزمن: اضطهادات، خلافات لاهوتية، مسائل في النظام الكنسي. وأكثر من ذلك، فإن رسائل ديونيزيوس تعرفنا اهتمامه بالمشاركة بين الكنائس المختلفة وبين بعضها بعضًا وبين كنيسة روما، فيخبرنا

هذا الاهتمام كيف كانت المشاركة بين الكنائس قبل ظهور نظام المجامع المسكونية.

– وبجانب الإسكندرية، نجد شخصيات باهرة في فلسطين، حيث كان ثيوتيكنوس أسقفًا، وهو تلميذ أوريجينوس، وفي سوريا، حيث نحو سنة ٢٦٠ كان أوزيبيوس أسقفًا (وهو ليس أوزيبيوس المؤرخ الذي ذكرناه كثيرًا!) وهو من أصل إسكندري، كما كان أيضًا من الأصل نفسه خليفته أناتول.

– ونجد أسقفًا في بونطوس غريغوريوس، الذي يُدعى أيضًا ثيودوروس، وهو أيضًا كان تلميذًا لأوريجينوس وهو الذي أهدى إلى المسيحية جَدَّي الأخوين باسيليوس وغريغوريوس النيسي ومن خلال كتابات غريغوريوس/ثيودوروس قد تعرف الأخوان على لاهوت أوريجينوس. وقد حضر غريغوريوس/ثيودوروس بمجمع أنطاكيا سنة ٢٦٤ ومات بعد ذلك بقليل.

– وهذا الإيكليروس من الأساقفة المكونين من لاهوت أوريجينوس الذين أصبحوا مؤسسي كنائس مشهورة، كان ولا شك ؟من أعظم الأجيال في تاريخ الكنيسة.

– كانت كنيسة أنطاكيا في آخر القرن الثالث منبعًا مهمًا لثقافة مسيحية أصلية ونذكر خصوصًا دوروتيوس والكاهنين مالشيون ولوسيانوس. ولقد استشهد لوسيانوس أثناء حكم ديوكليزيانوس.

وعاشت هذه الكنيسة مع الأسقف بولس، الذي كان أصلا من ساموساته، قضية الأسقف المسؤول أيضا عن الشؤون المالية. فاتهمته الكنيسة باستغلال وضعه لصالحه الشخصي وبأنه لديه اعتقادات لاهوتية غير سليمة. فأدانه المجمعان اللذان انعقدا سنة ٢٦٤ و٢٦٨ لكنه لم يترك بيت الأسقف. وسنة ٢٧٢ استولى أوريليانوس على هذه المنطقة وقرر أنه لا يستطيع أن يسكن في بيت الأسقف من ليس في وحدة مع أسقف روما، ومنذ هذه اللحظة يختفي بولس من التاريخ، ولكنه قبل هذا يشهد ؟ معارضة المسيحية الآرامية لأن تصبح رومانية.

– ونستغرب كيف لا يقول أوزيبيوس شيئا عن الكنائس في آسيا الصغرى، فهو يذكر فقط أسماء بعض الشهداء في أزمير وفي برغاموس الذين استشهدوا في اضطهادات ديسيوس.

الفصل التاسع

الكنيسة في القرن الرابع

من الاضطهاد إلى السلام

مقدمة

تصل الكنيسة في القرن الرابع إلى مرحلة حاسمة من تاريخها. وهناك حدثان أساسيان يؤثران فيها بطريقة لا مثيل لها حتى الآن:

- اضطهاد ديوكليزيانوس (٣٠٣ – ٣٠٤)
- وصول قسطنطينوس إلى الحكم (٣٠٦ و٣١٢-٣٢٤).

١. اضطهاد ديوكليزيانوس

١-١. سلام الكنيسة المحدود

منذ زمن اضطهادات ديسيوس (٢٥٠-٢٥١) وفاليريانوس (٢٥٧-٢٦٠) لم تكن السلطة المدنية قد ضايقت المسيحيين. فقد كانت المسيحية دينًا مازال – مبدئيًا – ممنوعًا ولكنها في الوقت نفسه كانت تتمتع ببعض التسهيلات، مثل امتلاك مقابر وكنائس (وهي بيوت خاصة للعبادة والصلاة). فنستطيع أن نتكلم عن سلام أولي في الكنيسة.

وكان التبشير، الذي كان بدأ في فلسطين، قد تعدى سريعًا فلسطين نفسها وانتشر شرقًا وغربًا. وفي الشرق كانت مملكة أداسا (أو أوسروين، بين سوريا والعراق حاليًا) هي أول مملكة أصبحت مسيحية رسميًا بعد اهتداء ملكها أبقار (١٧٩-٢١٦) إلى المسيحية. وفي القرن الثالث كانت المسيحية قد انتشرت أيضًا في الأديابين (شرق نهر الدجلة).

أما في الغرب، فنستطيع أن نقول إن المسيحية كانت في بداية القرن الرابع قد انتشرت في الإمبراطورية كلها، حتى في الأقاليم البعيدة. فقد اشترك في مجمع أرل (فرنسا) سنة ٣١٤ ثلاثة أساقفة من بريطانيا، من بينهم أسقف لندن وأسقف يورك.

وفي الجزء الغربي من الإمبراطورية الرومانية، كانت المسيحية قد انتشرت خصوصًا في منطقة الأندلس في إسبانيا وفي المنطقة الجنوبية في فرنسا (بروفانس حاليًا) وفي إيطاليا وفي أفريقيا ("أفريقيا" بالمعنى الروماني، أي تونس اليوم ومناطق مجاورة).

وبصورةٍ عامة يمكن أن نقول إن المسيحية كانت تضم إليها أعضاء جددًا خصوصًا في الأقاليم الشرقية، حيث كانت الإسكندرية (وهي المدينة الثانية في الإمبراطورية) وأنطاكيا (وهي المدينة الثالثة) منبعًا لنشاط تبشيري عظيم. ولكن المنطقة المسيحية المشهورة كانت آسيا الصغرى، حيث انضمت أغلبية سكانها إلى المسيحية.

– ولم يكن هذا الهدوء فرصة للتعمق في الدين، بالعكس، إذا قرأنا القوانين التي أصدرتها المجامع في ذلك الزمن، نجد أن هناك انخفاضًا كبيرًا في مستوى الحياة المسيحية. مثلاً، يحدد مجمع الفيرا (قرانادا، أسبايا) فترة توبة لمدة عشر سنوات للمسيحي الذي تزوج امرأتين أو الذي ارتكب خطيئة الإجهاض، أو الزنى، أو اشترك في تقديم ذبيحة وثنية. فنفهم من هذا أن بعض المسيحيين كانوا يعيشون في حالة فتور خطير، وكم سيكون شلقا ومرًا الاستيقاظ الذي سيسببه الاضطهاد القريب!!!

١–٢. مراسيم الاضطهاد وتطبيقها

لم يضايق ديوكليزيانوس المسيحيين في العشرين سنة الأولى من حكمه فمن سنة ٢٨٤ إلى سنة ٣٠٣ لا نسجل إلا حالات نادرة من الشهداء، وهم عادة كانوا جنودًا مضطرين إلى أن يشتركوا إيجابيًا في تقديم ذبيحة وثنية. ولكن في أقل من سنة، أي من ٢٣ فبراير ٣٠٣ إلى يناير – فبراير ٣٠٤، أصدر ديوكليزيانوس أربعة مراسيم كانت فيها قساوة متصاعدة.

والسبب لهذا التغيير المفاجئ هو ارتباط ديوكليزيانوس الوثيق بالتقاليد الدينية لروما القديمة ورغبته في توحيد الإمبراطورية، فكان لا بد أن يحدث اصطدام عنيف بينه وبين المسيحية. فكان المرسوم الأول يمنع العبادة ويأمر بتدمير الكنائس وبحجز الكتب المقدسة والأواني المستعملة في العبادة.

ويأمر الثاني بالقبض على المسؤولين عن الكنائس، بينما يسمح الثالث بإطلاق سبيل المساجين إذا وافقوا على الاشتراك في

تقديم الذبيحة الوثنية. ويأمر الرابع بأنه واجب على كل مواطن روماني أن يقدم ذبائح للآلهة الوثنية.

وكان عنف ومدة هذه الأزمة حسب المناطق. مثلاً، في فرنسا وبريطانيا، حيث كان الحاكم كوستانزوس كلور، وهو والد الإمبراطور المقبل قسطنطينوس، لم يطبق إلا المرسوم الأول وبكثير من المرونة. بينما كان الاضطهاد رغم قصر مدته شديدًا في الإيكليروس الذي كان تحت حكم ماكسيميانوس وهو إيطاليا وأفريقيا؛ فلم تستطع كنيسة روما - لمدة أربع سنوات - أن تختلو خليفة للبابا مارسيلينوس.

وكان الاضطهاد في الشرق قاسيًا جدًا وأطول زمنيًا؛ فقد تناوب في مصر وسوريا وآسيا الصغرى حكام كانوا على قدر عال من التطرف والعنف. وفي مصر كان الاضطهاد قاسيًا لدرجة أن الكنيسة القبطية اعتبرت سنة ٢٨٤- وهي سنة وصول ديوكليزيانوس إلى العرش- السنة الأولى من تاريخها وحتى الآن تسمي تاريخها "عهد الشهداء" .

٢ . قسطنطينوس إمبراطورًا

٢-١ . انسحاب ديوكليزيانوس من الحكم

لقد رأى ديوكليزيانوس أن الإمبراطور وحده لا يستطيع أن يحمي حدود الإمبراطورية المهددة من الشمال ومن الشرق. فكلف سنة ٢٨٥ صديقه فاليريوس ماكسيميانوس بأن يعتني

بحماية الحدود الشمالية وخصوصًا في فرنسا. وقد نجح ماكسيميانوس في وظيفته حتى أن ديوكليزيانوس ضمه إليه وأشركه في الحكم وأعطاه لقب ومنصب "أوغوسطوس"، أي جعله إمبراطوراً وكلفه بالمسؤولية على الجزء الغربي من الإمبراطورية. و لكن زيادة المشاكل الداخلية قد أقنعت ديوكليزيانوس بأنه من الأنسب أن يكون هناك أناس آخرون يشتركون في الحكم. فقرر أن يختار كل واحد - هو و شريكه ماكسيميانوس- مساعدًا له يخلفه في العرش بعد عشرين سنة ويسمى هذا المساعد "قيصر". فيحكم الآن الإمبراطورية الرومانية أربعة أشخاص: إمبراطوران (أي اثنان "أوغوسطوس") وهما يتعاونان مع اثنين يدعوان "قيصر". فكان على الاثنين "أوغوسطوس" أن يحكما لمدة عشرين سنة فقط، ثم يخلفهما الاثنان المدعوان "قيصر" اللذان يصبحان "أوغوسطوس" ويختاران اثنين "قيصرٍ" آخرين وهلم جرًا. وكما قلنا بدأ هذا النظام سنة ٢٨٥. وبناء على هذا المبدأ انسحب ديوكليزيانوس من الحياة السياسية سنة ٣٠٥ وفعل كذلك شريكه ماكسميانوس .

٢-٢. وصول قسطنطينوس إلى العرش (٣١٢-٣٣٧)

كما كان مخططًا، خلف ديوكليزيانوس وماكسميانوس "القيصرَين" اللذان أصبحا "أوغوسطوس"، أي إمبراطوران، واختارا "قيصرَين" آخرَين معاونَين لهما.

ويبدو أن هذا النظام كان جيدًا ولكن سنة ٣٠٦ توفى فجأة واحد من الإمبراطورين وهو كوستانزوس فقام الجنود في

بريطانيا ونادوا بابنه قسطنطينوس إمبراطوراً (أي "أوغوسطوس") فهكذا أتى الخليفة من أسرة الحاكم السابق وليس من التعيين، كما كان مطلوبًا في نظام ديوكليزيانوس. ونتج عن هذا التغيير في النظام سنوات من الفوضى والصراعات. واستطاع قسطنطينوس سنة ٣١٢ فقط أن يسيطر على الجزء الغربي من الإمبراطورية عندما نزل إلى إيطاليا وقهر خصمه ماسيتريوس في شمال إيطاليا (منطقة بادوفا) ثم في روما فأصبح قسطنطينوس إمبراطورا على الجزء الغربي من الإمبراطورية الرومانية، وكان ليسينيوس إمبراطورا في جزئها الشرقي. وبما أن حكم قسطنطينوس كان مؤيدًا للمسيحيين، لأسباب سياسية ودينية، فإن العلاقات بين الإمبراطورين قد أصبحت متوترة جدًا، حتى قرر الاثنان سنة ٣١٦ أن كل واحد منهما بإمكانه أن يصدر قوانين ومراسيم للجزء الخاص به في الإمبراطورية بدون استشارة الآخر. فانشقت الإمبراطورية إلى قسمين، الغربي والشرقي، وزاد سوء التفاهم بينهما وبدأ يضايق ليسينيوس المسيحيين متهمًا إياهم بأنهم يؤيدون خصمه قسطنطينوس ونتيجة هذا التوتر هاجم قسطنطينوس ليسينيوس وقهره وهكذا أصبح الإمبراطور الوحيد للإمبراطورية الرومانية كلها.

٢-٣. موقف قسطنطينوس السياسي والديني

لقد كان قسطنطينوس وثنيًا متسامحًا مثل أبيه. وإذا كان قد انتظر ساعة موته حتى يطلب المعمودية فكان هذا يعود إلى عادة منتشرة جدًا في ذلك الزمن ويعود أيضًا إلى الضروريات القاسية والخاصة بدور الإمبراطور. فأصبح قسطنطينوس مسؤولاً

عن قتل امرأته وحميه وثلاثة أصهار وابنه الأكبر، الواحد بعد الآخر؛ فيجعلنا هذا نتساءل عن وقت انتمائه إلى المسيحية، وهل حدث ذلك بتطور تدريجي أم باهتداء مفاجئ؟ ومتى؟ وعلى كل حال فإن الذي يهم التاريخ أكثر هو ليس قناعاته الشخصية وإنما سياسته.

لا شك أنه بعد أن أصبح إمبراطوراً علي الجزء الغربي من الإمبراطورية قد أظهر من مطلع سنة ٣١٣ تعاطفا مع المسيحيين. ونرى ذلك في موقفه مع الكنيسة في أفريقيا التي ساعدها بالمساعدات المادية والإعفاء من الضرائب. ونجد أن السياسة الرسمية تجاه المسيحية تتركز على التسامح وحرية العبادة. غير أن قسطنطينوس حاول خلق توازن بين الوثنية والمسيحية. فظهرت الرموز المسيحية الأولى على النقود سنة ٣١٥ واختفت الرموز الوثنية سنة ٣٢٣. ونالت الكنيسة قانونًا خاصًا بها: تعترف الدولة بالأحكام الصادرة من محاكم الإبراشيات؛ فزادت أماكن العبادة وتأسست الكنائس الكبيرة في روما مثل كنيسة اللاتيرانوس وكنيسة القديس بطرس في الفاتيكان وكنيسة القيامة في أورشليم وأصبحت مدينة القسطنطينية العاصمة الجديدة للإمبراطورية ، حيث كانت هناك مع معابد وثنية متجددة أو جديدة كنائس مسيحية عديدة، من ضمنها كنيسة الرسل الاثني عشر التي أمَر قسطنطينوس أن يجهز قبره فيها.

ونرى أيضًا في عهده أشخاصًا مسيحيين يَصِلُون لأول مرة إلى المناصب العليا، مثل حاكم مدينة روما، سنة ٣٢٥، فقد كان مسيحيًا. وتظهر سنة ٣١٨ القيود الأولى للوثنية: منع تقديم

الذبائح في الأماكن الخاصة ومنع ممارسة السحر في البيوت الخاصة. وأكثر من ذلك، فإن قسطنطينوس قد ربى أولاده على المسيحية، فنستطيع أن نقول إنه فعلاً كان الإمبراطور "المسيحي" الأول. وهكذا دخلنا في مرحلة جديدة في المسيحية: مرحلة سلام للكنيسة. فتزيل الدولة كل العقبات للتبشير، سواء أكانت قانونية أم مادية، وتصل المسيحية إلى الجماهير وتتأسس إبراشيات جديدة كثيرة.

ولكنَّ هذه السياسة ستتوقف لمدة شهور قليلة فقط أثناء حكم خليفة كوستانزوس الثاني، ابن قسطنطينوس، وهو الإمبراطور يوليانوس المرتد (٣٦١-٣٦٣) الذي كان قد رجع هو نفسه إلى الوثنية فكان يريد أن ترجع معه الإمبراطورية أيضًا. ولكن سيخلفه أباطرة مسيحيون، مقتنعون بإيمانهم، وخصوصًا تيودوزيوس الكبير (٣٧٩-٣٩٥) سيكمل التطور الذي بدأ مع قسطنطينوس ومع ابنه كوستانزوس الثاني. وتصبح الإمبراطورية مسيحية دائمًا أكثر فأكثر وفي الواقع تصبح المسيحية دين الدولة فتطارد الهراطقة (سنة ٣٨١) وأخيرًا تمنع الوثنية وتقفل أو تدمر معابدها (سنة ٣٩١).

الفصل العاشر

الكنيسة تتألم من بدع القرن الرابع

وتتمتع بموهبة جديدة: الحياة النسكية

مقدمة

- تنفجر في القرن الرابع بدع تهز الكنيسة وتجبرها على التعمق في العقيدة وفي التعبير عنها.

- كما وتشهد الكنيسة في هذه الحقبة بداية موهبة جديدة وهي الحياة النسكية. ومقصد هذه الموهبة هو التطبيق الجذري للإنجيل في الحياة.

- ويعتبر القرن الرابع العهد الذهبي لقوة الكنيسة في التفكير اللاهوتي، وهناك أساقفة ورهبان سيمتازون في شرح عقائد الكنيسة حتى إننا اليوم لانزال نستقي من علمهم وتصورهم عن الإيمان المسيحي الصحيح.

١. الدوناتية

القضية الأولى التي كان على قسطنطينوس أن يواجهها عند وصوله إلى عرش الإمبراطورية الرومانية الغربية (٣١٢) هي الدوناتية.

وهناك شيء يتكرر باستمرار وهو أنه أثناء الاضطهادات ينكر الضعفاء إيمانهم فيعودون إلى الوثنية وبعد انتهاء الضيق

يندمون على ما فعلوا ويرغبون في الانضمام إلى الكنيسة مرة أخرى. ولقد رأينا هذه القضية في زمن قيبريانوس بعد اضطهاد ديسيوس سنة ٢٥٠.

نقطة انطلاق الدوناتية هي اختيار سيسيليانوس أسقفا على قرطاجنة سنة ٣١٢. فكانت هناك معارضة شديدة جدا على صلاحية رسامته الأسقفية لأن واحدا من الأساقفة الثلاثة الذين رسموه، وهو فيليكس، كان متهما بانه قد أسلم الكتاب المقدس للسلطات المدنية التي كانت قد جاءت للتفتيش عن هذه الكتب تنفيذا لمرسوم ديوكليزيانوس الأول (سنة ٣٠٣). وقد اختار المعارضون أسقفا آخر ضد سيسيليانوس. وخلفه بعد قليل دوناتوس، رجل نشيط وفعال وهو الذي أصبح المنظم الحقيقي للكنيسة المنشقة. وكان الدوناتيون يخصصون خطورة لتسليم الكتب المقدسة حتى أنهم كانوا يعتبرون كل من له علاقة بهم خائنا مثلهم ومرتدا وغير مستحق لأن يحمل الاسم المسيحي. فكانوا يعتبرون الأسرار الممنوحة من هؤلاء المرتدين غير صالحة، كأنها لم تكن، فكان الدوناتيون يعمدون مرة أخرى الكاثوليك الذين كانوا ينضمون إليهم. وهكذا ظهرت إبراشيات جديدة كثيرة في أفريقيا وكانت هناك "كنيسة القديسين" ضد كنيسة الخونة، أي دوناتيون ضد الكاثوليك.

وتدخل قسطنطينوس سنة ٣١٧ وأصدر قانونا قاسيا ضد الدوناتيين وأجبرهم على تسليم كنائسهم. ولكن أمام معاندة المنشقين قرر قسطنطينوس في ٥ مايو ٣٢١ أن يمنحهم التسامح. فانتشرت الدوناتية فورا وتقوت وضاعفت تشددها.

وسنة ٤١١ عقد الإمبراطور أونوريوس اجتماعا كبيرا وواسع النطاق حيث تصادم الحزبان وأخيرا حرمت الدوناتية.

ولكن الوقت كان قد تأخر وكانت أمة الفندال على وشك الوصول (٤٢٩) وكان يسمع عنهم حتى في أفريقيا.

وعلى كل حال، فقد استفادت الكنيسة الكاثوليكية استفادة عظيمة لأنها استطاعت أن توضح عقيدة صلاحية الأسرار وقالت إنها تعمل بنفسها، حتى وإن كان الشخص الذي يمنحها غير مستحق، واستطاعت أيضا أن تطور العقيدة حول وحدة الكنيسة وقالت إنها "واحدة ومقدسة". ويعود الفضل الأعظم في هذا التعمق والتوضيح للقديس أغوسطينوس، أسقف هيبونا، الذي لعب في المجمع دورا بارزا.

٢. آريوس ومجمع نيقيا (٣٢٥)

٢-١. من البداية إلى مجمع نيقيا

بعد انهزام واستسلام ليسينيوس (٣٢٤)، وجد قسطنطينوس المسيحيين في الشرق منقسمين بعضهم عن بعض بطريقة عنيفة، مثلما كان قد وجدهم في أفريقيا سنة ٣١٣.

وفي سنة ٣١٨ (أو ربما من سنة ٣٢٣ فقط) عارض كاهن من الإسكندرية، اسمه آريوس، أسقفه إسكندر. وكانت القضية في منتهى الأهمية لأنها كانت تخص سر الثالوث الأقدس. فقد كان آريوس يريد أن يحافظ على أصالة وامتيازات

أقنوم الآب في الثالوث الأقدس. فكان يعتبر الآب الكائن الوحيد الأزلي والوحيد الذي ليس له بداية، فهو الإله الحقيقي الوحيد وهو المبدأ الوحيد لكل الكائنات. أما "الكلمة" (يو ١/١)، حسب اعتقاد آريوس، فهو ليس أزليا لأنه نال الحياة من الآب. وأمام هذه الهرطقة، عقد إسكندر أسقف الإسكندرية مجمعا اشترك فيه ما يقارب مئة أسقف من مصر وليبيا وأدان المجمع اعتقادات آريوس وحرمه هو وأتباعه. فذهب آريوس يبحث عن مؤيدين له في فلسطين، مثلما فعل أوريجينوس، ووجد تأييدا عند أوزيبيوس أسقف القيصريا (وهو المؤرخ الذي ذكرناه مرارا). فقد انعقدت مجامع محلية في بيتينيا وفي فلسطين ورفضت هذه المجامع قرار مجمع الإسكندرية وأعادوا الاعتبار إلى آريوس. ولكن قام مكاريوس، أسقف أورشليم، ضد أوزيبيوس وقام أيضا ضد آريوس أسقف طرابلس وخصوصا أوستاتيوس، أسقف أنطاكيا . ونظرا إلى أن الوضع كان قد أصبح معقدا، فكر قسطنطينوس، الذي كان في هذا الوقت إمبراطورا للإمبراطورية الرومانية كلها، أن يعقد مجمعا "عالميا"، مسكونيا، وهو المجمع الأول من هذا النوع في تاريخ الكنيسة. وقد انعقد المجمع في نيقيا سنة ٣٢٥ واشترك فيه ثلاث مئة وثمانية عشر أسقفا تقريبا. فأخذ المجمع قانون الإيمان المقترح من أوزيبيوس أسقف القيصريا وأضاف إلى هذا النص إيضاحات دقيقة وحاسمة. فلم يعلن فقط أن يسوع هو "إله من إله ونور من نور" بل قال أيضا إنه "إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساو للآب في الجوهر"Homoousios" فأيد قسطنطينوس هذا القرار الذي رفضه آريوس وأسقفان آخران فقط

فطرد الثلاثة إلى المنفى. فكان قسطنطينوس راضيا بنتيجة المجمع لأن القضية كانت قد انتهت، لكنها في الواقع لم تكن منتهية بل قامت فورا مرة أخرى.

٢-٢. من مجمع نيقيا لمجمع القسطنطينية (٣٨١) ونهاية حكم تيودوزيوس (٣٩٥)

وبعد تردد كبير، قبل كثير من الأساقفة الشرقيين عبارة "مساو للآب في الجوهر" لأنهم كانوا يعتبرونها ذات طابع مادي فكانوا يقولونإن هذه العبارة تطبق مثلا على قطعتين من النقود وهما متساويتان في المعدن. فبدأت من ثم محاولات كثيرة للبحث عن عبارات أخرى، ولكن لم يكن هذا البحث بدون توتر وتشدد، فانعقدت مجامع محلية عديدة وشبت صراعات كثيرة. فكانت هذه الصراعات تارة لنفي تعليم مجمع نيقيا وتارة لتأييده. فهناك أساقفة يقولون إن الابن يختلف كل الاختلاف عن الآب Anomoios وأساقفة يقولون إن الابن شبيه بالآب كل الشبه Homoios. وبالإضافة إلى هذا التردد من الأساقفة، علينا أن نأخذ بعين الاعتبار تدخل الإمبراطور (قسطنطينوس وخلفائه) في كل قضايا الكنيسة. وغير الإمبراطور قسطنطينوس بعد ثلاث سنوات فقط من مجمع نيقيا موقفه لصالح الآريوسية، ودعا آريوس وأتباعه من المنفى وأعادهم إلى الكنيسة بعد اعتراف غامض منهم بالإيمان الكاثوليكي. وسيؤيد قسطنطينوس حتى نهاية حياته (٣٣٧) معارضي مجمع نيقيا.

أثناسيوس، الذي كان قد اشترك في مجمع نيقيا مع أسقفه إسكندر أسقف الإسكندرية -وقد خلفه سنة ٣٢٨ - قد طـــرد إلى المنفى خمس مرات بين سنة ٣٣٥ وسنة ٣٦٦ (مـــات ســـنة ٣٧٣).

ومع أثناسيوس، ظهر في هذه الفترة في الشرق شخصيات أخرى مثل باسيليوس وغريغوريوس النيسي، أسقف القسطنطينية، وأخوه غريغوريوس التريانزي، وفي الغرب البابا داماســو (٣٦٦-٣٨٤) وأمبروزيوس، أسقف ميلانو (٣٧٤-٣٩٧).

ولقد أصبح القائد الإسباني تيودوزيوس إمبراطورا ســـنة ٣٧٨ ، مسيحي غيور ومقتنع بقرار نيقيا، وقد أثـــرت قناعاتـــه الشخصية كثيرا في سياساته الدينيـــة. فـــأصدر ســـنة ٣٨٠ في تسالونيكا (اليونان) مرسوما فرض بـــه علـــى كـــل مواطـــني الإمبراطورية الرومانية العقيدة الكاثوليكة كما يقدمـــها كرســـي القديس بطرس. وسنة ٣٨١ عقد مجمعـــا مســـكونيا في مدينـــة القسطنطينية (وهو المجمع المسكوني الثاني في التـــاريخ) لتثبيـــت العقيدة الكاثوليكية، أو العودة إليها، في كل كنائس الإمبراطورية، شرقا وغربا.

ووضح هذا المجمع أيضا علاقة الروح القدس بالثـــالوث الأقدس فقال إن الروح القدس هو "الرب المحيي" و"المنبثـــق مـــن الآب" و"الذي مع الآب والابن يسجد له ويمجد".

الآن انـــهزمت الآريوسية نـــهائيا ولا يستطيع أن يتبعها المواطنون الرومانيون إلا في الخفية. وفي نـــهاية حكم تيودوزيوس

قد أصبحت المسيحية، حسب عقيدتها الكاثوليكية، الدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية كلها.

٣. الحياة النسكية

٣-١. أصل الحياة النسكية وهدفها

لا نفكر أن الكنيسة أثناء القرن الرابع لم تهتم إلا بقضية العلاقة بين أقنوم الآب وأقنوم الابن في الثالوث الأقدس، فقد كملت سيرها في التاريخ وظهرت فيها خلال هذا القرن موهبة جديدة لاتزال موجودة حتى الآن وهي الحياة النسكية.

نستطيع أن نقول إن الحياة النسكية لها علاقة بالاضطهادات، أو أتت لتحل محلها. فأثناء الاضطهادات، من كان يريد أن يكون مسيحيًا كاملاً، كان الاستشهاد هو الفرصة في تحقيق هذه الأمنية. ولكن، بعد الاضطهادات، وخصوصًا بعد أن بدأت تنضم إلى المسيحية جماهير من الناس ومرات كثيرة بدون اهتداء حقيقي، دخل في الكنيسة - على مستوع الشعب والمسؤولين - ارتخاء وتسيب وسطحية جعلت المسيحي الذي يريد أن يعيش حياة مسيحية كاملة، جعله يفتش عن طريقة أخرى لكي يتبع المسيح اتباعا جذريا. فرأى بعض المسيحيين أن الهروب من العالم هو الطريقة المفضلة، إن لم تكن الوحيدة، لكي يسير نحو الحياة الكاملة. فأصبحت العزلة والنسك والتأمل العناصر التي كونت حياة النساك. وربما يختار بعض الناس الهروب من العالم والعيشة في مكان منعزل لأسباب شخصية مثل الهروب

من الديون أو الضرائب او من انتقام أنـــاس آخريـــن، إلخ. أمـــا الناسك فهو يختار هذه الطريقة لأسباب روحية تربطه بربه الوحيد يسوع المسيح لا بالعالم ومصالحه.

٣-٢. القديس أنطونيوس، أبو النساك

تبدأ الحياة النسكية في تاريخ الكنيســـة مـــع القديـــس أنطونيوس المصري الذي يعتبر أبا النساك والذي توفي ســـنة ٣٥٦ بعد أن كان قد تعدى السنة المئة من عمره. وكتب الســيرة الأولى لحياته الأسقف العظيم القديس أثناســيوس حـــوالي ســـنة ٣٦٠ وسيؤثر هذا الكتاب في اهتداء القديس أغوسطينوس تأثيرًا كبيرًا.

فقد كان القديس أنطونيوس مسيحيًا منذ مولده وتقيًـا في حياته الدينية. ودخل يومًا في كنيسة وسمع وصيـــة يســـوع: "إن أردت أن تكون كاملا اذهب وبع كل ما تملك وأعطه للفقراء، ثم تعال واتبعني". فالناسك هو أولا مسيحي يعمل بجديـــة وينفـــذ حرفيًا وصايا الإنجيل. فقطع أنطونيوس علاقاته مع العـــالم وبـــدأ حياة منعزلة في ضواحي قريته، ثم في الصحراء في صعيد مصـــــر، وهناك عاش حياة قاسية جدًا في النسك وقاوم تجارب الشـــيطان وحاول أن يحقق حرفيًا وصية الرب: "اسهروا وصلوا" ووصيـــــة القديس بولس: "صلوا بلا انقطاع". فيظهر الناســـك في نظـــر الوثنيين للقرن الرابع (من غير أن نقـــول شـــيئًا عـــن الوثنيـــين المعاصرين) كرجل مجنون لا يعرف كيف يعيش في المجتمـــع وفي بيئة حضارية جيدة. ولكن بقي أنطونيوس في عزلته طول حياتـــه ولم يخرج منها إلا مرتين لكي يذهب إلى الإسكندرية: المرة الأولى

أثناء اضطهادات ديوكليزيانوس لكي يشجع عزيمة المعترفين (وهم مسيحيون في السجن بسبب إيمانهم) وهكذا عرض نفسه للاستشهاد. والمرة الثانية أثناء القضية الآريوسية لكي يشجع الأسقف على الثبات على العقيدة الكاثوليكية.

وبدأ في وقت مبكر أناس كثيرون يأتون إليه طالبين صلواته لأجلهم أو للبقاء معه ليعيشوا هم أيضا خبرته الروحية العميقة. فتجمع هناك نساك كثيرون، يعيش كل واحد في صومعته، حيث كان يعمل ويصلي وحده، وكان يلتقي بأنطونيوس من وقت إلى آخر ليستفيد من إرشاداته المفيدة القيمة لحياته الشخصية.

٣-٣. تجمعات النساك

وأثناء حياة أنطونيوس انتشرت الحياة النسكية في صعيد مصر وفي صحراء سيتي (غرب الدلتا) وفي شمالها (وادي النطرون) ولايزال هناك نساك حتى يومنا هذا. وقد بدأ القديس مكاريوس حوالي سنة ٣٣٠ في سيتي مكانا آخر للحياة النسكية وقبل فيه سنة ٣٨٢ كاهنا من مدينة القسطنطينية، وهو أفاغريوس البونطي الذي سيبقى هناك حتى الموت، سنة ٣٩٩، والذي سيكون مشهورا لأنه لعب دورا تاريخيا إذ قام بتنظيم الحياة النسكية في إطار لاهوتي. وفي هذه التجمعات، كان النساك يعيشون كل واحد في صومعته وكانوا يجتمعون يوميا للصلاة في أوقات محددة.

٣-٤. القديس باخوميوس (٢٩٢-٣٤٦): الحياة النسكية الجماعية

بعد أن تمرن لمدة سبع سنوات في حياة نسكية منعزلة، أسس باخوميوس مكانا آخر للحياة النسكية في صعيد مصر سنة ٣٢٣ وكان دوره هو بدء نظام آخر وهو عيش النساك معا في دير واحد حيث يقومون معا بالعمل وبالصلاة. فأعطى باخوميوس قانونا لجماعاته وحدد في هذا القانون، الذي يحتوي على ١٩٤ مادة، حياة الناسك اليومية: العمل والصلاة الجماعية وكل ما يخص الحياة الشخصية والجماعية. وقد أسس حتى موته (٣٤٦) تسعة أديرة للرجال واثنين للنساء. وقد زادت الأديرة مع خلفائه. وفي نهاية القرن الرابع نجد ديرا بالقرب من الإسكندرية، "دير التوبة". وكانت مجموعة هذه الأديرة تؤلف جماعة أوسع يرأسها رئيس عام. وكان الرئيس العام يعين رئيس لكل دير ويجتمع مع كل الرؤساء المحليين مرتين في السنة، في عيد الفصح وفي يوم ١٣ أغسطس[٢].

٣-٥. جماعة القديس باسيليوس

ولم تكن الحياة النسكية خاصة بمصر فحسب بل ظهرت هذه الموهبة أيضا في مناطق أخرى وفي الوقت نفسه تقريبا، مما يدل على عمل الروح القدس في كل الكنائس. وأسس القديس هيلاريون ديرا في غزة، في فلسطين، سنة ٣٣٥. وفي سوريا أسس

---

[٢] للتعمق عن الحياة النسكية عند باخوميوس، راجع: كاميللو باللين، سبل الروح، دار شرقيات، القاهرة ، ٢٠٠٤.

الأسقف أوستاتيوس ديرًا بالقرب من أنطاكيا ، ثم ديرًا آخــــر في آسيا الصغرى. وكذلك إسحاق السوري أسس أيضًـــا ديــرًا في مدينة القسطنطينية سنة ٣٨٢.

وهناك تطور حاسم في الحياة النسكية قد حققه القديــس باسيليوس الذي أسس ديرًا سنة ٣٥٧ في جبال بونطـــــوس. ولم يستطع القديس باسيليوس أن يعيش الحياة النسكية مدة طويلة لانه رسِم كاهنًا لقيصريا كبادوكيا سنة ٣٦٥ واختير أســـقفًا علـــى مدينة القسطنطينية سنة ٣٧٠، لكنه أعطى معنىً جديدًا للحيـــــاة النسكية في القوانين التي دونـــها.

٣-٦. الأديرة في الغرب

وقد بدأت الحياة النسكية في الغرب أيضًـــا ونجدهـــا في إيطاليا (عند القديس أمبروزيوس في ميلانــــو) وفي أفريقيـــا وفي إسبانيا وفي فرنسا.

وقد جمع الأسقف أوزيبيوس، أسقف على فيرتشـــيللي (شمال غرب إيطاليا)، الكهنة حوله وبدأ معـــهم حيـــاة جماعيـــة حسب النوع النسكي. وقد تبع مثاله أساقفة آخرون مثل القديس أغوسطينوس الذي طلب الحياة النسكية فور اهتدائـــه وفي ســـنة ٣٨٨ أسس جماعة كان لها طابع خاص لكنها لم تستمر. وهـــذا الطابع الخاص هو أن الدير كان مكونا من نساك مثقفين يوفقـــون بين العمل العلمي والفيلسوفي والحياة النسكية، فكـــانت هـــذه الجماعة، جماعة مفكرين. ولكن قد عين أغوسطينوس أسقفا علـــى هيبونا سنة ٣٩١ فاضطر إلى أن يتنازل عن حلمه في حياة هادئـــة

ومنعزلة، لكنه لم يتنازل عن دعوته إلى النسك. ففي سنة ٣٩٥ جعل من مقره الأسقفي ديرًا وفرض على جميع الكهنة الزهد النسكي وخصوصًا نذر الفقر.

وفي تور (فرنسا) كوّن الأسقف القديس مرتينوس (٣٧٠-٣٧١) جماعة تحت إدارته. وسيكون لهذه الجماعة تأثير كبير وفعال في كل المنطقة، مثلما أثرت في منطقتها جماعة القديس أغوسطينوس والتي أعطت عشرة أساقفة.

٤. العهد الذهبي لآباء الكنيسة

٤-١ .ملاحظات عامة

- نكتفي هنا ببعض الملاحظات العامة ونترك التفاصيل للكتب الخاصة بعلم الآباء.

- لقد عاش في هذا القرن أكبر كتاب ومفكرين للزمن المسيحي القديم، سواء أ كان في الشرق اليوناني أم في الغرب اللاتيني. وقد اعتيدت تسميتهم "آباء الكنيسة" نظرًا لتفسير التعليم المسيحي والكتب المقدسة تفسيرًا شاملاً وعميقًا. وقد ولد جميعهم بين سنة ٣٣٠ وسنة ٣٥٠ فكانوا كلهم معاصرين وكان لكثير منهم علاقات مع الآخرين أو تأثير فيهم. وكانوا ينتمون كلهم، ماعدا القديس أغوسطينوس، إلى نخبة المجتمع وأحيانًا إلى طبقاته العليا. وكلهم قد عملوا دراسات عالية وعميقة.

- ولقد ولد جميع آباء الكنيسة في عـــائلات مســـيحية، سواء أ كانت العائلة مسيحية من أجيال كثيرة (مثـــل القديـــس باسيليوس وأخوته) أمْ كانت الأم مســـيحية (مثـــل أم القديـــس أغوسطينوس وأم القديس أمبروزيوس وأم القديس يوحنــــا فـــم الذهب).

- ولقد بدأت أغلبية الآباء حياتـــــهم، بعـــد إكمـــال الدراسات، في عمل عادي في العالم، عادة كأساتذة، ولكـــــن لم يستمروا كثيرًا في وظيفتهم في العالم لأن الاهتداء إلى المسيحية قـد فاجأهم عندما كانوا، بصورة عامة، في سن الثلاثين تقريبًا مـــــن عمرهم. وكان معروفًا في القرن الرابع أن الحياة المسيحية الكاملـة لم تكن إلا في الدير في الصحراء، فكل آباء الكنيسة قد عاشـــــوا مدة نوعًا ما طويلة في الحياة النسكية. الاســـتثناء الوحيـــد هـــو القديس أمبروزيوس الذي اختير أسقفًا على ميلانو عندما كـــان لايزال موعوظًا، فتعمد ورسِم أسقفًا ثمانية أيام بعد معموديته.

- تلبية لدعوة الكنيسة، سيخرج الآباء من الحياة النسكية التي نشأوا عليها ثلاث أو خمس سنوات وأحبوها... مكرســــين حياتـــهم لخدمة الكنيسة.

- وحتى القديس يرونيموس، الذي لم يصبح أسقفًا، قـــد ترك حياته النسكية التي كان يعيشها بالقرب من أنطاكيا (٣٧٤-٣٧٦) وذهب ليعيش في بيت لحم تحقيقا لدعوته لخدمة الكنيســـة الجامعة من خلال دراساته وتفسيره للكتـــاب المقـــدس . وربمـــا الاستثناء الوحيد هو إيفاغريوس البونطي الذى بدأ حياته ككـــاهن

في مدينة القسطنطينية ثمٍّ – كما ذكرنا – ذهب إلى سيتي (غـــرب الدلتا) حيث عاش ناسكًا حتى الموت (٣٩٩).

– ما يميز آباء الكنيسة هـــو أنـــــهم – مـــع قداســـة حياتـــهم– كان لهم مستوى ثقافي عال ، فـــأصبحوا واعظـــين ومفكرين دينيين ومفسرين للكتاب المقدّس ولاهوتيين، وكلـــهم كانوا أمناء للكنيسة التي اختارتـــهم فخدموها بصدقٍ وأمانة .

– ونقدم هنا قائمة بأسماء هؤلاء الآباء ونذكر تواريـــخ ميلادهم ورسامتهم الأسقفية ووفاتـــهم .

الاسم	الميلاد	الرسامة الأسقفية	الوفاة
أثنايوس الإسكندري	٢٩٥	٣٢٨	٣٧٣
باسيليوس القيصري	٣٢٩	٣٧٠	٣٧٩
غيرغوريوس النزيانزي	٣٣٠	٣٧٢	٣٩٠
غريغوريوس النيسي	٣٣٢	٣٧١	٣٩٤
إيفاغريوس البونطي	٣٤٥		٣٩٩
يوحنا فم الذهب	٣٥٤/٣٤٤	٣٩٨	٤٠٧
ثيودوروس الموبسويسطي	٣٥٠	٣٩٢	٤٢٨
يوحنا كاسيانوس	٣٦٥		٤٣٥
أغسطينوس من هيبونا	٣٥٤	٣٩٥	٤٣٠
يرونيموس	٣٤٧		٤١٩
إمبروزيوس من ميلانو	٣٣٩	٣٧٤	٣٩٣
مرتينوس من تور	٣١٦	٣٧٠	٣٩٧
البابا داماسو (روما)	٣٠٥	٣٦٦	٣٨٤
هيلاريوس من بواتيه	٣١٥	٣٥٠	٣٦٧

الفصل الحادي عشر

القرن الرابع : "الزمن المسيحي"

مقدمة

("الزمن المسيحي") استعمل القديس أغوسطينوس هـــذه العبارة مرات كثيرة ليدل بـــها على الزمن الجديد الذي بدأ منـــذ اهتداء قسطنطينوس بعد قرون من حكم الوثنية .

وقبل أن ندخل في هذا الموضوع ، نريد أن نقدم صـــورة سريعة عن نشاط الكنيسة الإرسالي في القرن الرابع وعن تنظيماتـه الداخلية ، ثم نجاوب عن السؤال الآتي : هل القرن الرابع فعـــلاً هو "الزمن المسيحي" (christiana tempora) كما سماه أغوسطينوس ؟

١. نشاط الكنيسة الإرسالي

١–١. لقد كانت الحياة النسكية ظاهرة داخلية واضحة في حياة الكنيسة ، لكن الكنيسة لم تنس قط دعوتـــــها إلى أن تكون دينًا عالميًا وكذلك واجبها الإرسالي . ولم يكن بعد قـد تمّ تنظيم هذا النشاط الإرسالي بالشكل الذي سيكون عليه ســـنة ٥٩٦ مع البابا غريغوريوس الكبير، بل كان نشاطًا تلقائيًا ناتجًـــا من أعماق إيمان الشعب المسيحي ، ولكي نعرف كيـــف كـــان المسيحيون يشعرون بالواجب الإرسالي يكفي أن نقرأ هذا النـص الجميل للمؤرخ أوزيبيوس ، أسقف القيصريا:

"في ذلك الزمان كان كثير من المسيحيين يشعرون بـــأن الكلمة الإلهية كان يغرس فيهم شوقا عظيمًا للكمال . فكـــانوا يبدأون بتنفيذ وصية المخلص ويبيعون أملاكهم لمساعدة الفقـراء ، ثم كانوا يتركون وطنهم، وكانوا يقومون بواجبهم الإرسـالي وفي قلوبـهم طموح لتبشير الناس الذين لم يسمعوا شيئا من قبل عـن كلمة الإيمان، وطموح أيضًا لتسليم الأناجيل المقدسـة لهـم . فكانوا يكتفون بوضع أساس الإيمان في بلد بعيد، ثم يعينون رعـاة ويسلمون إليهم رعاية الذين كانوا قد وصلوا إلى الإيمان، وبعـد ذلك كانوا يذهبون إلى بلاد أخرى وكانت تصحبهم نعمـة الله وعنايته" .

فلنلق لمحة سريعة على كيف انتشرت المسيحية خـارج الإمبراطورية الرومانية.

١-٢. لقد رأينا فيما سبق أن أول كنيسة تأسست في الشرق هي كنيسة السريان الشرقيين في الإمبراطورية الساسـانية (إيران حاليًا) فقد كانت كنيسة ثابتة في مطلـع القـرن الرابـع وازدادت عددا وعمقًا خلال هذا القرن ، بالرغم من الظـروف السياسية المعادية لها فقد كان شابور الثاني هو الإمبراطور خلال هذا القرن (٣٠٩-٣٧٩) وبدأ يضطهد المسـيحيين اضطـهادا عنيفًا ودمويًا في سنة ٣٣٩/٣٤٠، فاضطرت هذه الكنيسـة إلى أن تعتمد على الجماعة السريانية الغربية التي كانت تقـع داخـل حدود الإمبراطورية الرومانية. وبعد هذه الاضطـهادات اهتـم أحد أساقفة المنطقة الغربية -واسمه ماروتا -بتنظيم الكنيسة مـن جديد وعقد مجمعًا جمع فيه أربعين أسقفا تقريبًـا في سيليوشـية

كتيسيفونت Seleucia Ctesiphon ووافقوا جميعًا على قرارات نيقيا . وهكذا ، بعد إعادة قوتها وتنظيمها ، استطاعت الكنيسة "الفارسية" أن تواصل نشاطها الإرسالي فوصلت الإنجيل إلى البحرين (سنة ٤١٠) وإلى آسيا الوسطى ثم في القرن السابع إلى الصين.

١-٣. اهتداء أرمينيا إلى المسيحية هو من عمل الرجل العظيم : غريغوريوس المنير ، الذي كان من العائلة الحاكمة سابقًا في أرمينيا ونُفي ثم تعمد وتربى على المسيحية في قيصريا كبادوكيا (داخل الإمبراطورية الرومانية) وهناك رسم كاهنًا ، وعندما رجع إلى أرمينيا (في سنة ٢٨٠ أو ٢٩٠ تقريبًا) كان قد اهتدى الملك درتاد إلى المسيحية ، فانتشرت المسيحية سريعًا في كل البلد . وفي أوائل القرن الخامس اخترع العلامة "مشروب" حروفًا خاصة لكتابة اللغة الأرمينية بفضلها ستصبح أرمينيا بلدًا موحدًا دينيًا وثقافيًا حتى أنها ستستطيع أن تقاوم كل المحاولات التي سيقوم بها الملك الفارسي يزدجرد الثاني ابتداءا من سنة ٤٥٠ لكي ينشر في أرمينيا دينًا آخر (المزدية وهي دين إيران التقليدي) .

١-٤. ووصلت المسيحية أيضًا إلى منطقة أذربيجان الحالية حيث اخترع "مشروب" مرة أخرى حروفًا خاصة لكتابة تلك اللغة واستخدامها في الكنيسة .

١-٥. ووصلت المسيحية أيضًا إلى المنطقة الواقعة شمال غرب أرمينيا، جورجيا حاليًا . وقد اهتدت هذه البلاد إلى

المسيحية بفضل امرأة - القديسة نينو - والتي أقنعت الملك باعتناق المسيحية (سنة ٣٣٠ تقريبا) ومن ثم أصبح الشعب كله مسيحيا .

١-٦. وانتشرت المسيحية في البلاد العربية بطريقة متفرقة من خلال التجار الرومان الذين كانوا يعملون في موانئ البحر الأحمر . ولكننا لا نعرف كثيرا عن ذلك الشخص المدعو ثيوفيلوس الهندي والذي أرسل رهينة إلى الإمبراطور قسطنطينوس وتربى في بلد روماني؛ حيث اهتدى إلى المسيحية ورسم شماسا من أوزيبيوس أسقف نيكوميديا وانضم فيما بعد إلى الآريوسية في اعتقاداتها المتطرفة ورفعه أتباعه إلى الأسقفية . وقام بعد ذلك برسالته التبشيرية في جنوب الجزيرة العربية.

١-٧. وقد تأسست كنيسة أخرى في جنوب البحر الأحمر ، في الحبشة . فقد قام شابان - من صور (لبنان) ، واسمهما فرومتريوس وإيديزيوس - برحلة مع مربيهما، ولكن بعد أن قتل سكان الشاطئ الصوماليون كل من كان معهما أصبحا وحدهما على قيد الحياة فصار الشابان عبدين لملك الحبشة الساكن في العاصمة - وهي أكسوم - وتمكنا بعد قليل من ارتقاء أعلى المناصب وحازا على ثقة الملكة فوكلتهما بتربية أولادها؛ وانتهز الشابان الفرصة لكي ينشرا حولهما الدين المسيحي. ولما أخذ فرومتريوس من تلميذه الملك أزانا الإذن بأن يرجع إلى بلده، ذهب إلى الإسكندرية وأخبر الأسقف القديس أثناسيوس عن إمكانات التبشير في الحبشة فأرسل أسقفا إلى هناك (ما بين سنة ٣٢٨ وسنة ٣٥٦). ولكننا لا نعرف كثيرا عن تطورات انتشار

المسيحية في الحبشة بعد عودة فرومتريوس وبعد أن أصبح الملك نفسه مسيحيًا، وربما كان أحد خلفائه قد عاد إلى الوثنية لأن الشعب لن يكون مسيحيًا رسميًا إلا خلال القرن الخامس، وبما أن فرومتريوس كان قد رسِمَ أسقفًا من أثناسيوس، فإنه قد ثبت الكنيسة حسب الإيمان الكاثوليكي كما حدده مجمع نيقيا.

١-٨. وفي القرن الثالث أقامت مجموعة من قبائل ألمانيا وهم القوط على سواحل البحر الأسود وانتشرت المسيحية بينهم بفضل رجل مرسل عظيم، وهو ولفيلا، وكان ولفيلا من عائلة مسيحية - أصلاً من كبادوكيا - وكان قد خطفه القوط في غزوة في آسيا الصغرى سنة ٢٥٧ أو ٢٥٨ وأخذوه معهم سجينًا . وبعد مدة كان ولفيلا قد تعلم تمامًا لغة وأخلاق الشعب القوطي دون أن ينسى اليونانية أو اللاتينية أو حتى الدين المسيحي، ثم أرسل بعد ذلك إلى أحد البلدان الرومانية لأداء مهمة معينة، وهناك استطاع أن يتصل بسلطات الكنيسة وكان ذلك أثناء حكم كوسنانزوس الثاني سنة ٣٤١ حيث كانت السيطرة للتيار ضد قرارات مجمع نيقيا . وقد رسم أسقفًا من أوزيبيوس، أسقف نيكوميديا، وانضم إلى التيار اللاهوتي العام في ذلك الوقت، فاعترف ولفيلا وكنيسته بالآريوسية. وعندما رجع إلى بلاد القوط قام بنشاط رسولي شديد؛ فأصبحت الآريوسية نوعًا ما هي الدين الوطني لأغلبية الشعوب الألمانية .

٢. تنظيم الكنيسة في القرن الرابع

٢-١. المجامع

أثناء هذا القرن تطورت الكنيسة وحدد تنظيمها الداخلي؛ ولذلك لعبت المجامع - المحلية والمسكونية - دورا فعالاً؛ فلم تكن المجامع تهتم بمواضيع عقائدية فقط وإنما بوضع القوانين الداخلية أيضًا، حتى المجامع التي انعقدت لحل قضية معينة نابعة من انشقاق أو هرطقة - مثل مجمع أرل (فرنسا، ٣١٤) أو نيقيا (٣٢٥) أو القسطنطينية (٣٨١) - كانت دائمًا تهتم بالنظام الداخلي للكنيسة. فكانت القوانين التي صدرت في المجامع المختلفة قاعدة لما نسميه اليوم: القانون الكنسي، فكانت كنيسة أفريقيا منظمة بطريقة قوية حول كرسي قرطاجنة وكانت تعقد مجمعًا كل سنة، وكذلك كان يعمل بابا روما بالنسبة لإيطاليا. ولكننا نرى بابا روما سيريسيوس (٣٨٤-٣٩٩) يمارس سلطة تنظيمية حقيقية ليس فقط على أساقفة إيطاليا - الذين كانوا في دائرة اختصاصه المباشر - وإنما على الغرب المسيحي كله؛ فنراه يوجه رسائل إلى أسقف إسباني (٣٨٥) أو إلى أساقفة فرنسا أو إلى أساقفة أفريقيا محددًا بسلطة ودقة التصرف اللازم، وستكون هذه الرسائل بعد ذلك (وهي في الواقع مراسيم) القاعدة للقانون الكنسي. وبعد حل قضية الآريوسية العقائدية (وتم ذلك عندما قبل الأساقفة الشرقيون موقف البابا داماسو، أنطاكيا ٣٧٩)، لم تتدخل روما في إدارة الكنائس الناطقة باليونانية التي تميل إلى إدارة شؤونها بطريقة مستقلة .ولذلك نرى في نهاية القرن الرابع

ظهور مجموعات كبيرة من الكنائس الواقعة في مناطق معينة كوَّنت فيما بعد بداية للبطريركيات الآتية مستقبلاً.

٢-٢. الليتورجيا والأسرار

- تتركز حياة المسيحي في نهاية القرن الرابع، مثل اليوم، على الإفخارستيا التي أصبحت يومية في كل المناطق تقريبًا، والتي يقوم بها المسيحيون بطريقة احتفالية أيام الآحاد (في مصر يوم السبت ويوم الأحد) وفي الأعياد. ومن الوقت الذي دخلت فيه الجماهير إلى المسيحية تسرب إلى الشعب المسيحي الارتخاء والتسيب؛ فنرى القديس يوحنا فم الذهب أو القديس أمبروزيوس أو غيرهما يشهدون أن في أنطاكيا أو في ميلانو كان هناك أناس لا يتناولون إلا مرة واحدة في السنة في عيد الفصح.

ثم تبدأ تظهر في نهاية القرن الرابع أسر ليتورجية مختلفة، حيث تبدأ كل واحدة منها في الحفاظ على عناصرها وعلى طقوسها الخاصة، فبالنسبة لليتورجية اللاتينية حوالي سنة ٣٧٠ - أثناء حبرية البابا داماسو - فإن اللغة اللاتينية تأخذ محل اللغة اليونانية، وفي هذه السنين أيضًا يتكون في أجزائه الأساسية "القانون الروماني"، وهو ما نسميه اليوم أيضًا "الصلاة الإفخارستية الأولى". ونلاحظ تنوعًا كبيرًا ليس فقط بين ليتورجيات الغرب وليتورجيات الشرق وإنما بين ليتورجيات الغرب اللاتيني نفسها، فهناك تظهر ليتورجيا أفريقيا وليتورجيا قلليكانية (فرنسا) وليتورجية أمبروزية (ميلانو) ، ونعرف قليلاً

جدًا في هذا الوقت عن ليتورجيا إسبانية. ومن المؤكد أن في هذا الزمن لم تكن الطقوس تختلف بعضها عن بعض كما حدث بعد ذلك في المستقبل؛ فنرى عناصر تنتقل من أسرة ليتورجية إلى أخرى وتتطور في أسرة وتختفي في أخرى. لكن العناصر الأساسية الخاصة لكل أسرة تبدأ في الظهور من هذا الوقت؛ فيقوم الكاهن بالإفخارستيا في الليتورجيا اللاتينية ووجهه موجه نحو الشعب، بينما في أنطاكيا وفي شمال سوريا كله يصلي الكاهن في القداس وظهره نحو الشعب. وينقسم الاحتفال بعشاء الرب إلى قسمين وهما: ما قبل الإفخارستيا ثم الإفخارستيا ذاتها التي تبدأ في كل الطقوس بالحوار التقليدي : الرب معكم . . . لنرفع قلوبنا إلى العلى . . . لنشكر الرب إلهنا . . .

- أما الأعياد، فالعيد العظيم هو دائمًا عيد الفصح، وهناك أيضًا احتفالات أخرى مرتبطة بتجسد المسيح. فالكنائس الشرقية حددت يوم السادس من يناير يومًا للاحتفال بظهور الله على الأرض، و لكن يبدأ هذا الاحتفال في روما وتحديده يوم ٢٥ ديسمبر نحو سنة ٣٣٦ . ويبدو أن المسيحية المنتصرة على الوثنية قد ضمت إلى نفسها العيد الوثني الخاص بـ "الشمس المنتصرة"، وكان الرومان الوثنيون يحتفلون بهذا العيد يوم ٢٥ ديسمبر، وكان الإمبراطور أوريليانوس قد حاول سنة ٢٧٤ أن يجعل من هذا الدين "الشمس المنتصرة"، الدين العام للإمبراطورية.

فأخذ المسيحيون هذا العيد وغيروه إلى عيد ميلاد يسوع المسيح، شمس البر .

- وكانت المعمودية للكبار الحالة العامة، وكانت تسبقها فترة اختبار وإعداد، وعادة كانت تمنح المعمودية ليلة عيد الفصح، أو يوم العنصرة، أو (في الشرق وتحت تأثيره) يوم الغطاس، أو يوم عيد الميلاد .

- أما التوبة فهي علنية ولم يكن هناك منح للمصالحة إلا بعد فترة التكفير، التي كانت المجامع تحدد مدتها حسب خطورة الخطايا، والتي كانت تدوم سنوات عديدة وفي بعض المرات تمتد إلى ما قبل الموت بأيام قليلة، وكانت المصالحة تمنح خلال احتفال كبير يقام في روما يوم الخميس المقدس، وكان لا يعطى سر المصالحة إلا مرة واحدة في الحياة، فالمسيحي دائمًا مدعو إلى القداسة.

- وشهد القرن الرابع تطوراً لطقس ديني آخر وهو بركة العروسين في نهاية الزواج، ولم تكن هذه البركة عادة عامة ولا إجبارية، وكانت تصحب البركة عادات من الوثنية، مثل وضع طرحة على رأس العروسين ودخلت هذه العادة في طقس تكريس وبركة العذارى أيضًا لأنهن كن يعتبرن "عرائس المسيح" Sponsae Christi.

٢-٣. تعابير عن التقوى

- لقد كان لابد للحياة النسكية أن تؤثر على المسيحي العام، لأن المؤمن الذي يريد أن يعيش حياة روحية عميقة كان ينظر إلى حياة النساك ويحاول نوعًا ما أن يقتدي بها. وفي هذا الإطار حددت الكنيسة الشروط الأساسية التي يجب إكمالها من

طرف المخطئ التائب للرجوع إلى الكنيسة، وهذه الشروط الأساسية هي: الصوم والصلاة والصدقة.

- ويأتي من حياة النساك الجماعية أيضًا الاحتفال بليتورجيا الساعات، و هي صلوات ستنتشر بين المسيحيين انتشارا سريعًا.

- ويتطور في هذا القرن إكرام الشهداء بطريقة فائضة وافرة، وكان هذا الإكرام قد بدأ في نهاية القرن الثاني ولكنه يظهر الآن كأنه الظاهرة الأهم في الحياة الدينية في هذا القرن، فقد كثر الأدب الخاص بالشهداء ودونت كتب مثل "أعمال الشهداء"، أو "آلام الشهيد . . ." وتكونت مجموعات من المعجزات ومن الخطب إلخ. وكان الإكرام موجهًا أيضًا إلى ذخائر الشهداء لأنها كانت تسهِّل نوعًا ما الاتصال المباشر بالشهداء، وهناك بدأ ثم ازداد سوء استعمال الذخائر، وبما أن القانون الروماني القديم كان يمنع دفن الموتى داخل المدينة، فإن الكتدرائيات الكبيرة القائمة داخل المدن Intra Muros لم تكن فيها ذخائر الشهداء، وسبب هذا الواقع تعبيرًا خاطئًا عن إكرام الذخائر، لأن الحاجة إلى امتلاك ذخائر قد نحت بالمسيحيين إلى تكثير الذخائر نفسها أو إلى نقلها إلى الأماكن المهمة. فسنة ٣٥٦ تنقل إلى مدينة حديثة مثل القسطنطينية الذخائر المظنونة للقديس تيموثاوس وسنة ٣٥٧ تلك التي يظن أنها للقديس أندراوس وللقديس لوقا، إلخ.

- وظهر في هذا القرن تعبير آخر للتقوى وهو الحج إلى أماكن مكرمة بسبب موت الشهداء فيها، أو إلى الأراضي المقدسة في فلسطين، ونوع آخر من المسيحيين كانوا يحجون إلى شخصيات مهمة كانت لا تزال على قيد الحياة؛ مثل الحج إلى بعض النساك الذين كانوا يعتبرون قديسين. فبعد موت هؤلاء "القديسين" كان قبرهم هدفًا لحجاج كثيرين، مثل الأراضي المقدسة أو الأماكن التي فيها ذخائر الشهداء. ولكي يميز بين الشهداء الذين ماتوا موتًا عنيفًا لأجل إيمانهم وبين "القديسين" أو النساك، دخلت عادة تسمية هؤلاء القديسين والنساك "معترفين" وهو المصطلح الذي يدل حتى الآن على المسيحيين الذين تعذبوا لأجل إيمانهم ولكن ليس حتى الموت.

٣. "الزمن المسيحي" Christiana Tempora

بعد أن رأينا كيف انتشرت المسيحية داخل الإمبراطورية الرومانية وخارجها وكيف نظمت الكنيسة حياتها الداخلية وتعابيرها عن الإيمان وكيف وضحت النقاط الأساسية للعقيدة المسيحية وكيف وصلت بتأثيرها إلى المجتمع، حتى إن الإمبراطور نفسه كان قد أصبح مسيحيًا، نستطيع أن نطرح السؤال: هل بدأ في القرن الرابع "الزمن المسيحي" وهل نستطيع أن نقول إن حضارة العالم الروماني في القرن الرابع كانت حضارة مسيحية؟

في الواقع-من قسطنطينوس إلى كوستانزوس الثاني وإلى ثيودوزيوس-لاحظنا أن الإمبراطورية كانت تهمل أكثر فأكثر

الوثنية وتعلن أن المسيحية – في عقيدتـــها الكاثوليكية–هي ديـــن الدولة. فهل نستطيع أن نقول إننا دخلنا في زمن مسيحي كمـــا يقول القديس أغوسطينوس؟ لابد أن يكون هناك تمييز ما.

٣–١. تأثير المسيحية في قانون الدولة

إن الاهتمام الذي كان يظهره الإمبراطور بالمسيحية يـدل على رغبة فعلية لا شكلية في إدخـــال روح المســيحية في كـــل تنظيمات العالم الروماني وفي الحياة نفسها. فمـــن ســنة ٣٢٥ أصبح يوم الأحد يوم عطلة رسميًا وفقدت الأعياد الوثنية طابعـــها الرسمي. وحدد دستور سنة ٣٨٩ الأعياد الرسمية و حصرها فقـط في الأعياد المسيحية ويوم أول يناير ويوم ذكرى الأباطرة ويـــوم ذكرى تأسيس العاصمتين روما والقسطنطينية.

وكذلك منعت الدولة تعدد الزوجات ووضعت حـــدودًا للزنى وموانع للطلاق. وأخيرًا، أدخلت قليلاً مـــن الإنســانية في نظام السجون الشنيع.

٣–٢. حدود تأثير المسيحية في الأخلاق

يجب أن نلاحظ ما يلي:

– لم يكن من السهل أن تؤثر المسيحية فـــي حضـــارة ولدت ونضجت في الوثنية خلال عصور طويلة، وأن يتـــم هـــذا التغيير خلال بضع سنوات أو بضعة أجيال. ولنأخذ كمقيـــاس قضيتين: ترك المولودين حديثا ومصارعة المجادلين.

فبالنسبة للقضية الأولى لا نجد إلا قوانين متناقضة ومبهمة، أما مصارعة المجادلين فإنها قد منعت سنة ٣٢٥ ولكن لم يطبق هذا القانون إلا سنة ٤٣٤/٤٣٨.

- عندما كان المسيحيون أقلية صغيرة، كانت المسؤوليات المدنية تقع على عاتق الآخرين ولكن الآن يجب على المسيحيين أن يهتموا بالمشاكل المدنية أيضا، مثل الحرب، فمن سنة ٣١٤ يحرم مجمع أرل (فرنسا) الجنود الذين يتهربون من الخدمة العسكرية. وسنة ٣٧٠ يوصي القديس باسيليوس الجنود المسؤولين عن قتل الآخرين أن يفرضوا على أنفسهم ثلاث سنوات من التوبة. وبعد هذا بقليل يوافق القديس أمبروزيوس، بدون أن يفرض ذلك كقانون، على أن يمتنع من الأسرار القضلة الذين حكموا على غيرهم بالإعدام.

- وكان ديوكليزيانوس وخلفاؤه قد وضعوا نظاما دكتاتوريا؛ فنتج عن ذلك إكراه وظلم ورعب وعذاب. وهذا كله بالرغم من النداء المستمر للكنيسة بالوداعة والرحمة والإنسانية؛ فقد ذهب الأسقف فلافيانوس سنة ٣٧٨ إلى الإمبراطور ثيودوزيوس وطلب منه المسامحة لمدينة أنطاكيا التي كان سكانها قد دمروا تماثيل الأباطرة أثناء إحدى الفتن، ولكن في حالة شبيهة بهذه الأخيرة لم يستطع القديس أمبروزيوس سنة ٣٩٠ أن يمنع الإمبراطور نفسه من قتل سبعة آلاف شخص كانوا مجتمعين في السيرك، وذبحهم دون رحمة. وتجاسر القديس أمبروزيوس على أن يطالبَ الإمبراطور بتوبة علنية وكان لأول

مرة في التاريخ يعترف إمبراطور بسمو الشريعة الإلهية ويتقبل الخضوع لسلطة الكنيسة الروحية .

ونستطيع أن نقول إن تدخل الأساقفة وضغطهم على الأباطرة أو على السلطات المدنية المختلفة قد نفع في كثير من الحالات الفردية ولكنه لم يؤثر كثيرًا في مبادئ الحكام ولا في تغيير البنيان القائم.

٣-٣. تطور المؤسسات الخيرية

ربما نستنتج مما سبق أن التأثير المسيحي في المجتمع الروماني كان هامشيًا، ولكن لابد من إكمال الصورة التي وصفناها بإضافة نواحي أخرى تبرز الجديد الذي أتت به الكنيسة.

إن العالم الوثني لم يعرف الاحترام الديني الخاص بالإنسان ولم يعتبره قيمة مطلقة أو هدفًا لرحمة الله الخالق والفادي. بينما أدخلت الكنيسة المحبة في معناها الاجتماعي أيضًا، أي روح تضامن الإنسان نحو جميع إخوته - المحرومين والفقراء والمرضى والمجانين إلخ... - فمن هذه الناحية يستحق القرن الرابع أن نسميه فعلاً "الزمن المسيحي"، لأن المحبة تظهر في هذه الفترة ظهورا واضحًا فأصبحت الصدقة من ضمن الواجبات الضرورية للمسيحي. ويبني القديس باسيايوس سنة ٣٧٢ - بجانب بيته الأسقفي - مجموعة من المباني تشمل كنيسة وديرًا ومستشفى وفندقًا للمسافرين والمرضى، خصوصًا للبرص.

وفي هذا الوقت نجد "بيوت الفقراء" في بونطوس وفي مدن أخرى في الشرق.

ونظمت كنيسة الإسكندرية جماعة من الممرضين (وكانوا خمسمائة سنة ٤١٦-٤١٨) يعملون تحت سلطة الأسقف.

ونجد في الغرب أيضًا المبادرات نفسها: يبنى فندق للحجاج والمسافرين في ميناء روما (أوستيا)، وتؤسس امرأة من روما - فابيولا - المستشفى الأول في روما.

وقد أصبحت الآن هذه الأعمال والمؤسسات خاصة بالدولة ولكن من يدرس تاريخ الحضارة يجب أن يقول إنها تأتي من إلهام مسيحي وإنها بدأت وتطورت بعناية الكنيسة وستعيش تحت رعايتها لمدة قرون طويلة.

الفصل الثاني عشر

اتساع الهوة بين الشرق المسيحي والغرب المسيحي

مات ثيودوزيوس في الخمسين من عمره سنة ٣٩٥ وخلفه ابناه أركاديوس - وكان عمره ثماني عشرة سنة وأصبح إمبراطورا على الجزء الشرقي - وأونوريوس - وكان عمره عشر سنوات وأصبح إمبراطورا على الجزء الغربي - ونظرًا لعمر الإمبراطورين تولى مسؤولية الإمبراطورية وكيلان هما: روفينوس في الشرق وستيليكونيوس في الغرب.

ومع هذين الوكيلين انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى إمبراطوريتين: الشرقية والغربية. وكانت الإمبراطوريتان متعاديتين وفي صراع مستمر؛ فمن بداية القرن الخامس تعاملت الإمبراطوريتان الغربية والشرقية بطريقة مختلفة جدًا مع القضايا السياسية والدينية، وتم كسر تلك الوحدة الثقافية التي كانت توحد البلاد اليونانية والبلاد اللاتينية في حضارة إمبريالية رومانية واحدة. ثم سقطت الإمبراطورية الرومانية الغربية سنة ٤٧٦ تحت غزوات البرابرة، بينما استمرت الإمبراطورية الرومانية الشرقية حتى سنة ١٤٥٣.

وأثناء القرنين الخامس والسادس اتسعت الهوة أكثر فأكثر بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية واختلفت الكنيستان في التنظيمات الكنسية وفي الليتورجيا وفي الحياة النسكية وفي التعبير الشعبي عن التقوى وفي طريقة تطبيق المسيحية في الحياة اليومية. ونظرًا لهذه الفروق الكبيرة بينهما فلابد أن ندرس تاريخهما على انفراد.

< أ > الشرق

الفصل الثالث عشر

العقيدة حول يسوع المسيح

مقدمة

كان مجمع نيقيا قد أعلن أن الابن "مساو للآب في الجوهر"، ولكن ما هو جوهر الطبيعة الإلهية والطبيعة الإنسانية في الابن ذاته؟ فإذا كان مجمع نيقيا قد وضَّح العلاقة بين الآب والابن، فيجب الآن توضيح شخصية يسوع المسيح ذاته.

١. أبولليناريوس

كان أبولليناريوس من اللاوديكيا (آسيا الصغرى) وكان مقتنعًا بقرار نيقيا. ولكن القضية التي أثارها انطلقت من ملاحظة عامة وهي أن الإنسان لا يمكن أن يكون بلا خطيئة، وبما أن المسيح كان بلا خطيئة فإن روحًا إلهيًا قد نزل فيه ليقوده إلى حياة طاهرة على الأرض؛ وبالتالي لا يوجد في المسيح إلا طبيعة واحدة وهي طبيعة الكلمة الإلهية. وهكذا كان أبولليناريوس ينفي أن المسيح إنسان و بالتالي ينفي التجسد.

ولقد أدان البابا داماسو هذا الموقف في مجمع انعقد في روما سنة ٣٧٧ وأدانه أيضًا مجمع الإسكندرية سنة ٣٧٨ ومجمع أنطاكيا سنة ٣٧٩ ومجمع القسطنطينية المسكوني سنة ٣٨١. ودام

تيار الأبولينارية حتى سنة ٤٢٠ غير أن مناقشات وقضايا أخرى ستنشأ في المستقبل القريب.

٢. نيستوريوس ومجمع أفسس (٤٣١)

يرفض نيستوريوس – أسقف القسطنطينية من سنة ٤١٨ – أن يعترف بأن مريم العذراء هي أم الله، بينما كان الشعب يعطي هذا اللقب لمريم العذراء منذ زمن بعيد، منذ أوريجينوس! يقول نيستوريوس: "هل من الممكن أن يكون لله أم؟ إنني أرفض أن أرى إلهًا مكونًا في بطن امرأة!" ودافع عن رأيه بقسوة وعنف. ونحن اليوم نتقبل من غير صعوبة وجود طبيعتين متوحدتين في شخص المسيح ولكن في القرن الخامس لم يكن الأمر بهذه السهولة. ففي مصر دافع كيرلس – أسقف الإسكندرية – عن العقيدة الصحيحة وهي وحدة شخص يسوع المسيح – كشخص إلهي – الذي اتخذ الطبيعة البشرية، ويكتب كيرلس إلى أساقفة مصر وإلى النساك وإلى سيليستينوس بابا روما وإلى نيستوريوس نفسه. فيعقد سيليستينوس مجمعًا محليًا في روما في إبريل سنة ٤٣٠ ويطالب نيستوريوس بالتنازل عن اعتقاداته، تحت طائلة الحرمان. ويبلغ البابا سيليستينوس كيرلس بهذا القرار ويكلفه بتنفيذه. وهكذا تعقدت الأمور كثيرًا حتى إن الإمبراطور ثيودوزيوس الثاني اضطر إلى عقد مجمع مسكوني في أفسس يوم ١٠ يوليو ٤٣١. وقرأ ممثلو بابا روما رسالته وأيد المجمع موقف البابا سيليستينوس. فقال المجمع إن المسيح له طبيعتان من غير

اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير، وقال أيضًا إن مريم العذراء تدعى أم الله بالحق. وأدين نيستوريوس ونُفيَ إلى الصحراء في صعيد مصر حيث مات نحو سنة ٤٥٠.

٣. مجمع خلقيدونيا (٤٥١)

وهناك أيضًا قضية أخرى حول شخصية المسيح، فقد كان القديس كيرلس قد قال إن يسوع المسيح له طبيعة واحدة وكان يقصد بذلك شخص المسيح. فأخذ رئيس دير في القسطنطينية – اسمه إيوتيكيس – هذه العبارة وأكد أن كيرلس قال: "إن الكلمة المتجسدة لها طبيعة واحدة وإنه بعد التجسد لم يكن هناك إلا طبيعة واحدة وهي الطبيعة الإلهية" ويضيف إيوتيكيس قائلاً: "إن اللاهوت قد تناول ناسوت المسيح مثلما يتناول ماء البحر نقطة عسل سقطت فيه"، فهناك طبيعة واحدة !

وينعقد مجمع في خلقيدونيا ويقرر أنه يوجد في المسيح شخص واحد وطبيعتان. ولكن هذا القرار سبَّبَ رد فعل سيئ من طرف أتباع صيغة كيرلسٍ (طبيعة واحدة) ونتج عن هذا الصراع انشقاق مازال موجودا في الكنيسة حتى اليوم.

وفي جلسة سرية خاصة عقدت أثناء المجمع نفسه، قرر بعض الأساقفة أن كرسي القسطنطينية له الامتيازات نفسها مثل كرسي روما، نظرًا للأهمية السياسية التي وصلت إليها مدينة القسطنطينية، فهي تمثّل "روما الجديدة". وهنا لم يتردد البابا ليون في بيان أن سلطة أسقف روما مبنية على كلام المسيح للقديس

بطرس وليس على أهمية المدينة. فانحلت المشكلة . . . هذه المـرة، ولكن العلاقات بين روما والقسطنطينية تتدهورت حـتى أدت إلى انشقاق آخر سنة ١٠٥٤ وهذا الانشقاق أيضًا مازال موجـودًا في الكنيسة حتى اليوم.

٤. مجمع القسطنطينية الثاني (٥٥٣)

لقد سبَّب إعلان تعاليم مجمع خلقيدونيا رد فعل شـديدًا لدى أتباع صيغة كيرلس الذي كان يقول إن في يسوع المسـيح طبيعة واحدة، وذكرنا أن كيرلس كان يقصـد بـ "طبيعـة" شخص المسيح. بينما كان مجمع خلقيدونيا يقول إن في يسـوع المسيح طبيعتين.

وفي مصر تبعت أغلبية المسيحيين الأسـقف ديوسـكور الذي رفض قرار خلقيدونيا رفضًا عنيفًا.

ويتم اختيار بطرس الفولوني أسقفًا على كنيسة أنطاكيـا وهو أيضًا ينضم إلى الـ "مونوفيزيين" (أي القائلين إن في يسـوع المسيح طبيعة واحدة) ويبدو أن هذا الأسقف هو الذي أدخـل في القداس – كما نقول حتى الآن – تلاوة "نؤمن بإله واحد" كمـا حدده مجمعا نيقيا (٣٢٥) والقسطنطينية الأول (٣٨١) و انتقـده مجمع خلقيدونيا. وتدخل الأبـاطرة الذيـن كـانوا يحكمـون الإمبراطورية الرومانية الشرقية في شؤون الكنيسة، فنجدهم يميلون تارة إلى تأييد قرار خلقيدونيـا، وتـارة إلى رفضـه؛ فنشـر الإمبراطور زينون، سـنة ٤٨٢، "مرسـوم الوحـدة" (اسمـه

"هينوتيكون") وأراد فيه أن يجمع بين المونوفيزيين والكاثوليك ويتجاهل خلقيدونيا ولا يذكر قضية الطبيعة الواحدة أو الطبيعتين. وبما أن هذه الصيغة كانت مبهمة جدا فإنها لم ترض أحدا واستمرت المعارضة لخلقيدونيا في الإسكندرية وفي أنطاكيا.

وفي سنة ٥٢٧ وصل إلى عرش الإمبراطورية الشرقية يوستينيانوس، رجل مثقف ولاهوتي، وأراد أن يوحد الكنيسة فبدأ يضطهد كل الهراطقة - أيا كانوا - ولكن كانت زوجته ثيودورة مونوفيزية.

وانعقد مجمع في القسطنطينية سنة ٥٥٣، حيث حافظ الآباء على وحدة الكلمة المتجسدة وهو "واحد من الثالوث الأقدس" وهو الذي ولد وتألم فهناك وحدة بلا اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير، ونجد هناك أيضا صيغ خلقيدونيا نفسها. ووضح المجمع أن الطبيعة البشرية لا توجد إلا في الوحدة (الأقنوم) مع الكلمة، فيسوع المسيح هو شخص واحد بطبيعتين، وهذا هو اللاهوت العام في الكنيسة.

ولكن هناك كنائس كثيرة بقيت مونوفيزية، ونظم أسقف أداسا يعقوب البردي (٥٦٤) كنيسة مونوفيزية قوية سميت على اسمه "كنيسة يعقوبية" وفي الوقت نفسه تكونت كنائس وطنية كلها مونوفيزية، فهناك الكنيسة السريانية (اليعقوبية) والأرمنية والقبطية وكنيسة الحبشة. وانضمت إلى المونوفيزية كل الكنائس تقريبا التي نشأت خارج الإمبراطورية الرومانية. ولكن

يجب أن نوضح أن التعارض كان سياسيا أكثر منه لاهوتيا، فكانت هناك مقاومة ضد القسطنطينية وضد كل ما كانت تؤيده. وبقيت هذه الكنائس المونوفيزية موجودة حتى الآن، بالرغم من الاضطهادات التي ستبدأ في القرون المقبلة.

ويوم ١٠ مايو ١٩٧٣ اعتمد البابا بولس السادس والبطريرك القبطي البابا شنودة الثالث إعلانا تجنبا فيه استعمال كلمة "الطبيعة" ووافقا على تعاليم خلقيدونيا!!!

- وكانت شعوب شمال السودان قد بقيت وثنية لمدة طويلة وكان الأباطرة قد قبلوا أن يكون لهم معبد إيزيس في جزيرة فيلة (أسوان حاليا) وذلك بعد أن كانت المعابد الوثنية قد أغلقت. وقرر يوستينيانوس سنة ٥٣٥ أن ينتهي هذا التسامح نحو الوثنيين فأرسل مجموعة مرسلين — سنة ٥٤٣ - لإرشاد النوبيين إلى المسيحية، ولكن زوجته ثيودورة أرسلت في الوقت نفسه مجموعة أخرى مكونة من مرسلين مونوفيزيين واستطاعت ثيودورة أن توقف إرسال المرسلين الكاثوليك الذين هم من طرف زوجها يوستينيانوس، فتم تبشير مونوفيزي فقط وأصبحت المنطقة كلها مونوفيزية.

الفصل الرابع عشر

الحياة المسيحية في الشرق في القرنين الخامس والسادس

مقدمة

لا شك أن القرنين الخامس والسادس شهدا صراعات كثيرة بسبب القضايا اللاهوتية التي ذكرناها والتي انحلت في المجامع المحلية والمسكونية.

ولكن لم تكن هذه الفترة مجرد نقاش عن عقائد الإيمان، فهناك تراث غني وعظيم انحدر من النسَّاك إلى الشعب المسيحي، فاستطاع المؤمنون أن ينظموا حياتهم الروحية وأن يشهدوا ليسوع المسيح في حياتهم اليومية.

١. الحياة النسكية الشرقية في القرنين الخامس والسادس

لقد أثر تطور الكنائس التي نشأت خارج الإمبراطورية الرومانية في تطور الحياة النسكية أيضًا، ونلاحظ ذلك في كنيسة الحبشة وفي كنيسة منطقة بين النهرين وفي كنيسة أرمينيا وفي كنيسة جورجيا.

ولكن كان تطور الحياة النسكية بارزًا بشكل خاص داخل الإمبراطورية الرومانية؛ فقد كان في القسطنطينية

وضواحيها سنة ٥١٨ سبعة وستون ديرًا للرجال وأديرة أخـــرى كثيرة للنساء. ويبدو أن مركز الحياة النسكية في هذه الفترة كـان في فلسطين وفي سوريا. فالحالة الخاصة بسوريا هي أن النســاك كانوا يعيشون على أعمدة، مثل القديس سمعان الشيخ الذي عاش الثلاثين سنة الأخيرة من عمره (٤٢٩-٤٥٩) على عمود كـــان علوه سبعة عشر مترًا!

وبجانب النساك الذين يعيشون كل واحد بمفرده، نجـــد النساك الذين كانوا يعيشون معًا في جماعة، وهذا النوع هو الذي كان منتشرًا. ونميز في هذا النوع أيضًا إمكانيتين: الحياة الجماعيـة الكاملة (Coenobium)، كما هو الحال في أديرة القديس بـاخوميوس والقديس باسيليوس، والـ "لاورا" (Laura)، حيث يعيش النســاك الأيام الخمسة الأولى من الأسبوع كل واحد بمفرده ويجتمعـــون كلهم يومي السبت والأحد للاحتفـــال بالليتورجيـا. وأشــهر مؤسس في هذه الفترة هو القديس أفتيمـــوس الكبـــير (٣٧٧-٤٧٣)، الذي أتى من الحدود الأرمنية واستقر في فلسطين حيـث أسس "لاورات" كثيرة في صحراء يهوذا. واشتهر أيضًا تلميـــذه القديس سابا (٤٣٩-٥٣٢)، وهو أصلاً من قبادوقيـــا، والـــذي أسس "اللاورا الكبيرة" (٤٧٣) التي لا تزال موجـــودة حـــتى اليوم. وكان القديس أفتيموس والقديس سابا مؤمنـــين بتعـــاليم خلقيدونيا ولذا لم تتأثر فلسطين بالمونوفيزية كما تأثر بـــها بـــاقي الشرق من سوريا إلى مصر وأكثر من ذلـــك أثـــرت الحيـــاة النسكية في الشعب المسيحي كله. فيقدم الناسك مثـــالاً حيًـــا للمشورات الإنجيلية ونداءًا بالكمال والطريق الضيـــق وحـــب

الصليب، وبالإضافة إلى ذلك، فإن هذا المثال يعطـــي ديناميكيـــة للحياة الروحية وحماسًا وفيضًا من الروح القدس. وهذه النقطـــة الأخيرة هي التي ستكون خاصة بالحيـــاة النســـكية في الشـــرق. فالناسك هو "حامل الروح القدس" ويظهر وجود الــروح مـــن خلال المواهب المعطاة له، فيلعب الناســـك الـــدور الأعلـــى في الكنيسة وهو التجسد في الجماعة المسيحية وفي العالم.

٢. الكنيسة البيزنطية وتقواها

تكلمنا عن أهمية الحياة النسكية في الشرق خلال القرنـــين الخامس والسادس، فعدد الإكليروس كـــان قـــد زاد في كـــل الكنائس؛ فنجد مثلاً أن الإمبراطور يحاول سنة ٥٣٥ أن يُحَـــدِّد من عدد الإكليروس في كاتدرائية القديسة صوفيـــا وفي توابعـــها ويجعلهم أربع مئة وخمسة وعشرين شخصًا بين كهنة وشمامســـة وقراء وشماسات ومرنمين. وزادت أيضًا مزارات الحج، وتأسست داخل كل إبراشية كنائس ريفية، وهي الرعايا حاليًا.

والتنظيم الذي كان أكثر أصالة وانتشاراً في الشرق هـــو البطريركية، فالبطريرك له درجة كنسية تنظيمية فوق الأســـاقفة وفوق رؤساء الأساقفة. وكانت مصر هي أول من أعطت مثـــلاً لكرسي أسقفي له سلطة على منطقة معينة كبيرة، وحدد مجمـــع خلقيدونيا البطريركيات الخمس وهـــي: رومـــا والقســـطنطينية والإسكندرية وأنطاكيا وأورشليم، بينما كان الغرب كله - وهـــو يشمل أيضًا مقدونيا واليونان - تابعًا لبطريركية روما وقد أعطـــى

هذا التنظيم الجديد أهمية متصاعدة لمدينة القسطنطينية. فبدأت القسطنطينية تبتعد أكثر فأكثر عن روما وبدأت أيضًا تستغل وجود ذخائر القديس أندراوس (التي كان الإمبراطور كوستانزوس الثاني قد أتي بها إلى كنيسة القسطنطينية) مدعية أنه مؤسسها وقاصدة بذلك المساواة الكاملة بينها وبين روما وأن تثّبت نوعًا ما سيادتها على روما نفسها، وكلما تقدم الزمن كلما اختلفت الكنيسة الشرقية عن الغربية، مثل أخوين يكبران الواحد بعيدًا عن الآخر فيتعودان على أن يعيشا منفردين.

وظهر هذا الاختلاف خصوصًا في الليتورجيا؛ ففي أثناء القرنين الخامس والسادس أخذت الليتورجيا البيزنطية كثيرًا من العناصر الجديدة التي أعطتها شكلاً خاصًا.

- ونحب أن نوضح أصل الصفة "البيزنطية" التي ستتكرر كثيرًا في بحثنا هذا. كانت الليتورجيا التي ستسمى "البيزنطية" قد بدأت في مدينة صغيرة اسمها "بيزانس" (وغيَّر الإمبراطور قسطنطينوس اسمها إلى مدينة القسطنطينية وجعلها عاصمة الإمبراطورية) وأصبحت الليتورجيا الخاصة بها. فنسبة لمدينة بيزانس سميت هذه الليتورجيا "بيزنطية"، وألغت الليتورجيا البيزنطية كل الليتورجيات الأخرى التي تستعمل اللغة اليونانية وأصبحت هي الوحيدة بهذه اللغة.

- ونستطيع أن نميز في الليتورجيا البيزنطية العناصر التالية:

– إحساس بالقدسية واحترام كامل لقداسة الله يصل حتى الخوف.

– اشتراك جماعي في القداس حيث يلعب الشماس دوراً خاصًا وهو أن يكون الوسيط بين الكاهن والشعب، فيقود صلاة الشعب ويشرك الحاضرين في الليتورجيا لافتًا انتباههم ومنبهًا إياهم إلى لحظات الاحتفال الجوهرية.

– ونلاحظ أيضًا عند البيزنطيين الميل إلى الفخفخة والعظمة والروعة، كما نجدها أيضًا عند إمبراطور القسطنطينية.

– وطورت الكنيسة البيزنطية إكرام الشهداء والقديسين والذخائر فوجد الشعب المسيحي في هذا الإكرام غنى عظيمًا لتقواه الديني ومساعدة وحماسة للاقتداء بالمسيح في حياته اليومية.

– وفي نهاية القرن السادس نشر الإمبراطور موريس في كل الإمبراطورية عيد انتقال العذراء وحدده يوم ١٥ أغسطس، كما هو حتى اليوم.

وتطور في هذا الزمن نوع خاص من العبادة سيسبب مشاكل واضطهادات في المستقبل وهو عبادة الأيقونات، ومن المؤكد أن الشعب المسيحي لم يقصد ما سيفهمه معارضو عبادة الأيقونات في القرن الثامن، فكانت صلاة المؤمنين تتوجه دائمًا إلى ما بعد تلك الصور، أي كانت تنتقل من الرمز إلى الشخص أو إلى السر الذي تقدمه الصورة، ولكن الصورة نفسها أصبحت موضوع إكرام وتعبد واعتقد الشعب أن لها قوة الشفاعة.

ونخطئ كثيرًا إذا اعتقدنا أن المسـيحيين الشـرقيين في القرنين الخامس والسادس لم يكونوا يهتمون إلا بالقضايا اللاهوتية الباردة، لا بل إنهم قد كوَّنوا – مع توضيح الحقائق العقائدية – حياة روحية عميقة أعطت لهم الإمكانية بأن يلتقوا بيسوع المسيح وأن يشهدوا له على الأرض.

< ب > الغرب

الفصل الخامس عشر

غزوات البرابرة
ووضع المسيحية الجديد

مقدمة

ظهرت في مطلع القرن الخامس هرطقة في الغرب هـــي البيلاجية وكان القديس أغوسطينوس هو اللاهوتي الذي عـــرف كيف يقاومها.

وأثناء هذه الصراعات في العقيدة، اغتصبـــت شـــعوب الشمال الإمبراطورية الرومانية الغربية والتي – هكذا – أصبحـت تحت حكم البرابرة، فكان هذا التغيير السياسي الجذري قـــد أتى بتغيير جذري في الكنيسة أيضا. وسنرى كيف عاشت الكنيســة الغربية في هذه الظروف الجديدة وكيف حققت دورهـــا، مثـــل الكنيسة الشرقية كمعلمة لجميع الشعوب.

١. البيلاجية

كانت الدوناتية – في سنة ٤١١ – قد انتهت ولكـــن في الوقت نفسه ظهرت هرطقة أخرى تعرف بـــ "البيلاجية" مـــن اسم مبدعها "بيلاجيوس". وكان بيلاجيـــوس ناســـكا – مـــن بريطانيا – مقيما في روما منذ سنة ٣٩٠/٤٠٠ وقد اشـــتهر في

الأوساط الكنسية بحياته المثالية وبمهارته كمعلم في الحياة الروحية، وينادي بيلاجيوس بكمال مثالي أخذه من العهد الجديد: "كونوا بلا لوم ولا شائبة وأبناء الله بلا عيب" (قل ٢/١٥) فألح كثيرا على الكمال الأخلاقي، ويقول بيلاجيوس إن الإرادة البشرية حرة تماما ومستعدة لعمل الخير أو الشر على السواء، فالنعمة الإلهية هي شيء خارجي وهدفها التسهيل – على قدر ما تستطيع – للإرادة أن تعمل وحدها و أيضا حسب استحقاقات الإنسان؛ وبالتالي، كانت خطيئة آدم بمجرد خطيئة شخصية فليس من العدل أن يعاقب الله الجنس البشري بسببها، وبما أن كل إنسان قد ولد من غير خطيئة، فإن المعمودية لا معنى لها والأطفال الذين يموتون بدون خطيئة يذهبون فورا إلى السماء، والفداء لم يأت بحياة جديدة للبشرية فقد ساعد المسيح بمثله الطيب فقط. وكذلك الصلاة لأجل الآخرين لا معنى لها أيضا لأنها لا تستطيع أن تساعدهم على خلاص نفوسهم.

وقامت هناك معارضة من الكنيسة ومن كتب القديس أغوسطينوس الذي وضح أخطاء بيلاجيوس. وانعقد مجمع اشترك فيه كل أساقفة أفريقيا (مايو ٤١٨) وأدين بيلاجيوس وأكد البابا زوزيموس هذا القرار.

٢. غزوات البرابرة

لقد هاجمت شعوب ألمانية متعددة – في بداية القرن الخامس – الإمبراطورية الرومانية؛ فاستولى الفيزيقوط على روما

ونهبوها سنة ٤١٠، ثم غزوا فرنسا وإسبانيا وأقاموا هناك. كما استولى الفندال على أفريقيا وحاصروا مدينة هيبونا (وهي المدينة التي كان القديس أغوسطينوس أسقفا عليها) ومات القديس أغوسطينوس (٤٣٠) أثناء هذا الحصار، كما سقطت قرطاجنة أيضا سنة ٤٣٩.

وأتى أيضا شعب آخر - الهونيون - ووصلوا إلى روما حيث نجح البابا ليون الكبير في عمل مفاوضات معهم فتركوا المدينة (٤٥٢). ولكن أتى بعدهم الفندال ونهبوا روما ٤٥٥. وأخيرا - سنة ٤٧٦ - خلع القائد الألماني أودواكر عن العرش الإمبراطور الأخير - رومولوس أوغوسطولوس - فانتهى بهذا العالم الروماني والمسيحي القديم وبدأ زمن جديد.

وبينما كانت الإمبراطورية الرومانية لا تزال موجودة في الشرق، انقسمت الإمبراطورية الرومانية الغربية إلى ممالك بربرية كثيرة: الأوستروقوط، والفيزيقوط والبرقوند والفندال والألمان، إلخ. ... واعتقد كثير من المسيحيين أن نهاية العالم قد حانت لأنهم كانوا يفكرون أن الكنيسة لا تستطيع أن تعيش بعد الإمبراطورية، لقد كانت الغزوة على روما سنة ٤١٠ صدمة كبيرة للمؤمنين، فكان الوثنيون يرون في ذلك عقابا من الآلهة لأن الإمبراطورية كانت قد تركت الدين الوثني القديم. وكان المسيحيون يتساءلون: لماذا لم يحم القديسان بطرس وبولس روما؟ وفي بيت لحم عبر القديس يرونيموس عن قلقه بطريقة محزنة جدا، بينما حاول القديس أغوسطينوس أن يفهم هذا الوضع الجديد وكتب الكتاب المشهور "مدينة الله".

- وقد أثرت هذه الغزوات في المسيحية كثيرا، ونستطيع أن نقول إن المسيحية ضعفت ضعفا كبيرا في المناطق الموجودة على حدود الإمبراطورية إن لم تكن قد اختفت، بينما بقيت حية في فرنسا وإسبانيا وإيطاليا.

وكانت هناك مشكلة أخرى وهي أن الشعوب المغتصبة كانت كلها آريوسية فسبب هذا الخلاف قضايا عديدة بين الحكام الجدد والشعب الكاثوليكي الذي أصبح تحت سلطتهم، وحاول بعض الملوك البرابرة - مثل جنسريك (٤٢٨-٤٧٧) وابنه وخليفته هونريك - أن يصلوا إلى وحدة دينية كضمان للوحدة الوطنية كما فعل الأباطرة الرومانيون من قبل، فعملوا على أن يصبح الشعب كله آريوسيا، فنتجت عن ذلك اضطهادات وعذب الكاثوليك سنين طويلة - للضغط عليهم لكي ينضموا إلى الآريوسية وأيضا الاستيلاء على الكنائس الكاثوليكية وطرد الأساقفة إلى المنفى - مثلما عمل جنسريك الذي بعد الاستيلاء على قرطاجنة (٤٣٩) طرد فورا أسقفها - اسمه "ما شاء الله" (Quodvultdeus) - ولكن يجب أن نقول إن هذه الشدة قد حدثت في أفريقيا فقط، بينما لم تخلق الآريوسية مشاكل كبيرة في باقي الغرب؛ فكان الفيزيقوط في جنوب فرنسا وفي إسبانيا متسامحين مع الكاثوليك، أما شمال فرنسا فقد كان الفرانك - وهم وثنيون - قد استولوا عليها وعندما أصبح ملكهم كلوفيس مسيحيا كاثوليكيا (حوالي سنة ٥٠٠)، لم تكن هناك أية مشكلة دينية. وفي إيطاليا لم تتغير الحالة الدينية كثيرا فبقيت المسيحية الكاثوليكية دين الدولة.

٣. الحياة النسكية

لقد تطورت الحياة النسكية خـــلال القرنـــين الخـــامس والسادس تطورا عظيما. و كان من ضمن الأسباب التي أدت إلى ذلك أن مستوى الثقافة كان قد انخفض كثيرا مع البرابرة مما نتـــج عنه أن الكهنة أيضا كانوا يعيشون في الجـــهل، بينمـــا كـــانت جماعات النساك تـــهتم – من الناحية الثقافية أيضـــا – بـــالذين كانوا يطلبون الانضمام إليهم؛ فأعطى النساك عددا كبيرا مـــن الأساقفة لأنـــهم كانوا المثقفين الوحيدين، وعندما أصبح هـؤلاء النساك أساقفة لم يتركوا مثالهم الأول فبقوا نساكا في قلوبـــهم وفي أعمالهم، وكنساك وأساقفة نشروا الحياة النسكية وأسســـوا الأديرة ودونوا القوانين. ويبدو أن القانون الأكثر أصالة هو الذي دونه القديس مبارك (Benedictus)، وهو أصلا من نورشيا (إيطاليـا) سنة ٥٤٠ عندما كان ناسكا في مونتي كاســـينو (Monte Cassino) حيث تنقل من سوبياكو (Subiaco). ويعتبر القديس مبـــارك أبـــا النساك في الغرب. لا شك أن قانون القديس مبـــارك غـــربي في روحه وفي نظامه ولكن القديس مبارك هو نفسه شـــرقي، فـــهو رجل حامل للروح القدس ومواهبه مشابـــهة لما كان للقديـــس أنطونيوس. ولا ننسى أن قانون القديس مبارك مدون للمبتدئـــين فهو يقول في الفصل الثالث والسبعين – وهو الفصل الأخـــير –: "إن من يريد أن يتجه إلى الحياة الكاملة عليه أن يصغي إلى الآبـاء والقدماء وأن يستقي توجيهاته من كتاب "المحـــاضرات" ومـــن كتاب "التنظيمات" ليوحنا كايسانو ومـــن "ســـيرة الآبـــاء في

الصحراء" ومن قوانين القديس باسيليوس، فنحن أمام الحياة النسكية الموروثة من الزمن القديم".

والطابع الخاص لقانون القديس مبارك معبر عنه في الوصية: "صل واعمل" (Ora et labora!). فأعطى القديس مبارك بعدا اجتماعيا لحياة النساك. ولم يكن هدفه هدفا اجتماعيا فقط، فالناسك يترك العالم ويعيش في الدير لهدف واحد وهو البحث عن الله، فكل ما يعمل الناسك سواء أكان في الصلاة أم في العمل يعمله تحقيقا للهدف الأساسي الوحيد وهو التقرب من الله. ولكن القديس مبارك أراد أن يعمل الناسك لخير المجتمع أيضا فقام تلاميذه بأعمال مفيدة للمجتمع كله مثل تخطيط الطرق وإنشاء الكباري وإصلاح الأراضي وزراعتها ونسخ الوثائق والكتب القديمة (مما حافظ على الكثير من الثقافة القديمة)، إلخ. وأصبح قانون القديس مبارك مصدرا لقوانين أخرى كثيرة استوحاها منه مؤسسون آخرون.

٤. الليتورجيا

- يبدأ في بداية القرن الرابع فعل مهم وهو إكرام العذراء بصورة خاصة وكان التعبير الأمثل لذلك هو تكريس كنائس باسمها، وحتى هذا الوقت لم تكن الكنائس تسمى على أسماء قديسين وإنما على أسماء محسنين. وبعد مجمع أفسس كرس البابا كسيستوس الثالث (٤٣٢-٤٤٠) للعذراء أم الله

(Theotokos) الكنيسة التي جددها في روما وهي كنيسة سانتا ماريا ماجيوري (Santa Maria Maggiore).

– وفي هذه الفترة يتم تثبيت الليتورجيا اللاتينية التي ستنتشر في الغرب كله وستصبح الليتورجيا العامة لكل الكنيسة اللاتينية. (ونسميها "لاتينية نسبة للغة اللاتينية المستعملة فيها، بينما في الواقع تسميتها الصحيحة هي "ليتورجيا رومانية"). ولكن رغم المحاولات التي قام بها البابوات لكي تستعمل كل الكنائس الليتورجيا الرومانية، سيبقى هناك اختلاف بين التقاليد الليتورجية العديدة، فلدينا ليتورجيا أفريقية وليتورجيا إسبانية (فهي ليست "مزعربية" كما تسمى عادة وإنما "فيزيقوطية") وليتورجيا فرنسا (ليون) وليتورجيا في شمال إيطاليا ومركزها ميلانو، ويمكننا القول إنه في سنة ٦٠٠ وصلت الليتورجيا اللاتينية إلى صيغتها النهائية والتي لن تتغير في القرون المقبلة إلا بعض الكلمات. فالجزء المركزي والثابت هو "القانون الروماني" (أي الصلاة الإفخارستية الأولى كما نسميها اليوم) وتسبقه مقدمات تختلف حسب الأعياد والأيام.

ويحتوي كتاب القداس الذي أصدره البابا ليون (بعد سنة ٥٥٠) على ٢٦٧ مقدمة، ويحتوي الكتاب الآخر الذي أصدره بعد ذلك البابا جيلازيوس (نهاية القرن السابع) على ٥٣ مقدمة، و قد نقص عدد المقدمات كثيرا جدا في "كتاب القداس" الحالي. ومن المقارنة مع الليتورجيات الشرقية نستطيع أن نستخرج الأصالة الخاصة بالليتورجيا اللاتينية وهي ببساطة: بساطة الأسلوب والخشوع. وتعبر الليتورجيا الرومانية عن

الإحساس بالقدسية وعن احترام قداسة الله عن طريق التقشف والتحفظ.

٥. العالم المسيحي الخاص بالقرون الوسطى

لقد حاول يوسستينيانوس أن يستولي على الغرب ليضمه إلى الإمبراطورية الرومانية الشرقية ولكنه لم ينجح إلاّ لمدة قصيرة فقط في شمال إيطاليا (رافينا) وفي أفريقيا. فعندما كان يوستينيانوس في بداية تنفيذ خطته، غزا شعب ألماني آخر – "اللومبرديون" – إيطاليا

(٥٦٨) واستولى على شمالها وأراد أن يكمل طريقه الانتصاري بالسيطرة على إيطاليا كلها. ولم يستطع يوستينيانوس قهر عدوه اللومبردي ولا أن يتصالح معه. فأصبح بابا روما هو الشخص الوحيد الذي قام بالدور التنظيمي والحكومي، وبدأ هكذا هذا التحرك الذي سينتهي بتأسيس دولة البابوات. ودخل الآن تاريخ روما في الفترة الخاصة بالقرون الوسطى: الكنيسة هي الوحيدة التي – أمام البرابرة – لها قوة تنظيمية وهي الوحيدة التي تستطيع أن تقود المركب المتروك بلا رُبّان في عاصفة شديدة.

ونجد أن بابا روما في هذا الوقت هو القديس غريغوريوس (٥٩٠–٦٠٤) الذي أطلقت عليه الأجيال التالية لقب "الكبير". وحقًا يستحق البابا غريغوريوس هذا اللقب لأسباب عديدة. ويعتبر – مع القديس أمبروزيوس والقديس يرونيموس والقديس أغوسطينوس – أحد العلماء العظماء الأربعة

في الكنيسة اللاتينية، ويعتبر أيضًا مع القديس أغوسطينوس والقديس برناردوس أحد المعلمين العظماء للحياة الروحية الغربية.

لقد كان غريغوريوس محافظ مدينة روما، ثم دخل الحياة النسكية وأخرجه منها البابا بيلاجيوس الثاني ليساعده في إدارة الكنيسة وأصبح خليفته في الكرسي البابوي. وأظهر غريغوريوس مهارة كبيرة في إدارة الكنيسة فكان يعرف كيف يتابع أساقفة إيطاليا الذين كانوا تحت دائرته، وكيف يمارس السلطة على الأساقفة الذين كانوا يترأسون مناطق الغرب الأخرى، وبالإضافة إلى ذلك فقد كان واعظًا ومفسرًا للكتاب المقدس. ومع غريغوريوس خاصة قامت الكنيسة بالدور الذي كان على الدولة أن تقوم به، ونجد مثلاً لذلك في ميدان التربية. لقد رأينا أنه في أثناء فترة آباء الكنيسة كان المستوى الثقافي عاليًا جدًا فكان من السهل أن يكون هناك كهنة وأساقفة مثقفون. ولكن مع البرابرة اختفى أي نظام مدرسي وتربوي – حتى نهاية القرن الخامس – فأصبح واجبًا على الأسقف أن يهتم بالكهنة من الناحية الثقافية أيضًا لكي يستطيعوا أن يقوموا برسالتهم الرعوية. فبدأت تظهر في القرن السادس المدارس المؤسسة من الأساقفة، وأتت منها الجامعات الحالية.

ومع زيادة الكنائس في الريف، رأى الكهنة أنه يجب عليهم أن يفتحوا هم أيضًا مدارس – كما كان الأساقفة يفعلون لأجل الكهنة – لكي يربوا فيها الأولاد ويستطيعوا أن يختاروا منهم دعوات كهنوتية. ونرى أن مجامع القرن السادس تقرر أنه لا يمكن أن يقبل في الكهنوت أناس أميون وتقرر تجنب الكهنة

الأميين الذين لا يريدون أن يتعلموا القراءة والكتابة. فحققت هذه المدارس المؤسسة من الأساقفة أو من كهنة الريف تلك الوحدة بين التكوين الثقافي والتكوين الروحي التي لم يعرفها الزمن الروماني القديم والتي كانت مدينة بيزانس لا تزال تتجاهلها، وقد أتت من هذه الخبرة تلك التربية المسيحية التي لا تزال الكنيسة اليوم مرتبطة بها ارتباطا وثيقا. فكانت كلمة "إكليروس" تدل على عضو بين الكهنة وفي الوقت نفسه على إنسان مثقف.

وإذا كان الأساقفة يقومون بأنشطة مادية، فإنهم لم يهملوا دورهم الأساسي وهو التبشير. وفي أثناء الاصطدام بغزوات البرابرة، كانت الوثنية القديمة قد رجعت خصوصا في الريف حيث كان انتشار المسيحية في بدايته. فلقيت الكنيسة صعوبة كبيرة في غرس حياة أخلاقية مسيحية في بيئة كانت قد عادت إلى الوثنية وتطبعت بالعنف والوحشية والشراسة الخاصة بالبرابرة. فأصبحت الأديرة مرة أخرى المكان الذي كان المسيحيون يجدون فيه الروح الإنساني والوداعة والسلام ولكن مع المثل الممتاز من النساك، كان الأسقف هو رمز القداسة والمبشر وصاحب فضائل مثالية ورسول السلام ورجل الله.

٦. اهتداء أوروبا الشمالية

٦-١. القديس باتريك

يعود نشر المسيحية في إيرلندا (التي لم تكن تحت السلطة الرومانية) إلى القديس باتريك الذي قام بنشاطه الإرسالي من سنة

٤٣٢ إلى سنة ٤٦١ . ومن الصعب أن نعرف تفاصيل اهتداء هـذا البلد إلى المسيحية، فنستطيع فقط أن نقول إنه هنـــاك تكونـت كنيسة كانت لها عناصر خاصة تميزها عن باقي الغرب اللاتيـــني ونستطيع أن نسميها بحق "كنيسة سلتية". ونذكر مـــن ضمـن خصوصياتـــها حماسها للحياة النسكية، فتطورت هناك الحيـــاة النسكية كثيرًا وزادت الأديرة. وبينما في باقي المنـــاطق كـان الأسقف هو المنشط للحياة المسيحية والمرشد للحيـــاة الروحيـة أخذت الأديرة في إيرلندا هذا الدور، وبما أنه كان يجـــب علـى الناسك أن يعرف اللاتينية لكي يصلي المزامير، فـــإن المســتوى الثقافي الجيد قد انتشر من الأديرة إلى الشعب وبقيت اللاتينية هـي اللغة الليتورجية الوحيدة. فكانت إيرلندا جزيرة معلمين وجزيـرة قديسين أيضًا.

وقد ظهرت في إيرلندا طوابع خاصة أخرى، نذكر منـــها اثنين أثَّرا في باقي العالم المسيحي تأثيرًا عميقًا:

منح سر المصالحة فرديًا وأكثر من مرة. فتكونت هنـــاك لوائح للخطايا وللأعمال المطلوبة لنيل الغفران. فكـــل خطيئـة يقابلها عمل خاص يجب على التائب أن يقوم به إذا أراد أن ينـال المصالحة. فتوضح اللائحة مدى فاعلية الإرادة وخطورة الخطيئـة والحالة الاجتماعية للمخطئ (هل هـــو مـــن الشـعب أو مـن الإكليروس، وهناك أعمال توبة أكثر قساوة للإكليروس): مثـلا ، لسبب خطيئة قتل أو زنى يفرض على التائب صوم علـــى الخـبز والماء لمدة سنوات عديدة. ونتج عن ذلك كله (وانتشر في بـاقي

العالم المسيحي) الاعتراف المتكرر ونيل المصالحة مع إرشاد روحي.

- وطابع آخر هو المنفى الاختياري، أي من كان يريد أن يحج حبًا لله، كان يترك بلده وعائلته وكان يذهب إلى منطقة غير معروفة وكان يقدم للمسيح هذا التغرب الاختياري، وفي نفس الوقت كان يقوم بعمل تبشيري.

٦-٢. القديس أغوسطينوس، أسقف كنتوربري

ووصلت سنة ٥٩٧ في منطقة "الكنت" (جنوب إنجلترا) مجموعة مرسلين كان قد أرسلهم البابا غريغوريوس نفسه من روما لكي يبشروا الشعوب الأنجلو - ساكسونية (Anglo) (Saxon people وكان على رأسهم القديس أغوسطينوس الذي سيكون الأسقف الأول على كنتوربري. وفي سنة ٥٩٧ نفسها اهتدى إلى المسيحية الملك أدلبرت - ملك الكنت - فانضم إلى المسيحية عدد كبير من حاشيته. وانتشرت المسيحية سريعًا وأسس القديس أغوسطينوس سنة ٦٠٤ كرسيين أسقفيين وهما لندن وروشستر (Rochester).

وهكذا بالعمل الإرسالي العظيم الذي قامت به الكنيسة الغربية في شمال أوروبا وصلت المسيحية إلى كل العالم المعروف في ذلك الحين.

الفصل السادس عشر

نظرة عابرة في القرون الوسطى

١ . فترة "القرون الوسطى"

١-١. الفترة التي ندرسها عن تاريخ الكنيسة (من ٦٠٤ الى ١٥٠٠)، مهما كانت طويلة، فإن لها وحدة بارزة ويسميها أغلبية المؤرخين "القرون الوسطى". وكل "فترة" تاريخية هي بناء مستمر حضاري لأن مجرى التاريخ لا يتأثر بالثورات والتيارات المختلفة إلا سطحيًا.

١-٢. فماذا يقول المؤرخون عن تحديد بداية "القرون الوسطى"؟

- لقد وافق كثير من المؤرخين على أن القرون الوسطى بدأت سنة ٤٧٦، عندما خلع القائد الألماني أودواكر الإمبراطور الأخير رومولوس أوغوسطولوس عن العرش. وفعلاً حدثت تغييرات كبيرة في التاريخ ابتداء من تلك السنة، ولكن لا نستطيع أن نحدد بدقة الفترات التاريخية الطويلة التي تتميز بتأثيرات مختلفة.

- ويقول المؤرخ البلجيكي، هنري بيرين (Henri Pirenne) إن القرون الوسطى قد بدأت مع الفتح الإسلامي، الذي كسر لأول مرة وبطريقة نهائية وحدة البحر الأبيض المتوسط وسبب نتائج غير متوقعة في الميدان السياسي والاقتصادي والثقافي. فيقول

هذا المؤرخ إن القرون الوسطى بدأت عندما فقدت روما المسيحية سيطرتها على حوض البحر المتوسط.

ومهما كان لهذا الاقتراح من صحة، فيجب أن نرى أيضًا الروابط والعلاقات التي ظهرت بين فترة تاريخية وأخرى فلا نستطيع أن نحكم باسم أيديولوجيا معينة. فينبغي لنا إذن أن ننظر نظرة عميقة إلى تغيرات المجتمع الروماني التي كونت تدريجيًا إنسان القرون الوسطى وهو إنسان مغلق في عمله الاقتصادي ومحتاج إلى حماية الآخرين. فهناك عناصر اجتماعية ظهرت قبل ظهور الإسلام وجبلت إنسان القرون الوسطى. ومنها: أزمة الإنتاج الريفي التي سببت نزوح الفلاحين إلى المدن، والتغيير الاجتماعي والروحي للإمبراطورية بتأثير المسيحية فيها، والانخفاض المستمر لقيمة الدينار (وهو عملة الفقراء)، فالذهب هو الذي كان يسود الاقتصاد وبالتالي ألغى قيمة عملة الفقراء. ولم يعد ممكنًا للمالكين الصغار تحمل دفع الضرائب، التي كانت مرتفعة جدًا، فلجأوا إلى التنازل عن أراضيهم هربًا من جباة الضرائب الذين كانوا يعتبرونهم مجرمين. وهكذا أصبح المالكون الصغار في حاجة إلى الحماية من المالكين الكبار، مما أدى إلى عمق الهوة بين الفقير والغني! هذه هي البيئة التي خلقت، مع مرور الزمن، إنسان القرون الوسطى.

كل هذه الأسباب مهدت الطريق أمام الفتح الإسلامي وسقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية (٤٧٦)، وظهور مجتمع جديد.

١-٣. ومن ناحية تاريخ الكنيسة، فإن هذه هي الفترة التي انتشرت المسيحية فيها تدريجيًا حتى عمت أوروبا كلها. وهناك عنصران مهمان يجب أن نذكرهما:

- الوحدة الدينية للمسيحية الغربية تميز هذه الفترة عن كل الفترات السابقة والمستقبلة.

- الكرسي الرسولي في روما كان ضامنًا لصحة العقيدة، وأكثر من ذلك، مارس البابوات بالفعل سلطتهم العقائدية والتنظيمية.

فآمن المجتمع الغربي كله بأن من كنيسة روما ومن مطرانها كان ينحدر الإيمان القويم والسلطة.

ونستطيع أن نميز في هذه الفترة الطويلة جزأين:

- أولهما من وفاة غريغوريوس الكبير (٦٠٤ +) حتى سنة ألف، حيث كانت التطورات والتغييرات فيه بطيئة جدًا وكانت الحياة الثقافية والأدبية راكدة.

- وثانيهما من سنة ١٠٠٠ حتى سنة ١٥٠٠. وخلال هذه الفترة زاد عدد المفكرين والمثقفين والمدارس وأعادت البابوية تنظيمها واستجدت الحياة النسكية وبنيت كاتدرائيات وأديرة في كل البلاد وازدهرت الفنون لخدمة العبادة، حبًا لما هو سام وعظيم فعرف المجتمع نهضة جديدة.

وبناء على ذلك، نبدأ بإلقاء ضوء على الأحداث التاريخية الرئيسة فهي تساعدنا على فهم تاريخ الكنيسة.

٢. نبذة عن التاريخ المدني

٢-١. كما ذكرنا، قد قرر الإمبراطور قسطنطينوس أن يبقى في الشرق وأن يؤسس عاصمة جديدة للإمبراطورية، فاختار مدينة بيزانس (Bisance) الصغيرة وغير اسمها إلى مدينة القسطنطينية و في ١١ مايو ٣٣٠ أسس فيها العاصمة الجديدة للإمبراطورية كلها، الغربية والشرقية. وكانت الأسباب في هذا التغيير دينية وسياسية واقتصادية في آن واحد. ففقدت روما شهرتها العظيمة وضعف شأنها.

وانقسام الإمبراطورية هذا وتدفق البربر شمالاً وشرقًا منذ زمن طويل قد ساعدهما في استيلائهم السريع على الإمبراطورية.

٢-٢. كما سبق الذكر، أتى الفيزقوط واستولوا على روما سنة ٤١٠، ثم غزوا جنوب فرنسا وإسبانيا وأقاموا هناك. كما استولى الفندال على أفريقيا وحاصروا مدينة هيبونة فمات القديس أغوسطينوس أثناء هذا الحصار (٤٣٠)؛ وأتى الهونيون واتجهوا إلى روما ولكن البابا ليون الكبير استطاع أن ينقذ المدينة بالتفاوض معهم فرجعوا إلى الشمال. ولكن الفندال أتوا بعدهم ونهبوا روما سنة ٤٥٥ وأخيرًا، في سنة ٤٧٦، انتهت الإمبراطورية الرومانية الغربية، حيث تمزقت إلى ممالك كثيرة: الأسطروقوط والبورقوند والفندال والألمان إلخ.

ومن بين الشعوب البربرية التي أقامت في أقاليم الإمبراطورية الرومانية الغربية السابقة، نخص بالذكر الفرانك لأنهم، باهتدائهم إلى المسيحية الكاثوليكية أثروا كثيرًا في

تكوين أوروبا المسيحية. وكان أشهر ملكهم كلوفيس (Clovis) الذي استولى سنة ٤٨٦ على شمال فرنسا وتزوج في سنة ٤٩٣ من كلوتيلد (Clotilde)، التي كانت كاثوليكية. واهتدى هو أيضًا إلى المسيحية الكاثوليكية في سنة ٤٩٦ فعمده المطران ريمي (Remys) الذي قال له في ليتورجيا المعمودية: "احن رأسك واعبد ما أحرقته حتى الآن، وأحرق ما عبدته حتى الآن".

٢-٣. أما إيطاليا، فنزل إليها تيودوريكو (Teodorico)، رئيس الأسطروقوط، في سنة ٤٨٨، واستولى على رافينا (Ravenna)، بعد حرب دامت خمس سنوات، وقتل بسيفه أودواكر القائد الألماني الذي كان قد خلع عن العرش الإمبراطور الروماني الغربي الأخير. وعاش الشعب الإيطالي في سلام أثناء حكم تيودوريكو (٤٩٣ – ٥٢٦). وبعد موت تيودوريكو حاول يوستينيانوس، إمبراطور الإمبراطورية الرومانية الشرقية، أن يُرجع إلى إمبراطوريته ما كان فقده في الماضي. وفي سنة ٥٣٥ نجح القائد البيزنطي بيليزاريوس في استعادة جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا إلى حكم البيزنطيين. وفي الوقت نفسه تدخل الفرانك من الشمال وحرروها من الأسطروقوط. وهكذا انتهى حكم الأسطروقوط في إيطاليا، التي أصبحت تحت سلطة البيزنطيين. فكانت الإمبراطورية الرومانية الشرقية تشمل: إيطاليا وألبانيا ويوغوسلافيا والمجر والرومانيا وتركيا ومصر وتونس وكانت مدينة القسطنطينية (روما الجديدة) قلب الإمبراطورية.

٢-٤. و، كما ذكرنا، أرسل يوستينيانوس مرسلين إلى السودان ولكن سبقهم مرسلون آخرون كانت قد أرسلتهم زوجته تيودورا، وهي أرثوذكسية، فانتشر في السودان الدين المسيحي حسب العقيدة الأرثوذكسية.

٢-٥. و، كما قلنا، في سنة ٥٦٩ هاجم اللونقوبارد إيطاليا واستولوا على الجزء الشمالي منها وعلى أجزاء أخرى من وسطها وجنوبها. ولكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء على إيطاليا كلها فبقيت رافينا تحت حكم القسطنطينية مقرا للحاكم اليوناني، والمدن الخمس التي كانت في وسط إيطاليا ومناطق أخرى في شمال إيطاليا وفي جنوبها. فأصبحت إيطاليا منقسمة الى دويلات صغيرة وستبقى على هذه الصورة حتى القرن التاسع عشر. وتم اهتداء اللونقوبارد إلى المسيحية الكاثوليكية أثناء حبرية البابا غريغوريوس الكبير (٦٠٤ +).

٢-٦. وفي سنة ٧٣٩ هدد ملك اللونقوبارد ليوتبراندو (Liutprando) البابا بالاستيلاء على روما. فلجأ البابا غريغوريوس الثالث إلى ملك الفرانك كارلوس مارتيل (Charles Martel, 689-741)، لكنه لم يستجب لطلبه. وفي سنة ٧٤١ توفى كل من ليون الثالث، إمبراطور مدينة القسطنطينية، وكارلوس مارتيل والبابا غريغوريوس الثالث. فخلفه البابا زكريا وعقد اتفاقا لمدة عشرين عاما مع ليوتبراندو، ملك اللونقوبارد. وفي سنة ٧٥١ تولى الحكم أستولفو(Astolfo) ملك اللونقوبارد وهاجم المناطق التي كانت تحت حكم البيزنطيين واستولى عليها وهكذا انتهى حكم البيزنطيين في إيطاليا.

٢-٧. ولجأ البابا إسطفاوس الثاني الى بيبينـــو (Pipino)، ابن كارلوس مارتيل، في سنة ٧٥٤، فشن حربا علـــى أســـتولفو وانتصر عليه وأصبح البابا صاحب قصور ومدن وأراض كـــانت ملكا للونقوبارد. يقول بعض المؤرخين إن دولة البابوات بدأت في هذا الوقت. ولكن، في الواقع، كانت قد بدأت من قبل ذلك منـذ إشراف البابا على أراض ومناطق كثيرة حيث كان هو المســؤول الوحيد عنها. لكنه الآن يصبح المالك الرسمـــي وســـتبقى دولـــة البابوات حتى سنة ١٨٧٠.

٢-٨. وخلف بيبينو ابنه كارلوس الكبير، الذي انتصــر نـــهائيا على اللونقوبارد عندما هزمهم في ســـنة ٧٧٣ فـــأصبح ملك الفرانك واللونقوبارد. واستطاع كارلوس الكبير، حتى ســـنة ٧٩٦، أن يستولي على ما نسميه اليـــوم: ألمانيـــا ويوغوســـلافيا السابقة والتشيك وسلوفاكيا والمجر وبلغاريا وهولنـــدا وبلجيكـــا وفرنسا وشمال إيطاليا ومناطق أخرى في وسطها وفي جنوبـــها.

وفي ليلة الميلاد سنة ٨٠٠ كلل البابـــا ليـــون الثـــالث كارلوس الكبير إمبراطورا. ولكنه في خلال سنة قسم الإمبراطورية بين أولاده الثلاثة فأصبحت ثلاثة ممالك. و لم تكن هناك مشـــكلة في خلافة الملك لأن اثنين من أولاده توفيا فصار الابـــن الثـــالث "لودوفيك التقي" (Ludovic the pious) الخليفة الوحيد. وسار هـــذا الأخير على خطى أبيه فقسم الإمبراطورية بين أبنائه الثلاثة. فعـــين ابنه الأكبر لوتاريو(Lotario) شريكا له وخليفته الوحيد في لقـــب "إمبراطور" وأعطى ابنه بيبينو فرنسا وأعطى ابنه الثالث لودوفيـــك الألماني ألمانيا وما كان شرقا منها. وكان على لودوفيك التقي حل

مشكلة أخرى وهي إرضاء زوجته الثانية التي كانت تطالبه بملك لأجل ابنها كارلوس الأصلع فأعطاه ملكًا في شمال فرنسا.

وبعد موت لودوفيك التقي اشتعلت المعارك، مما أدى إلى اتفاق (سنة ٨٤٣) في مدينة فردين (Verdun) في فرنسا، حيث:

- أخذ كارلوس الأصلع فرنسا
- أخذ لودوفيك الألماني ألمانيا
- أخذ لوتاريو شمالإيطاليا ولوتارنجيا (ممر لمناطق من شمال إيطاليا حتى بحر الشمال).

وهكذا نشأ الشكل الأول لأوروبا .

٢-٩. وخلف كارلوس الأصلع ابن أخيه كارلوس الناصح (٨٨١ – ٨٨٧) ولكن عند وفاة هذا الأخير اختفى الفرع الأخير للسلالة الكارولينجية. وعند نهاية هذه السلالة كانت هناك ظروف صعبة جدًا من تصاعدٍ للفوضى في النظام الإقطاعي، إلى التفرقة العرقية بين الشعوب واللغات المختلفة (فرنسي وألماني واللاتيني الشعبي)، إلى التعرض للغزو من شعوب كثيرة (العرب والمجريين والصقالبة والنورمانيين، إلخ) كانت تشكل خطرًا مستمرًا على الشواطئ الشمالية والأطلسية وعلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط، وحدث تاريخي آخر كان يؤثر تأثيرًا جذريًا في تاريخ أفريقيا وأوروبا وهو الفتح الإسلامي.

أهم أشخاص السلالة الكارولينجية

بيبينو	(+ ٧٦٨)
كارلوس الكبير	(+ ٨١٤)
١- لودوفيك التقي	(+ ٨٤٠)
٢- كارلوس	(+ ٨١١)
٣- بيبينو	(+ ٨١٠)

لودوفيك التقي

١- لوتاريو	(+ ٨٥٥)
٢- بيبينو	(+ ٨٣٨)
٣- لودوفيك الألماني	(+ ٨٧٦)
٤- كارلوس الأصلع	(+ ٨٧٧)

لودوفيك الألماني

كارلوس الناصح	(+ ٨٨٨)

٣. الفتح الإسلامي

٣-١. كانت الجزيرة العربية في القرن السابع مكان التقاء حضارات وأديان مختلفة. فهناك جماعات يهودية ومسيحية قد استوطنت على شواطئ البحر الأحمر وفي جنوب الجزيرة

(اليمن). وكانت مدينة مكة تجذب العرب بتجارتها وكعبتها التي كانت هدفًا لحج ديني.

٣-٢ ونحو سنة ٦١٠ أعلن "الرسول" رسالته التي قال إنه تسلمها من السماء: "الدينونة قريبة ولا إله إلا الله ويجب على كل مؤمن أن يسلم ذاته لله إسلامًا مطلقًا". فأراد أن يعيد العبادة الى الإله الواحد. وأمام رفض قومه، ترك مكة وهاجر إلى المدينة في سنة ٦٢٢. وهذه الهجرة النبوية هي بداية التقويم الإسلامي. وبعد تحقيق الوحدة بين القبائل، رجع منتصرًا إلى مكة، حيث توفى بعد شهور قليلة (٦٣٢).

وانتشر الإسلام بسرعة كبيرة وغير متوقعة. فسقطت مدينة القدس وفلسطين سنة ٦٣٨ وسقطت الإسكندرية سنة ٦٤٢ وبلاد الفرس سنة ٦٥١. وسقط في آخر القرن شمال أفريقيا. وبدأ العرب أيضًا يغزون إسبانيا ووصلوا إلى قلب ملك الفرنجة، ولكنهم هزموا أمام كارلوس مارتيل في بواتيه (Poitiers) سنة ٧٣٢، واستمر الحكم العربي في أسبانيا حتى سنة ١٤٩٢.

سقطت أقدم كنائس مسيحية تحت الحكم العربي وقل عدد الجماعات المسيحية دائمًا أكثر فأكثر. واستمرت بعض الكنائس ولاتزال موجودة حتى اليوم، مثل كنيسة الأقباط في مصر والكنيسة المارونية في لبنان وبعض كنائس شرقية أخرى. في حين أن المسيحية اختفت اختفاء كاملاً في شمال أفريقيا، وذلك من بداية القرن الثاني عشر. بينما استمرت المسيحية في شمال السودان

حتى القرن الرابع عشر. و لم يعد البحر الأبيض المتوسط- وفي قلبه مدينة روما- مركز المسيحية إلا في الحدود الجنوبية منه.

٣-٤ أما بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية، فإنها فقدت في الجنوب سوريا وفلسطين ومصر، وفي الوقت نفسه كان يهددها "الصقالبة" من الشمال وبلغاريا من الشرق، كما أن انعزال بطريركيات الإسكندرية والقدس وأنطاكيا في العالم العربي الإسلامي أعطى بطريرك القسطنطينية دور رئيس الكنيسة في الشرق، وقد وضعه هذا الدور في تنافس مع البابا الذي اعتبره أسقف روما فقط.

- وفي الممالك البربرية الغربية ظهر انحطاط كبير خاصةً في الأخلاق وفي الدراسات والفنون وفي الدين، حيث امتزج بالشراسة وبالوثنيةٍ وخرافاتها. لكن الإيمان لم يختف كلية ولعب النساك دورا عظيمًا في إحيائه وفي انتشاره في جميع أنحاء أوروبا.

الفصل السابع عشر

مدينة القسطنطينية
وكنائس أوروبا الشرقية

مقدمة

لقد تم اهتداء شعوب البلقان و روسيا في نهاية القرن العاشر ويعود الفضل إلى الكنيسة البيزنطية التي قامت بالعمل التبشيري منذ القرن السادس، والإمبراطور يوستينيانوس (٥٢٧ – ٥٦٥) الذي أعطى التوجيهات لهذا العمل. وسندرس في هذا الفصل تلك التوجيهات والعمل التبشيري العظيم الذي قام به الأخوان كيرلس وميثوديوس.

١ . طريقة الكنيسة الشرقية في العمل التبشيري

لقد كان العمل التبشيري للكنيسة الشرقية في القرن السادس مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بأهداف السياسة الخارجية للإمبراطورية، وكانت هذه السياسة تعتمد على ثلاثة مبادئ رئيسة:

– الاقتناع الآتي من روما القديمة بأن الإمبراطورية هي– مبدئيًا– جامعة يجب على كل الشعوب الانضمام إليها.

– الفكرة الآتية من العالم الهليني بأن الشعوب البربرية التي كانت خارجة عنه سوف تنضم عاجلاً أم آجلاً إليه وإلى ثقافته.

– الاعتقاد الآتي من التقليد اليهودي-المسيحي بأن البيزنطيين بصفتهم مكرسين من الإمبراطور قسطنطينوس لخدمة المسيح يعتبرون شعب الله المختار الجديد ومن واجبهم نقل الإنجيل إلى جميع الأمم.

وهكذا كان هناك تعادل بين مصالح الإمبراطورية وانتشار المسيحية. ونفهم من هنا لماذا قام أباطرة كثيرون – جادون – بإهتداء البربر ونفهم أيضًا لماذا- ابتداء من القرن السادس- كانت الرسالة البيزنطية متأثرة بعناصر دينية وسياسية في آن واحد؛ فكان للمرسل البيزنطي دور مزدوج: كمسيحي مرسل لنشر إنجيل ملكوت الله، وكشخص أمين منتم إلى الإمبراطورية. وكانت الإمبراطورية تؤثر على الشعوب البربرية من خلال إظهار عظمتها و قوتها ومن خلال ليتورجيا رائعة المنظر.

ولكن هذا التوافق بين الدين والسياسة كثيرًا ما صاحبه الضعف والقلق. إذ أن بعض الشعوب البربرية كانت مرتبطة جدًا باعتقاداتها الوثنية فلم تقبل القوة البيزنطية التي تهدد معتقداتها بإدخال المسيحية. و البعض الآخر آثر الاستقلال السياسي ورفض المسيحية لارتباطها بإمبراطور القسطنطينية. لهذه الأسباب قتل "الهونيون" ملكهم قرود (Grod) الذي تعمَّد في

القسطنطينية سنة ٥٢٨، لأنـــهم كانوا يريدون الاستقلال التـــام لبلدهم.

غير أن العمل الإرســـالي اســـتفاد كثـــيرًا مـــن تـــأييد الإمبراطورية ونعرف أن الطريقة المتبعة كانت:

- غيرة رسولية أصيلة.

- ترجمة الكتاب المقدس ونصوص الليتورجيـــا إلى لغـــة الشعوب لتسهيل اهتداء الوثنيين.

- محاولة المرسلين لمساعدة الناس في التنمية مثل تحويـــــل الاقتصاد البدوي إلى اقتصاد زراعي.

- مساعدة الناس في احتياجاتـــهم المادية.

- دعامة سياسية واقتصادية من حكومة الإمبراطورية.

وكانت هذه المحاولات تستهدف بناء اســـتقرار متـــين للتطور الديني والثقافي للجماعة.

واستمر العمل الإرسالي بـــهذه الصورة حتى سنة ٦٥٠، لكنه تراجع من ســـنة ٦٥٠ إلى ســـنة ٨٥٠ بســـبب غـــزوات "الصقالبة" الوثنيين والمعارك مع العرب وقضية تحطيم الأيقونـات. فاضطرت الإمبراطورية إلى استعمال كل إمكاناتـــها حتى تبقـــى على قيد الحياة، فاستترفت قواها الروحيـــة وعطلـــت السياســـة الخارجية. في حين أنه حتى أثناء هذه الفترة الســـــوداء لم ينـــس البيزنطيون أن واجباتـــهم الدينية ومصالحهم السياسية كـــانت تتحقق في تبشير الوثنيين بالإنجيل.

٢. كيرلس وميثوديوس ورسالتهما في مورافيا

- في منتصف القرن التاسع بدأت الكنيسة البيزنطية نشاطها الإرسالي من جديد وحدث في الوقت ذاته تعديل عميق في السياسة الخارجية للإمبراطورية، ووصل هذا التجدد الى قمته في السبعينات من القرن التاسع، حيث كانت الحضارة البيزنطية قد جاوزت الحدود الشمالية للإمبراطورية ودخلت في عمقٍ أوروبا الشرقية والوسطى وكانت قد ضمت إلى تبعيتها جزءا كبيرًا من العالم "الصقلبي". ويذكر هنا خصوصًا القديسان كيرلس (أو قسطنطينوس، كما كان اسمه قبل أن يصبح ناسكًا) وأخوه ميثوديوس.

لقد ولد الأخوان في تسالونيك (في اليونان) وكان ميثوديوس الأكبر ودخل في دير من أديرة بيتينيا (في تركيا) سنة ٨٤٠. بينما قسطنطينوس درس في الجامعة في القسطنطينية، حيث رُسِمَ كاهنًا.

- ووصل إلى القسطنطينية في سنة ٨٦٢ شخص مرسل من راتيسلاف (Ratislav)، ملك مورافيا (التشيك والسلوفاكيا حاليًا) حاملاً طلبًا بعقد سياسي بين بلده والإمبراطورية وطلبًا آخر بإرسال مرسل مسيحي يعرف لغة مورافيا الصقلبية. في الواقع، كان ملك مورافيا يريد أن يضمن استقلاله السياسي والثقافي تجاه لويس الألماني، ملك البافيرا (Baviera، في ألمانيا). ورأت الحكومة البيزنطية الفوائد الروحية والمادية التي كان يمكن تحقيقها إذا اتسع تأثيرها في أوروبا الشرقية، فقبلت الطلبين

وعينت قسطنطينوس وميثوديوس لرئاسة الرسالة في مورافيا. وكان الأخوان يعرفان اللغة الصقلبية المستعملة في مقدونيا- المنطقة المجاورة لبلدهم تسالونيك- وبناء على هذه اللغة اخترع قسطنطينوس حروفًا جديدة لكتابة اللغة الصقلبية المستعملة في مورافيا. وهكذا بدأت لغة جديدة- "الصقلبية"- مبنية على اللغة الصقلبية الخاصة بمقدونيا. وأثناء القرون الوسطى صارت الصقلبية اللغة الدولية الثالثة لأوروبا واللغة المقدسة لبلغاريا والروس الصرب.

- ووصل المرسلون البيزنطيون إلى مورافيا في ربيع سنة ٨٦٣ وبدأوا فورا عملهم الإرسالي. وكانت المسيحية قد وصلت إلى مورافيا منذ عشرين عامًا تقريبًا على أيدي مرسلي فرانك. لكن المرسلين البيزنطيين حسنوا العمل السابق بترجمة الكتاب المقدس والكتب الليتورجية إلى لغتهم، وكان ذلك أمرًا طبيعيًا للبيزنطيين لأن شعوبًا شرقية كثيرة كانت تستعمل لغتها الخاصة في الليتورجيا، مثل الأرمن والأقباط. ولكن كنيسة الغرب كانت تعتقد أن اللغة اللاتينية فقط هي اللغة التي يمكن استعمالها في الليتورجيا. وتعقدت المشكلة عندما جاوز قسطنطينوس وميثوديوس حدود مورافيا وأسسا جماعة مسيحية في بانونيا (بين النمسا والمجرحاليًا) وكانت بانونيا تنطق باللغة الصقلبية لكنها كانت تحت سلطة كنيسة الفرانك (كنيسة غربية). فاشتعل النقاش وقيل إن اللغات الليتورجية هي ثلاث فقط: العبرية واليونانية واللاتينية. ووصلت القضية إلى البابا فأتى قسطنطينوس وميثوديوس إلى روما. وأيّد البابا أدريانوس الثاني موقف الأخوين

تأييدًا تامًا. وفي روما مرض قسطنطينوس وتوفي في سنة ٨٦٩، وكان عمره ٤٢ سنة، بعد أن كان قد دخل الدير متخذاً اسم "كيرلس"، كما ذكرنا.

– وأصبح الآن مصير المسيحية باللغة الصقلبية في أيدي البابا وميثوديوس فقط. وفي نهاية سنة ٨٦٩ رجع ميثوديوس إلى روما ورسمه البابا مطرانًا على بانونيا. ولكن في سنة ٨٧٣ منع البابا يوحنا الثالث استعمال اللغة الصقلبية في الليتورجيا لأنه كان يريد تجنب أي نزاع مع إيكليروس الفرانك بسبب اللغة الليتورجية. غير أن ميثوديوس تجاهل الأمر البابوي وواصل عمله الرسولي باللغة الصقلبية. ونقلت إلى البابا انتقادات أخرى على ميثوديوس إذ قيل للبابا إنه لا يقول "والابن" في تلاوة قانون الإيمان فأتى مرة أخرى إلى روما في سنة ٨٨٠ وأثبت للبابا إيمانه المستقيم وأقنعه بضرورة استعمال الصقلبية في الليتورجيا. فأعلن البابا: "... إن الذي خلق اللغات الرئيسة الثلاثة، العبرية واليونانية واللاتينية، خلق أيضًا اللغات الأخرى لحمده وتمجيده". وبعد تأييد البابا، نال ميثوديوس تأييد الإمبراطور أيضًا، حيث كان قد تصالح مع البابا. وعاش ميثوديوس سنواته الأخيرة وأمامه شبح الانهزام. وفعلاً، بعد موته في سنة ٨٨٥، نال أعداؤه من البابا إسطفانوس الخامس إدانة الليتورجيا الصقلبية وقبضوا على تلاميذه وطردوهم من مورافيا. وذهب هؤلاء التلاميذ إلى بلغاريا ومن هناك نشروا المسيحية إلى الروس والصرب، مستعملين اللغة الصقلبية.

وبالرغم من كل المعارك بين كيرلس وميثوديوس والكنيسة الغربية، فقد حقق الأخوان المصالحة والتقارب بين العناصر الثلاثة، البيزنطية والرومانية والصقلبية، أساس الحضارة الأوروبية في القرون الوسطى، فاستحق كيرلس وميثوديوس لقب "القديسين" حقاً.

الفصل الثامن عشر

كنائس أوروبا الغربية

مقدمة

نبحث في هذا الفصل عن حياة الكنائس في أوروبا الغربية، وكيف كانت علاقاتها مع الأباطرة والملوك وكيف عاشت حياتها الداخلية.

١. الكنيسة الفرانكية (من ٦٠٤ الى ٨٨٨)

كانت الكنيسة الفرانكية تعيش في فوضى حتى موت كارلوس مارتيل (٧٤١ +) وانحل سريعًا كل نظام كنسي ولم ينعقد أي مجمع في هذه الفترة، ما عدا المجامع التي عقدها بونيفاسيوس في السنوات ٧٢٢ و٧٤٤ و٧٤٥ و٧٤٧ أثناء حكم أولاد كارلوس مارتيل. وإذ أنقذ كارلوس مارتيل المسيحية الغربية بانتصاره على العرب في بواتيه (٧٣٢)، فإنه استولى أيضًا على عدد كبير من الأديرة وبيوت الأساقفة لكي يكافئ بها الذين ساعدوه ضد الغزو الإسلامي.

وتغيرت الحالة مع الملك بيبينو (٧٦٨ +)، المؤسس الحقيقي للمملكة الفرانكية. فظهر أثناء حكمه تجديد أصيل في الكنيسة وإرادة واضحة في إصلاحها.

ولكن الملك الذي اهتم كثيرًا بالكنيسة كان كـــارلوس الكبير. فمنذ صعوده إلى العرش (٧٦٨) حتى وفاته (٨١٤) بــذل كل جهده في إدارة الجماعة المسيحية الكبيرة فاعتبر نفسه القــائد الأعلى للكنيسة الغربية جمعاء وللإمبراطورية المسيحية. فــاعترف بأن البابا له السلطة المطلقة في العقيدة وفي التعليـــم الأدبي لكنـــه تدخل كثيرًا في النظام الكنسي. فأخذ على عاتقه الإدارة الكاملـــة والمستمرة للشؤون الكنسية ولأملاكها وأصبـــح في ســـنة ٨٠٠ المسؤول عن المسيحية الغربية كلها، ما عدا الجزر البريطانية. فـــلا أحد قبله ولا أحد بعده قام بحكم الكنيسة بصفة ثابتـــة وقويـــة وواسعة كما فعل هو. وكان يختار هو نفسه، ما عدا اســـتثناءات نادرة، المطارنة لكنه كان يترك لهم الحرية الكاملـــة في ممارســـة سلطتهم في كل الميادين داخل إبراشياتـــهم.

ولم يقتصر اهتمام كارلوس الكبير بإدارة الكنيسة فقـــط بل اعتبر نفسه حارس العقيدة والمدافع عـــن الإيمـــان ضـــد أي انحراف، فأخذ موقف المدافع الرسمي عن الإيمان خلال المجـــادلات الثلاثة حول تحطيم الأيقونات والتبنية (انظر ما بعد) وانبثاق الروح القدس. فتصرف الإمبراطور كارلوس الكبير كأنه الحاكم المعترف به للإيمان القويم. غير أن البابوية بقيت مستقلة عنه وهو لم يفـرض عليها قوته ولم يحاول إلغاءها. لكن تدخله هذا في شؤون الكنيسة شكل سابقة ستعتبر مثالاً خلال القرون الوسطى كلها، إذ أصبـــح كارلوس الكبير شخصًا أسطوريًا سيكون له تأثير كبير في تـــاريخ أوروبا الغربية.

ولم يكن ممكنًا أن يكون هناك خليفة قادر على متابعة عمل هذا الرجل؛ لذا بدأ مع أولاده تفكك الإمبراطورية الكارولينجية. فأخذ بعض الأساقفة وخلفائهم إدارة شؤون الكنيسة في السنوات الخمسين اللاحقة. و مع وفاة كارلوس الناصح (٨٨٨) انحلت الإمبراطورية الكارولينجية وعاش بلد الفرانك أفدح فترة في القرون الوسطى، إذ تشتتت السلطة الملكية على أيدي الأمراء الإقطاعيين والمطارنة وصار بعض العلمانيين الأغنياء رؤساء على بعض الأديرة فنتج عن ذلك فقر وأحيانًا اختفاء كامل لأملاك الكنيسة.

١. الكنيسة الإنجيلية – الساكسونية
(من ٦٦٣ الى ١٠٦٦)

كما ذكرنا سابقًا، تم تبشير جنوب إنجلترا بواسطة مرسلين من روما، مما أدى إلى علاقة خاصة بين روما وتلك المنطقة. وبشر مرسلون آخرون فيما بعد إنجلترا الوسطى والشمالية. لكن كانت هناك عادات مختلفة بين كنائس جنوب إنجلترا؛ إذ كانت فيها عادات متأثرة بكنيسة روما، وكنائس المناطق الأخرى. فانعقد مجمع في ويتبي (Whitby) في سنة ٦٦٣ حيث لعب الناسك ويلفريد (Wilfrid) دورا حاسمًا في المناقشات واستطاع فرض سلطة البابا على كل الكنائس المجتمعة في المجمع، وقبلت كنيسة إنجلترا الوسطى والشمالية قرارات روما. وكان

هذا المجمع في منتهى الأهمية لأن الوحدة المعلنة فيه قد أصبحت- سريعًا -حقيقة.

وفي سنة ٦٦٨ ذهب إلى روما مطران كانتربري (Canterbury) المنتخب لقبول رسامته الأسقفية لكنه مات في روما وحسب العادة المتفق عليها في مجمع ويتبي، كان على بابا روما اختيار المطران الجديد. فاختار البابا فيتاليانوس (Vitaliano) الناسك الأفريقي المثقف أدريانوس. لكن أدريانوس اقترح اختيار الناسك اليوناني المتعلم ثيودوروس وقبل البابا الاقتراح، غير أن ثيودوروس أراد صحبة أدريانوس في الرسالة الجديدة، فسافر الاثنان إلى إنجلترا. ونظم ثيودوروس كنيسة إنجلترا وقسمها إلى إبراشيات ونجح في تعليم الناس الحقائق الإيمانية. فقد حقق ثيودوروس وأدريانوس نهضة عظيمة لكنيسة إنجلترا التي عرفت في الجيل اللاحق عهدها الذهبي. اما أدريانوس فقد كان رئيس دير القديس أغوسطينوس في كانتربري وجعل هذا الدير يزدهر كثيرًا في إنجلترا كلها. وبين هؤلاء النساك اشتهر القديس "بيدا" (Beda) بمؤلفاته اللاهوتية والتاريخية فصار الكاتب اللاهوتي الأكثر ثقافة في أوروبا الغربية.

وعند موت ثيودوروس، في سنة ٦٩٠، كانت كنيسة إنجلترا تتمتع بنظام جيد وتعيش في سلام. ودام العهد الذهبي قرنًا واحدًا لأن الفايكنج (Wikings) هاجموا الشواطئ الشمالية في سنة ٧٩٣ ودمروا الجماعات المسيحية واختفى العلم والتعليم. وقل عدد النساك كثيرًا وانقطعت العلاقات مع روما التي كانت تهمل تلك الكنائس البعيدة، مما أدى إلى تسلم الملك السلطة

العليا وأصبح الضامن الوحيد للوحدة في الكنيسة وفي المجتمع. فاختلطت الشؤون الكنسية بالشؤون المدنية.

وفي هذه الظروف استطاع النسّاك الباقون إحياء الحياة الثقافية والأدبية. ولم تظهر هذه النهضة إلاّ في سنة ٩٤٠ حيث بدأ دير جلاستونبري (Glastonbury)، في جنوب إنجلترا، نهضة جديدة تحت تأثير دير كلوني (Cluny)، في فرنسا، فازدهرت مرة أخرى الحياة النسكية ولمدة خمسين سنة كان الأساقفة كلهم من النساك. وفي بداية القرن الحادي عشر كانت كنيسة إنجلترا تعيش حياتها العادية واستأنفت علاقتها مع روما حيث كانت الحكومة نفسها تنظم جمع الصدقات وإرسالها إلى البابا كإثبات على طاعة إنجلترا الأمينة.

٣. الكنيسة الألمانية (من ٧٥٤ إلى ١٠٣٩)

٣-١. نبذة عن التاريخ المدني

لم يؤثر انحلال الإمبراطورية الكارولينجية على ألمانيا كثيرًا لأنها بقيت متحدة لمقاومة غزوات المجر والصقالبة. وهذه الانتصارات قد جعلت سلطة الملك قوية أمام الإقطاعيين العلمانيين وأمام الإيكليروس. وبرز خصوصًا الملك أُتون (Otton) الأول (٩٣٦ – ٩٧٣) الذي وجه سياساته على النحو التالي:

- في الداخل: انتصر على إمارات ألمانيا الأربع التي كانت قد تمردت عليه ووحدها تحت سلطته وحقق أهدافًا

سياسية أخرى كثيرة من خلال تعيين أقربائه في المناصب الكبيرة. وطبق هذه الطريقة في الكنيسة أيضًا، إذ عين إخوته مطارنة على إبراشيات مهمة، واستغل تأثيره على الإيكليروس لمراقبة الإقطاعية العلمانية لتركيز كل السلطات في شخص الملك.

- في الخارج: بعد تعزيز سلطته في الداخل، استطاع مواجهة غزوات المجر والصقالبة وفتح الطريق لتوسيع مملكته نحو ألمانيا الشرقية، حيث أسس إبراشيات جديدة. فأصبح أتون الأول ليس فقط مدافعًا عن الشعب الألمانية من خطر الهجمات الآتية من الخارج بل أيضًا مدافعًا عن المسيحية في العالم الصقلبي، وأيضًا صار له تأثير كبير على المناطق في إيطاليا وفرنسا التي كانت خاضعة للإمبراطورية الكارولينجية.

وفي سنة ٩٦١ أتى إلى إيطاليا لحماية البابا وكلله البابا إمبراطورًا يوم ٢ فبراير٩٦٢: ثبت الإمبراطور للبابا يوحنا الثاني عشر تملك المناطق المعطاة من بيبينو وكارلوس الكبير ونال مقابل ذلك إشراف الإمبراطور على اختيار البابا. وهكذا ظهرت، في سنة ٩٦٢، "الإمبراطورية الرومانية المقدسة" التي ستدوم حتى سنة ١٨٠٦. ولكن الاتفاق بين البابا والإمبراطور لم يستمر طويلاً لأن البابا لاحظ سريعًا أنه فقد استقلاله، وبحجة أن الإمبراطور لم يرد له بعض المناطق التي كان وعده بها اتصل بأعدائه. وأتى أتون إلى إيطاليا في سنة ٩٦٤ وانتصر على من قام ضده وعقد مجمعًا طالب فيه بإقالة الباب يوحنا الثاني عشر وانتخاب ليون الثامن بدلاً منه.

ويبدأ البابا ليون الثامن سلسلة البابوات المنتخبين بتأييد الإمبراطور ولكن سلسلة أخرى تبدأ وهي عدد البابوات المنتخبين من الشعب الروماني، فسيكون هناك بابوات "إمبراليون" وبابوات "رومان". ولتقوية سلطته، استغل أُتون الأول طريقة أخرى أيضًا. كان كارلوس الكبير قد عين بعض المطارنة ورؤساء الأديرة كمستشارين له، لكن أُتون الأول جاوز هذا الحد وأعطى المطارنة ورؤساء الأديرة السلطة الإدارية على المناطق التي كانت تقع تحت سلطتهم الروحية. وهكذا صار الأساقفة تحت أمر الإمبراطور كلية. وانتشرت المتاجرة بالرتبة الأسقفية وأصبح نيل رضى الإمبراطور هو المقياس الأساسي في حياة الإيكليروس وخصوصًا في حياة المطارنة.

ومرة أخرى تدخل النساك لإنقاذ الكنيسة، فبدأت، من القرن العاشر، مقاومة قوية لهذا الواقع من نساك كلوني (في فرنسا). وخلف أُتون الأول أُتون الثاني (٩٧٣ – ٩٨٣)، ثم أُتون الثالث (٩٨٣-١٠٠٢) وخلف هذا الأخير (الذي مات شابًا و لم يترك نسلاً) وارث غير مباشر، هو هنري الثاني وستنتهي مع وفاته (١٠٢٤) السلالة الساكسونية. وسيخلفه كونراد (Conrad) الثاني (١٠٢٤ – ١٠٣٩)، ثم هنري الثالث (١٠٣٩ – ١٠٥٦)، ابن كونراد.

٣-٢. كنيسة ألمانيا في هذه الفترة

لتنظيم كنيسة ألمانيا، لجأ بونيفاسيوس خصوصًا إلى تأسيس الأديرة. وكان الدير الألماني ليس فقط مركز تربية وثقافة

وفن وتدريب مهني بل أيضًا مقرًا لأسقف الإبراشية الذي كان ناسكًا في الدير نفسه. فلعب الدير ليس فقط دورًا روحيًا وثقافيًا في المنطقة وإنما دورًا إداريًا أيضًا. وكان هذا الوضع لا بأس به في الزمن الأول لكنه سبب مشاكل عندما بدأ الإمبراطور يختار المطارنة، فلم تكن هناك غير علاقة سطحية بين النساك والمطارنة. وأكثر من ذلك، فقد حاول المطارنة أن يسيطروا على الدير وعلى أملاكه وإيراداته.

وهناك نظام انتشر في القرن التاسع في ألمانيا كلها تقريبًا وهو نظام الرعايا. فبينما كانت الرعية في الإمبراطورية الرومانية مكونة من المؤمنين والإيكليروس والمطران وهؤلاء جميعًا كانوا يؤلفون جسدًا واحدًا فكانت لكل واحد منهم حقوق مثل الاشتراك في اختيار المطران، كان المؤمنون في الرعية الألمانية، عادة، تحت سلطة صاحب المنطقة ولم يكن لهم أي حق سوى واجب دفع العشر. فبدأت الكنيسة تنقسم إلى أقسام متمايزة: الإيكليروس والعلمانيون، الإيكليروس الغني والإيكليروس الفقير. ونجح أتون الأول في فرض سلطته على الجميع (أمراء وإيكليروس وشعب) وقد نسب إلى نفسه الحق في تعيين كل المطارنة، فقد اعتبر أن الإبراشيات كإقطاعات عليها إكرام الإمبراطور وطاعته وأصبح المطارنة أمراء في خدمة المملكة، مع المحافظة على سلطة روما عليها.

وتغير الوضع إلى أسوأ مع حكم كونراد (١٠٢٤ – ١٠٣٩) الذي لم يسمح لأحد بالرجوع إلى روما بدون موافقة منه وترأس المجامع وحدد الأعياد والأزمنة للصوم واتخذ لنفسه

لقب "نائب المسيح". وأعطت ألمانيا في هـــذه الفـترة صـورة للاتجاهات الفكرية والعمل السياسي التي أثرت كثيرًا على الممالك الأوروبية اللاحقة. وكانت كنيسة ألمانيا امتدادًا إلى حد ما للتقليد الكارولينجي لكنها أقامت أيضًا عادات جديدة ستنتشر في أوروبا كلها، مثل تعيين المطارنة من الإمبراطور واختيارهم مـن بـين الكهنة المتعاملين معه وانعقاد المجامع بـأمر الإمـبراطور ومنـع الاتصال بروما.

٤. الكنيسة في إسبانيا (٧١١ - ٨٠٠)

لقد قتل أناس كثيرون أثناء الغزو الإسلامي علىإسـبانيا (٧١١ - ٧١٣) وآخرون صاروا عبيدًا أو اعتنقوا الإسلام. غـير ان عددًا من الذين خضعوا للحكام الجدد احتفظـوا بأراضيـهم وواصلوا ممارسة دينهم وهم "الموزعرب" الذين سيؤثرون كثـيرًا على التاريخ اللاحق للبلاد. وفي المناطق الشمالية-الغربية رفـض القوم الدين الجديد وشيئًا فشيئًا ازدادوا عددًا وقوة ومـن ثـمَّ بدأت معهم حركة إعادة إسبانيا إلى دينها المسيحي.

وبالرغم من هذه الظروف السياسية والاجتماعية الصعبـة ظهرت هناك في بداية القرن الثامن بدعة "التبنية" التي تقـول إن الإنسان يسوع ابن مريم- والذي كانت له طبيعة مثل طبيعتنـا- تبناه ابن الله- الكلمة- من اللحظة الأولى لتواجده، أي قبـل أن يكون شخصًا كاملاً. وفي دراسة هذه القضية اشتهر مستشـارو كارلوس الكبير، وخاصة الكوينوس وهم لاهوتيو الإمـبراطور،

الذين أثبتوا أنهم خبراء في اللاهوت بصورة عامة وفي علم الآباء بصورة خاصة فكانوا المثقفين المؤهلين الأوائل القادمين من شعب غير روماني. وانتهت البدعة مع انعقاد مجمع في روما في سنة ٧٩٨. وبعد ذلك دخلت الكنيسة الإسبانية في فترة غامضة دامت قرونًا.

٥. مصدر السلطة

٥-١. لقد كانت الكنيسة، حتى اهتداء قسطنطينوس، أقلية في المجتمع، وحسب تعاليم بولس (روما ١٣/١-٧) وبطرس (١ بط ٢/١٣-١٧)كان المسيحيون يطيعون السلطات الحاكمة وفي الوقت نفسه كانوا مستقلين عنها في حياتهم الشخصية والجماعية. غير أن الوضع اختلف عندما انتمى الإمبراطور إلى الإيمان المسيحي فلم تستطع الكنيسة تجاهل علاقاتها بالدولة. فمنذ اهتداء قسطنطينوس كان على المسؤولين عن الكنيسة حل قضية العلاقة بين الحاكم المسيحي والسلطة الكنسية.

٥-٢. وأثبت التاريخ أن النتائج البعيدة لاهتداء قسطنطينوس كانت سلبية مثلما كانت النتائج المباشرة إيجابية، لأن الإمبراطور اعتبر واجبه الأول مساعدة الكنيسة في تحقيق رسالتها في العالم. واختفى سريعًا الفرق بين "مساعدة الكنيسة" و"القيام بإدارتها". ولمدة طويلة كانت السلطة للإمبراطور فقط في دعوة الكنيسة الجامعة إلى انعقاد المجامع. وصحيح أن الإمبراطور يوستينيانوس (٥٢٧-٥٦٥) قد أعطى نظريًا السيطرة

الروحية العليا لأسقف روما، لكنه في الواقع اعتبر نفسه المختار من الله والحاكم الوحيد للكنيسة في كل إمبراطوريته.

ولم تكن القضية قد انحلت أثناء حبرية غريغوريوس الكبير الذي رأى الإمبراطور كسيد له، ولمدة أكثر من قرن بعد وفاة غريغوريوس (٦٠٤) اعترف البابوات بأنه كان على الإمبراطور ممارسة سلطته المدنية عليهم أيضًا وعلى المناطق التي كانوا يديرونها باسمه. فكانوا يخبرونه عن اختيار البابا الجديد وكانوا يطلبون موافقته وكانوا يؤرخون وثائقهم حسب سنة صعوده إلى العرش وكانوا يعلنون وفاءهم الأمين.

٥-٣. وحسب كارلوس الكبير، فدور الكهنة يقتصر على الصلاة لأجل الشعب ومنحهم الأسرار، بينما دوره هو فقد عبر عنه كالآتي: "إنه من واجبي أن أدافع عن كنيسة المسيح المقدسة من غزوات الوثنيين وأن أعزز إيمانها الكاثوليكي. ومن واجبكم أن تساندونا برفع أيديكم نحو الله، مثل موسى، حتى يستطيع الشعب المسيحي أن ينتصر بصلواتكم على أعدائه". وقبل أربع سنين من تتويجه إمبراطورا (في سنة ٨٠٠) أعلن أنه "سيد وأب وملك وكاهن ورئيس كل المسيحيين". فكان كارلوس الكبير موسى الجديد وداود الجديد، فهو الكاهن والملك. وأكد التتويج أن كارلوس الكبير كان، بالنسبة للبابا، المدافع الرسمي عن الكرسي الرسولي، وبالنسبة له أن سلطته كانت على كل المسيحيين في الغرب. ولم يوافق البابوات على هذا الوضع، كما أنهم لم يوافقوا على الوضع الشبيه ليوستينيانوس، لكنهم

قبلوه في صمت، أو تجاهلوه، منتظرين الوقت المناسب لتغيير جذري.

وأتى من حين إلى آخر بابوات عرفوا أخذ حقوقهم، مثل البابا نيقولا الأول (٨٥٨ – ٨٦٧) الذي تدخل في المملكة الكارولينجية ومارس سلطته المباشرة على المطارنة وألغى اختيارات وقرارات وأصغى إلى من رجع إليه ووصل حتى إلى حرم الإمبراطور لوتاريو (ابن لودوفيك التقي) الذي طلق امرأته. فوضح البابا نيقولا الأول أن كل المسيحيين يقعون تحت سلطة البابا وأن البابا هو رئيس كل الأساقفة وأنه حر في إدارة الإبراشيات وأنه الوسيط بين المسيح والشعب وأن سلطات الأباطرة والمطارنة تنحدر منه فقط.

ولسوء الحظ لن نجد هذا الموقف القوي لمدة قرنين، فأتت بعد نيقولا الأول سلسلة بابوات ضعفاء ومستسلمين للأحوال السياسية المختلفة.

٥–٤. ولا يوجد ملك ألماني (باستثناء هنري الثاني) اعتبر نفسه أبًا ورئيسًا للكنيسة الغربية، لأن الملوك الألمان حكموا المملكة الألمانية فقط وكانوا يعتبرون المناطق البابوية جزءاً منها. وصحيح أنهم في الواقع طالبوا بحق إدارة المطارنة والبابوية لكنهم أرادوا ذلك لأن هؤلاء الرؤساء الكنسيين كانوا داخل الإمبراطورية. فالإمبراطور الألماني لم يعتبر نفسه مختارا من الله ليكون رئيسًا وقائدًا للكنيسة، ولأن كارلوس الكبير كان مؤمنًا فقد كان يعمل لمصلحة الكنيسة، وكان الأباطرة الألمان يهتمون

خصوصًا بالمصالح المادية لمملكتهم وكانوا يعتبرون الدويلة البابوية جزءًا منها فقط. فلم تكن المسيحية بالنسبة لهم في المقام الأول بل الإمبراطورية، فلم يكن دورهم إدارة الكنيسة بل إدارة الإمبراطورية وكانوا يتدخلون في شؤون الكنيسة إذا كان ذلك في مصلحة الإمبراطورية.

الفصل التاسع عشر

الكنيسة البيزنطية

مقدمة

عاشت الكنيسة البيزنطية في القرون السابع والثامن والتاسع ظروفا سياسية واجتماعية ودينية أثرت في نظامها السابق. ونذكر من ضمن الأسباب السياسية: الغزوات الفارسية والإسلامية، ونذكر من ضمن القضايا الدينية: أزمة تحطيم الأيقونات وأزمة العلاقات بين روما والقسطنطينية، مما أدى إلى انفصال علني بين الكنيستين.

١. المسيحية الشرقية في القرن السابع

رسم هذا القرن وجه الكنيسة البيزنطية الذي سيدوم طوال القرون الوسطى. فهناك غزوات الفرس الذين استولوا على مصر (٦١١-٦١٩) وانتصروا في مناطق كثيرة في سوريا وأرمينيا وفلسطين وآسيا الصغرى، وهناك أيضا غزوات الصقالبة الذين استولوا على المناطق الشرقية للإمبراطورية، وأخذت ذخيرة الصليب المقدس إلى بلاد الفرس؛ فتشاءم البيزنطيون كثيرا ورأوا في ذلك نهاية الإمبراطورية الرومانية الشرقية. غير أن الشعب البيزنطي جمع كل قواه تحت قيادة الإمبراطور هيراكليوس (Heraclios، ٦١٠-٦٤١) وقاوم الفرس واسترجع أقاليم آسيا

وأفريقيا (٦٢٢-٦٢٨) وأرجع الصليب المقدس الذي أدخل إلى القدس بطريقة احتفالية. لكن هذه الانتصارات كانت مؤقتة إذ أنه بعد أربعين سنة من انهزام الفرس جاءت جيوش العرب واستولت على سوريا والعراق وأرمينيا ومصر وأصبحت بطريركيات الإسكندرية والقدس وأنطاكيا تحت الحكم الإسلامي نهائيا. وطبقا لما ذكره بعض المؤرخين في ذلك الوقت، سهل الأقباط (وهم مونوفيزيون، أي يعتقدون أن في المسيح طبيعة واحدة) دخول الإسلام في مصر لأنهم رأوا في العرب محرريهم من ضغط القسطنطينية التي كانت تريد فرض قوانين مجمع خلقيدونيا عليهم (٤٥١).

وكان هيراكليوس مقتنعا بأن وحدة الإيمان لابد منها لمقاومة الغزوات. فعمل كثيرا لتوحيد شعوب الإمبراطورية حول قرارات خلقيدونيا وقال إن المسيح له طبيعتان وإرادة واحدة تعمل فيه. وعارض مجمع لاتيرانوس (Laterano) المنعقد في سنة ٦٤٩ هذا الاعتقاد فانتقم الإمبراطور قسطنطيوسن الثاني من البابا مارتينوس الأول ونفاه في كريميا (Crimea، جنوب بلغاريا حاليا) حيث مات، وسجن أيضا أكبر لاهوتي في ذلك الوقت، الناسك ماكسيموس المعترف، وعذبه ونفاه في جيورجيا حيث مات. وخلال هذه السنين كرر العرب هجماتهم على القسطنطينية وانتصر عليهم الإمبراطور قسطنطينوس الرابع وأنقذ الإمبراطورية الرومانية الشرقية من سقوطها في أيدي المسلمين. وبموافقة البابا، عقد الإمبراطور قسطنطينوس الرابع مجمعا مسكونيا في القسطنطينية (٦٨٠-٦٨١) حيث أدان اعتقاد الإرادة الواحدة في

المسيح وأعلن أن "للمسيح إرادتين وليس هناك اختلاط بينهما والإرادة البشرية خاضعة للإرادة الإلهية".

وفي آخر القرن السابع كانت خريطة الكنيسة البيزنطية قد تغيرت كثيرا: فقد فقدت القسطنطينية وسوريا وفلسطين ومصر التي انتمت إلى الحكم الإسلامي- كما قلنا- وسقطت مقدونيا واليونان وما كان يوغوسلافيا حتى الآن تحت غزوات الصقالبة الوثنيين. ونتج عن هذا التغيير أمران في منتهى الأهمية:

- بعد سقوط بطريركيات الإسكندرية وأنطاكيا والقدس المنافسة له أصبح أسقف مدينة القسطنطينية الرئيس المطلق للمسيحية الشرقية واتخذ لنفسه لقب "البطريرك المسكوني".

- دمرت غزوات الصقالبة المسيحية في المناطق المذكورة أعلاه والتي رجعت إلى الوثنية فقام هناك "سور وثني" بين الشرق والغرب وزاد البعد كثيرا بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية، وانقطع سريعا اهتمام المثقفين بالغرب وأهملت اللاتينية، التي كانت اللغة الرسمية في مكاتب الإمبراطورية، واستبدلت باليونانية وفي آخر القرن السابع كانت الإمبراطورية الرومانية الشرقية يونانية لغة وثقافة ودينا.

٢. قضية تحطيم الأيقونات

لمدة أكثر من مئة سنة (٧٦٢ – ٨٤٣) عاشت الكنيسة البيزنطية في العنف والاضطهادات بسبب الاحتفاظ بإكرام الأيقونات. وكان هذا الإكرام قد بدأ في القرن الخامس وانتشر في

القرن السادس وأصبح في القرن السابع عنصرا مـــــهما جـــدا في تقوى الشعب. والطابع الشعبي لهذه العبادة أثر على الناس لدرجـة أنـــهم لم يميزوا بين الأيقونات في ذاتــها والأشخاص (يســـوع المسيح، العذراء مريم، القديسين) الذين ترمز إليهم. فقام بعـــض رجال الكنيسة وقالوا إن إكرام الأيقونات هو مثل عبادة الأصنــام وزاد على ذلك الإمبراطور قسطنطينوس الخامس أسبابا لاهوتيــة حيث قال إن أيقونات يسوع المسيح هي هرطوقيـــة لأنـــــها لا تقدم طبيعتي المسيح بصورة واضحة. فرد مؤيدو إكرام الأيقونـات وقالوا إن الأيقونة تختلف جوهريا عن الشخص المرســـوم فيــها وقالوا أيضا إن التجسد هو الذي يســــمح للمســيحي بذلــك الإكرام، فإن كلمة الله قد صار بشرا وأخذ صورتنا البشرية فـــلا يمكن منع المسيحي من رسم شخص يسوع المسيح، وأضـــافوا أن إكرام الأيقونات لا يدل على عبادة الأصنام أكثر مما يدل عليــــه إكرام صور الإمبراطور. وقال القديس يوحنا الدمشـــقي، وهـــو اللاهوتي الذي كان أكثر تأثيرا في هذه الفترة، إن الأيقونات هـــي "كتب الأميين" وميز بوضوح بين "العبادة" التي لا تقـــدم إلا لله وحده و"الإكرام" لأيقونـــات يســـوع المســيح أو العـــذراء أو القديسين. وانضم الإمبراطور ليون الثالث (٧٤١ +) إلى مذهـــب محطمي الأيقونات وفي سنة ٧٢٦ أمر بتحطيم أيقونة مشــــهورة للمسيح كان الشعب يكرمها كثيرا وسبب هذا الحادث فتنـــة في العاصمة، ثم في سنة ٧٣٠ أعلن مرسوما بمنع إكرام الأيقونـــات وبتحطيم كل الأيقونات الموجودة. ورفض بطريرك القســطنطينية هذا المرسوم فأجبر على الاستقالة. ووصل هذا المذهب إلى أقصـى

عنفه مع الإمبراطور قسطنطينوس الخامس (٧٤١ – ٧٧٥)، ابن ليون الثالث، الذي عقد مجمعا في القسطنطينية في سنة ٧٥٤ وأدان مطارنة المجمع بالإجماع إكرام الأيقونات لأنه يعتبر عبادة للأصنام وأمروا بتحطيمها الكامل وحرموا مؤيدي ذلك الإكرام وخصوصا القديس يوحنا الدمشقي. فنتج عن هذا المجمع تدمير الأيقونات واضطهادات عنيفة جدا ضد النساك الذين كانوا يحافظون على الأيقونات محافظة شديدة. ووصل الإمبراطور قسطنطينوس الخامس أيضا إلى منع رفع الصلوات إلى القديسين وهاجم حتى إكرام مريم العذراء، أم الله.

وفي سنة ٧٨٧ عقد البطريرك تراسيوس (Tarasio) مجمعا في نيقيا وألغى قرارات مجمع سنة ٧٥٤ وأعلن أن تحطيم الأيقونات هو هرطوقة وأعاد إكرامها.

ولكن مع الأباطرة ليون الخامس (٨١٣ – ٨٢٠) وثيوفيلوس (٨٢٩-٨٤٢) استأنفت الاضطهادات العنيفة ضد مؤيدي إكرام الأيقونات وخصوصا ضد نساك دير "إستوديوس" (Studios) الذي كان متمسكا جدا بالعقيدة التقليدية في هذا الشأن.

وأخيرا عقدت الإمبراطورة ثيودورا مجمعا في سنة ٨٤٢ في القسطنطينية حيث استرجع إكرام الأيقونات. وتحتفل الكنيسة الأرثوذكسية بهذا المجمع حتى اليوم في الأحد الأول من زمن الصوم وتسميه "عيد الأرثوذكسية".

٣. القسطنطينية وروما في القرن السابع

لقد ابتعدت كنيستا القسطنطينية و روما الواحدة عن الأخرى أثناء قضية تحطيم الأيقونات. فكان البابوات قد أيدوا إكرام الأيقونات وأعلنوا صراحة المواقف الهرطوقية لأباطرة الشرق في هذا الشأن، وكان مؤيدو إكرام الأيقونات ينظرون إلى روما كحارسة للعقيدة الصحيحة. فنتج عن ذلك أن الأباطرة اتخذوا سياسة عدائية للكرسي الرسولي. ونحو سنة ٧٣٢ انتزع الإمبراطور ليون الثالث مناطق صقلية وكلابريا (Sicilia، Calabria، في جنوب إيطاليا) والإليريا (ما كان يوغوسلافيا) من إدارة بابا روما وضمها إلى إدارة بطريرك القسطنطينية، مما زاد بغض روما للقسطنطينية. وأكثر من ذلك فإن البيزنطيين أظهروا ضعفهم عندما انهزموا أمام اللونقوبارد الذين استولوا على رافينا (٧٥١) فهذا الضعف جعل البابا يلجأ إلى الفرانك. وأثبت الاتفاق الذي عقده البابا إسطفانوس الأول مع بيبينو في سنة ٧٥٤ والذي اكتمل مع تتويج الإمبراطور كارلوس الكبير (٨٠٠) أن البابوية أدارت ظهرها إلى الإمبراطورية البيزنطية. غير أن الكنيسة مازالت واحدة، لا يشك أحد في ذلك، وكانت المسيحية تؤلف جسدا واحدا حقا.

٤. نزاع البطريرك فوطيوس

وبعد كل اضطهاد تعود دائما القضية نفسها وهي كيف يجب أن تكون المعاملة مع من تنازلوا عن إيمانهم بسبب

الخوف. وهنا كيف يجب أن تكون المعاملة مع الذين كانوا قد انضموا إلى مذهب تحطيم الأيقونات ويريدون الآن الرجوع الى الكنيسة والمصالحة معها؟ وكان البطريرك أغناطيوس، الذي كان قد اختارته الإمبراطورة ثيودورا في سنة ٨٤٧ غير متساهل، لكن انقلابا حدث في سنة ٨٥٦ أبعد ثيودورا عن الحكم و أجبر أغناطيوس على الاستقالة. وفي سنة ٨٥٨ عين بطريرك القسطنطينية فوطيوس، وهو علماني وأستاذ في الجامعة، ومتسامح مع معارضي إكرام الأيقونات. وشهادة لوحدته مع روما كتب فوطيوس رسالة إلى بابا روما ليخبره بتعيينه بطريركا على القسطنطينية. وفي الوقت نفسه دعا الإمبراطور ميخائيل الثالث بابا روما إلى إرسال ممثليه إلى مجمع كان يريد عقده في القسطنطينية لتثبيت إدانة مذهب تحطيم الأيقونات. ودرس المجمع أيضا النزاع بين البطريرك أغناطيوس والبطريرك فوطيوس وبموافقة ممثلي البابا اعترف المجمع بأن فوطيوس هو البطريرك الشرعي. لكن البابا نيقولا الأول رفض التصديق على موقف ممثليه وأعلن أن تعيين فوطيوس غير قانوني وحرم فوطيوس وأعاد أغناطيوس الى كرسي القسطنطينية. لكن البيزنطيين تجاهلوا قرار البابا الذي عرقل العلاقات بين الكنيستين لأن الكنيسة البيزنطية اعتبرت تدخل البابا غير شرعي، فأدى ذلك إلى انفصال علني بين كنيسة روما وكنيسة القسطنطينية.

وصارت العلاقات أكثر توترا عندما قبل البابا نيقولا الأول في سنة ٨٦٥ فتح إبراشيات خاضعة لكنيسة روما في بلغاريا. وهكذا وصل تأثير روما والسياسة الفرانكية- التي كانت

مرتبطة بها البابوية في ذلك الحين- إلى أبواب مدينة القسطنطينية.

.وفي سنة ٨٦٧ أعلن فوطيوس أن إضافة "والابن" على جملة "المنبثق من الآب والابن" في قانون الايمان تعبر عن عقيدة هرطوقية. وفي السنة نفسها ترأس الإمبراطور مجمعًا في القسطنطينية وحرم البابا نيقولا الأول. غير أن الوضع تغير فجأة باغتيال الإمبراطور ميخائيل الثالث. وخلفه قاتله باسيليوس الأول الذي أجبر فوطيوس على الاستقالة وأعاد أغناطيوس (٨٦٧) واستعيدت الوحدة مع روما. وفي سنة ٨٦٩-٨٧٠ انعقد مجمع في القسطنطينية وحرم فوطيوس.

ولما مات أغناطيوس في سنة ٨٧٧ رجع فوطيوس إلى الكرسي البطريركي. وألغى المجمع المنعقد في القسطنطينية في سنة ٨٧٩-٨٨٠ قرارات المجمع السابق ضد فوطيوس واعترف به بطريركًا شرعيًا وأدان إضافة "والابن" في قانون الإيمان. ودامت العلاقات جيدة بينه وبين البابا يوحنا الثامن وعاش فوطيوس الفترة الثانية لحبريته (٨٧٧-٨٨٦) في مشاركة تامة مع روما ورجعت وحدة المسيحية مرة أخرى.

لكن فوطيوس لم يكن قد انتهى بعد من مغامراته إذ أقاله الإمبراطور ليون السادس في سنة ٨٨٦ وأكمل فوطيوس بقية حياته ككاتب لاهوتي وكمدافع عن الإيمان ولا نعرف تاريخ موته.

ويجب أن نلاحظ أن عدم التسامح بين الكنيستين الـذي ظهر خصوصًا في نزاع فوطيوس كانت سببه مشكلتان: مفـهوم السلطة البابوية وقضية إضافة "والابن" في قانون الإيمان.

٥. مفهوم السلطة البابوية

لقد ظهر أثناء قضية فوطيوس الفرق الكبير بين مفـهوم روما عن دور الكرسي الرسولي ونظرية كنيسة القسـطنطينية في هذا الشأن. فقد اعترفت الكنيسة الشرقية بأن الكرسي الرومـاني له الرئاسة على كل الكنائس واعترف بذلك أيضًـا اللاهوتيـون البيزنطيون صراحة منذ القرن الرابع، لكنـهم لم يحـددوا قـط مضمون هذه الرئاسة. فكانوا يستندون إلى أن الكرسي الرومـاني كان يقع في روما، العاصمة القديمة للإمبراطورية الرومانيـة، وإلى أن هذا الكرسي كان قد احتفظ دائمًا بـالعقيدة الأرثوذكسـية، وليس بأصله الرسولي، من القديس بطرس. وكانوا يعترفون بـأن بابا روما له أكثر من أولوية الشرف في الكنيسة كلها، لكنـهم لم يقبلوا قط الحق المطالب به من البابا نيقـولا الأول بـالتدخل في الشؤون الخاصة بكنيسة أخرى واعتبروا ذلك تدخلاً غير شـرعي، فرفضوا المفهوم الروماني بأن البابا له السلطة المطلقة على الكنيسـة جمعاء. في الواقع كان البيزنطيون ينظرون إلى الكنيسة من ناحيـة أنـها "سر" وبالتالي كل كنيسة تقدم نعم الله من غـير تفـوق الواحدة على الأخرى، وليس من ناحية أنـها كيان قانوني، فلـم

يفهم البيزنطيون المضمون الحقيقي للموقف البابوي الذي رأوه كرغبة في توسيع سلطته الشخصية.

٦. إضافة "والابن" في قانون الإيمان

لقد ظهر لأول مرة إضافة "والابن" في قانون الإيمان ("نؤمن... بالروح القدس، الرب المحيي، المنبثق من الآب والابن...) في إسبانيا في القرن السادس وكانت تلك الكنيسة تريد بهذه الإضافة أن تدافع عن إيمانها القويم ضد الآريوسية الخاصة بالفيزقوط الذين أقاموا هناك. وانتشرت هذه الصيغة من إسبانيا إلى فرنسا وألمانيا وتبناها كارلوس الكبير سريعًا. غير أن كنيسة روما لم تقبل إضافة "والابن"، حتى وإن كانت صحيحة لاهوتيًا، إلا في القرن الحادي عشر لأن البابوات رفضوا تغيير صيغة قانون الإيمان المعترف بها من كل الكنائس في مجمع نيقيا (٣٢٥).

ولم تقبل الكنيسة البيزنطية "والابن" لسببين:

- أولهما أن المجامع المسكونية كانت منعت صراحة تغيير أي شيء في صيغة قانون الإيمان.

- وثانيهما أن "والابن" كان، بالنسبة لهم، خطأً لاهوتيًا.

و في الواقع، عندما حاول اللاهوتيون تفسير سر الثالوث الأقدس والتعبير عنه بمصطلحات لاهوتية، كان الرومان والشرقيون ينظرون إليه من ناحية مختلفة فلم يكن "والابن" خطأً

لاهوتيا وإنما كان تعبيرا عن نظرية أخرى متكاملة عن سر الثالوث الأقدس.

٧. الانفصال الدائم

يجب أن نوافق على ما قاله البابا يوحنا الثالث والعشرون من أن مسؤولية الانفصال الكبير الذي حدث سنة ١٠٥٤ تقع على الكنيستين الرومانية والشرقية.

وكان السبب الأخير لهذا الحادث المر هو أن البابوية حاولت فرض عاداتها الليتورجية على الكنائس اليونانية التي في جنوب إيطاليا والتي انضمت، مع انتصارات "النورمان" على البيزنطيين، إلى كنيسة روما، وحاولت الكنيسة الشرقية فرض عاداتها الليتورجية على الكنائس اللاتينية التي في القسطنطينية. وكتب ميخائيل سيرولاريوس (Cerulario)، بطريرك القسطنطينية، رسالة قدح -فيها بطريقة عنيفة- العادات الليتورجية اللاتينية مثل استعمال الخبز الفطير في الإفخارستيا. ورد عليها البابا ليون التاسع بإرسال وفد إلى القسطنطينية برئاسة الكاردينال هومبرت (Humbert) في سنة ١٠٥٤. ولسوء الحظ اتخذ الممثل البابوي أسلوبا متكبرا وشرسا فوجد عداوة من بطريرك القسطنطينية الذي استعمل أيضا أسلوبا عنيفا. وفي يوم ١٦ يوليو ١٠٥٤ ترك الوفد البابوي على مذبح كنيسة القديسة صوفيا مرسوما بتحريم البطريرك ميخائيل سيرولاريوس وأتباعه. فأمر الإمبراطور

قسطنطينوس التاسع بإحراق المرسوم وعقد مجمعا في القسطنطينية وحرم الكاردينال هومبرت وأتباعه.

ولم يعط أحد أهمية في الحال لهذه الأحداث، لكن تاريخ ١٠٥٤ سيبقى تاريخ الانفصال النهائي بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية لأنه لم تتم المصالحة مرة ثانية بينهما حتى الآن. فحاول مجمع ليون (في فرنسا، ١٢٧٤) ومجمع فلورنسا

(Firenze، في إيطاليا، ١٤٣٨) توحيد المسيحية المنقسمة بين الشرق والغرب، لكنهما لم ينجحا. ولا شك أن البيان المشترك بين البابا بولس السادس والبطريرك أثيناغوراس (٧ ديسمبر ١٩٦٥)، حيث تأسفا على تبادل الشتائم في سنة ١٠٥٤، هو خطوة مهمة في طريق المصالحة الطويل.

الفصل العشرون

الإصلاح الغريغوري

مقدمة

عاصرت الكنيسة في هذه الفترة تغيرا جذريا في داخلها وفي علاقاتها بالسلطة المدنية. ورأينا فيما سبق أنه كان هناك اختلاط كبير بين رسالة الكنيسة في العالم والمصالح المادية للأباطرة أو للأغنياء الكبار، حيث سيقوم –خاصة– البابا غريغوريوس السابع بدور إصلاحي في داخل الكنيسة (الإكليروس) وفي خارجها (التحرير من سيطرة الأباطرة عليها).

١. لماذا الإصلاح؟

قبل أن ندخل في هذا الموضوع لا بد من طرح بعض الأسئلة: لماذا في القرن الحادي عشر كانت الكنيسة بحاجة ماسة الى الإصلاح؟ وكيف بدأ الإصلاح ؟ ومن هم المصلحون؟ وما هي العيوب التي كانت تتطلب الإصلاح؟

– نستطيع القول إن المصلحين الأوائل هم النساك وخصوصا نساك دير "كلوني" (في فرنسا)، الذين أثروا على أديرة أخرى كثيرة في فرنسا وألمانيا وإيطاليا. فأكد النساك الانقطاع عن العالم والفقر والعزوبة وكانت الأديرة مراكز حياة دينية ودراسات عميقة وأتى منها مثقفون وقديسون وبابوات. ونجحت

النهضة "الكلونية" بفضل روحانيتها القوية ونظامها الخاص. فلكي ينضم دير ما إلى التجديد "الكلوني" كان يجب عليه أن ينفصل عن أي ارتباط بالأسقف المحلي وأن يخضع لرئيس دير كلوني الذي كان الرئيس الوحيد على الأديرة ولم يكن أي شخص فوقه إلا البابا. وهكذا بقي النساك منقطعين عن المصالح المادية التي كانت الهدف الأهم لبعض الأساقفة في ذلك الوقت، وهكذا استطاع النساك تقديم رسالة الإنجيل بطهارة وبقوة مقنعة وبالتالي صاروا المصلحين الأوائل في الكنيسة.

- وكان هناك بعض الأساقفة أغنياء ويشغلون أغلب وقتهم في الشؤون الإدارية وفي خدمة سيدهم المدني الذي كان يعطيهم الكرسي الأسقفي كما يحلو له.

كما كان بعض الإكليروس أيضا، أغنياء وفقراء، يعيشون في خدمة أصحاب الأموال والأراضي، كبارا كانوا أو صغارا، فلم تكن هناك حياة خاصة بهم. والبابا ذاته تأثر بسلطة الإمبراطور وأصبح أحيانا خادما له.

وانتشر في هذه الظروف عيبان: "السيمونية" (وهي بيع أو شراء الأشياء الروحية والمتاجرة بالرتب الكهنوتية) و"النيقولاوية" (وهي رفض عزوبة الكهنة).

فبدأت الكنيسة تعالج هذا الوضع بفرض نظام منحدر من سلطة بابوية حرة وقوية. في الواقع لم يكن العيبان جديدين ولا العلاج، فالجديد هنا الرغبة العامة في مواجهة القضية من كل نواحيها وإرادة واضحة عند البابوات لتحقيق الإصلاح. وانتشر

الرأي بين الراغبين في الإصلاح بأن كل رتبة وصل إليها مسيحي من خلال دفع مال كانت باطلة، وكانت باطلة أيضا الأسرار الممنوحة من هؤلاء الكهنة أو الأساقفة. أما بالنسبة لعزوبة الكهنة فهي كانت مطلوبة في التقليد القديم للكنيسة الغربية لكنها لم تكن محددة بعد قانونيا فكان الزواج منتشرا إلى حد ما في القرن العاشر والحادي عشر.

٢. المصلحون

- وهناك مصلحون كثيرون كتبوا أعمالا كثيرة وبذلوا جهدا عظيما لتجديد الكنيسة ونذكر منهم القديس بيير داميانی (Pier Damiani)، أسقف أوستيا (Ostia)، بالقرب من روما.

- لكن الإصلاح انتقل من محاولات فردية إلى عمل مقصود مباشرة من البابا في سنة ١٠٤٩ مع البابا ليون التاسع (١٠٤٩ – ١٠٥٤)، الذي عقد مجمعا في روما حيث أكد القرارات القديمة ضد السيمونية وقال إن الرسامات الممنوحة من السيمونية كانت باطلة ولابد من إعادة الرسامة نفسها. وكان هذا البابا أول من مارس السلطة الحبرية جهرا وبقوة.

- وأخذ الإصلاح تطورا حاسما مع البابا نيقولا الثاني (١٠٥٩-١٠٦١)، الذي عقد مجمعا في سنة ١٠٥٩، بمساعدة الناسك الديبراندو (Ildebrando)، واتخذ موقفا من تدخل الإمبراطور في انتخاب البابا وقرر أنه من الآن فصاعدا سينتخب البابا فقط: الكرادلة المسؤولون عن الإبراشيات المجاورة لروما والمسؤولون عن

الكنائس التي في روما. أما الإكليروس والشعب فيكون عليهم إبراز موافقتهم بعد الانتخاب. وأما الإمبراطور فتكفي... التحية له! ومنع المؤمنين من حضور القداس المقدم من كهنة منحرفين.

– وانتخب بابا في سنة ١٠٧٣ الكاردينال الديبراندو الذي أخذ اسم "غريغوريوس السابع" والذي ارتبط اسمه بالإصلاح فسمي بـ "الإصلاح الغريغوري".

٣. البابا غريغوريوس السابع (١٠٧٣ – ١٠٨٥)

وعقد البابا غريغوريوس مجمعا في سنة ١٠٧٥ حيث كرر قرارات خلفائه ضد السيمونية والنيقولاوية وجدد منع حضور القداس المقدم من كاهن غير مطيع لتقليد الكنيسة، وجدد أيضا قرار سنة ١٠٥٩ الذي كان قد منع استلام دير أو إبراشية من علماني. وهذا كله لم يكن جديدا فقد كان هناك بابوات آخرون قد اتخذوا القرارات نفسها. ولكن الجديد هنا أن البابا واجه بشدة عادة كانت بدأت منذ ثلاثة قرون ، ووفقا لهذه العادة كان الأباطرة والملوك والأغنياء الإقطاعيون يوزعون من غير أي اعتراض أديرة وإبراشيات على حسب إرادتهم. والجديد أيضا أن البابا تجاهل تماما ذكر الإمبراطور فألغى بهذا ضرورة موافقته على أي تعيين كنسي. وكان مقتنعا بأن سلطة الكنيسة ومسؤوليتها تأتي من البابا فقط، و قد طبق هذا المبدأ بطرق كثيرة مثل الإدارة المباشرة من روما للأساقفة المحليين. وإذا كان البابا غريغوريوس متشددا في مواقفه وحقوقه، فإنه عاش أثناء

إمبراطورية هنري الرابع الذي كان ذا شخصية غير ثابتة، فكـان لابد من وقوع نزاع بينهما.

وبالرغم من قرارات البابا فقد استمر الإمبراطور هـنري الرابع في توزيع كنائس وأديرة حسب مشيئته فاعترض البابا على هذا التصرف. ورد الإمبراطور بعقد اجتماع في ورمـس (Worms، ١٠٧٦) مع الأساقفة الألمان وأقالوا البابـا وأسمـوه "الناسـك المزيف"، ومن ناحيته كتب الإمبراطور رسالة إلى البابا قرر فيـها أنه المختار من الله ليكون نائب المسيح على الأرض. فأجاب البابا غريغوريوس بإيقاف سلطة هنري الإمبريالية وبتحرير شعبه مـن الطاعة والخضوع له وأخيرا حرمه، وهذا القرار الأخير لم تكن لـه سابقة في تاريخ البابوية. فانتهز الفرصة الأمراء الألمان وتمردوا على الإمبراطور هنري، الذي اضطر إلى طلب المصالحة مع البابا حـتى لا تنقسم الإمبراطورية. وذهب البابا إلى "توسكانا" (Toscana)، ما بين إيطاليا الشمالية وإيطاليا الوسطى، وانتظر الإمبراطور هـنري الرابع في قلعة "كانوسا" (Canossa)، ملـك الأمـيرة المشـهورة ماتيلدي دي كانوسا (Matilde di Canossa). ووصل الإمبراطور لكن البابا تركه خارج القلعة ثلاثة أيام، وكان الجو قارسا، ثم اسـتقبله وحله من الحرم. فاعتبر الأمراء الألمان هذا الموقف البابوي خيانـة لهم وتجاهلوا هنري واختاروا رودولف إمبراطورا. وتلت ذلـك فترة ثلاث سنوات من الفوضى فقـد فيـها البابـا الاتصـال بالأحداث فهدد هنري بغزو إيطاليا وبخطف البابـا. ورد البابـا غريغوريوس بإعلان تحريم الإمبراطور مـرة أخـرى (٧ مـارس ١٠٨٠) وأقاله من عرشه واعترف برودولف كإمبراطور. فاجتمع

المطارنة الألمان وفي ٢٥ يونيو ١٠٨٠ وأقالوا البابا غريغوريوس واختاروا كليمنت (Clement) الثالث. وطبعًا لم يكن هذا الاختيار قانونيًا. ومات رودولف في ١٥ سبتمبر ١٠٨٠ فأصبح هنري حرًا في اتجاهه نحو إيطاليا وروما. واضطر البابا غريغوريوس السابع إلى الالتجاء إلى قصر سانتانجيلو (Castel Sant'Angelo) وأعاد هنري كليمنت الثالث إلى كرسي روما (٢٤ مارس ١٠٨٤) وكلل كليمنت هنري إمبراطورا (٣١ مايو ١٠٨٤). وأخيرًا لجأ البابا غريغوريوس إلى ساليرنو (Salerno) حيث مات في ٢٥ مايو ١٠٨٥ قائلا: "أحببت العدل وأبغضت الظلم فلذلك أموت في المنفى". ولم يكن أحد قبله كان قد طالب بحقه في إقالة ملك أو في تحرير الشعب من الطاعة له، فأعطى قوة جديدة للكنيسة وضمن استقلالها تجاه السلطة المدنية.

- لقد حققت حبرية ليون التاسع ونيقولا الثاني وغريغوريوس السابع إصلاحًا كبيرًا في الكنيسة وأصبح كثير من المطارنة والكرادلة مقتنعين بما عمله هؤلاء البابوات، لكن هذا الإصلاح المنحدر من السلطة العليا صار ممكنًا لأن النساك قاموا في الوقت نفسه وقبل البابوات بإصلاح قاعدة الشعب.

٤ . البابا أوربانوس الثاني (١٠٨٨ – ١٠٩٩)

كان ناسكًا في "كلوني" ودعي ليعمل في مكاتب البابا فعين أسقفًا على أوستيا(Ostia، بالقرب من روما) ثم اختير بابا في سنة ١٠٨٨. وكرر أوربانوس (Urbano) إدانة السيمونية والنيقولاوية وترشيح المطارنة من العلمانيين. واستطاع في سنة

١٠٨٩ أن يرجع إلى روما، حيث كان يوجد البابا غير القانوني كليمنت الثالث، لكنه اضطر إلى الانسحاب من المدينة في الفترة من ١٠٩٠ الى ١٠٩٢ عندما غزا هنري الرابع إيطاليا ليعيد كليمنت إلى الكرسي البابوي. ولما رجع هنري إلى بلده (١٠٩٢) انسحب كليمنت من روما فعاد أوربانوس إلى منصبه البابوي. وأعلن في مجمع انعقد في سنة ١٠٩٥ أن الرتب الكنسية الممنوحة من البابا غير القانوني كليمنت الثالث كانت باطلة وأدان مرة أخرى السيمونية والنيقولاوية.

وفي يوليو ١٠٩٥ سافر البابا أوربانوس إلى فرنسا لتأييد الإصلاح هناك وظهرت إثر ذلك السفر نتائج غير متوقعة إذ ألقى خطابًا يوم ٢٧ نوفمبر، وهو في فرنسا، وشن حربًا صليبية لاستعادة مدينة القدس. ويظهر أن الهدف الحقيقي للبابا كان بسيطًا لكن الشعب ازداد حماسة حتى الهيستيريا فحدث أن البابا في الحقيقة، بدون أن يحسب التأثير البعيد، شجع حربًا دامت قرنين!

وعقد مجمعًا في باري (Bari)، جنوب إيطاليا، في سنة ١٠٩٨ حيث أعلن أن الروح القدس ينبثق من الآب والابن. ومات في سنة ١٠٩٩ بعد حبرية لم تحقق أشياء كثيرة في أول الأمر لكنها أصبحت فيما بعد من أهم حبريات القرون الوسطى لأنه لأول مرة كان البابا قد وضع نفسه رئيسًا للمسيحية.

– ومع البابا كالليستوس الثاني (١١١٩ – ١١٢٤) والإمبراطور هنري الخامس

(١١٠٦ – ١١٢٥)، الذي خلف هنري الرابع، توصلت الكنيسة إلى اتفاق صريح مع الإمبراطور بخصوص تعيين المطارنة. فاتفق الاثنان في ورمس (Worms)، في سنة ١١٢٢، على التمييز بين تعيين المطارنة وتنصيبهم الروحي والإداري الذي يعقب التعيين والذي يتم بطريقة مختلفة في ألمانيا وفي إيطاليا.

وهكذا انتهت المعركة حول تعيين وتنصيب المطارنة وحقق البابوات انتصارا مهما.

الفصل الحادي والعشرون

الكنيسة الغربية
في القرن الثاني عشر

مقدمة

عاشت كنائس أوروبا فترة مهمة جدًا في القرن الثاني عشر، وسوف نتابع تاريخ الكنائس الكبرى أثناء هذه الحقبة وسوف نرى أيضًا تلك الحركة التي قامت بها المسيحية الغربية المعروفة "بالحروب الصليبية".

١. كنيسة إنجلترا (١٠٦٦ – ١٢١٦)

بين كل الشعوب التي غزت أوروبا في القرون الوسطى كان "النورمان"- القادمون من النرويج- أكثر تأثيرًا في تاريخ الكنيسة. فاستولوا على إنجلترا (١٠٦٦) وعلى جزرها وعلى جنوب إيطاليا وجزيرة صقلية (١٠٩١). واهتدوا سريعًا إلى المسيحية وقاموا بتنظيم كنيسة إنجلترا من خلال عقد المجامع وتطبيق القانون الكنسي وتأسيس محاكم كنسية وبناء كنائس كبيرة. ولكن هذا كله قد تم من غير أخذ رأي البابا. فكان على القديس أنسيلموس، أسقف كنتربري (١٠٩٣ – ١١٠٩)، أن يوفق ما بين حقوق البابوية وأوامر الملوك النورمان. ولم يكن هذا الأمر سهلاً إذ نفاه الملك هنري الأول مرتين.

وخلف هنري الأول هنري الثاني (١١٥٤ – ١١٨٩)، الرجل العنيف وعديم الأخلاق، فحاول- طول حياته- تركيز إدارة الكنيسة في يده. وطالب بحقه في مراجعة الحرم المقرر من مطران أو من البابا نفسه وفي منع الرجوع إلى روما وفي تعيين المطارنة. وقد عين في سنة ١١٦٢ توماس بيكيت (Thomas Becket) أسقفًا على كنتربري. وبالرغم من أن توماس كان صديقًا للملك ومستشارًا له فقد قاوم بشدة تدخلات الملك في الشؤون الكنسية؛ فنفاه هنري الثاني لمدة ست سنوات ثم أعاده مرة أخرى. فرجع الأسقف توماس بيكيت إلى كرسيه بطريقة احتفالية، لكنه قتل في كاتدرائيته بعد بضعة أسابيع بأمر من الملك. وسبب الاختلاف بين الاثنين هو أن الملك كان يريد حق المراقبة على المطارنة مما كان يتنافى مع القانون الكنسي ومع مبدأ حرية الكنيسة. فمات توماس بيكيت شهيدًا لحرية السلطة الروحية.

وحدث نزاع آخر أثناء حكم الملك يوحنا (١٢١٦ +) الذي كان يريد أن يعين المطارنة بدون موافقة البابا. فتألمت الكنيسة كثيرًا أثناء حكمه إذكان على المطارنة إرضاء الملك وإطاعة البابا في آن واحد ولم يكن هذا بالسهل، فحدث توتر وخسروا أملاكًا كثيرة ونفي الكثير منهم لمدة كبيرة تاركين إبراشياتهم دون رعاة، كما أغلقت أديرة كثيرة بسبب الغرامات النقدية الباهظة المفروضة عليها من جهة وبسبب مقاومتها الشديدة لأوامر الملك من جهة أخرى، مما أدى إلى نفي نساك كنتربري.

وبعد هذه العاصفة، رجعت كنيسة إنجلترا إلى حياتها الطبيعية وتمتعت بتطور تنظيمها وإدارة شؤونها وبتجديد روحي وعاشت القرن الثالث عشر في سلام.

٢. الكنيسة في فرنسا (٩٠٠ – ١١٥٠)

بعد سقوط الإمبراطورية الكارولينجية (٨٨٧) أصبحت السلطة في ألمانيا في أيدي الأباطرة والملوك، بينما أفلتت من أيدي الملوك في فرنسا، مما أدى إلى أن الأمراء المحليين كانوا هم الذين قاوموا الغزوات، و قوى ضعف السلطة المركزية نفوذ المطارنة في المجتمع وساعد على تنظيم الكنيسة ولكنه شجع النظام الإقطاعي.

وابتداءًا من نصف القرن الحادي عشر جاء الإصلاح الغريغوري وبدأ ممثلو البابا يشرفون بدقة على الكنيسة الفرنسية، وأكثر من ذلك فالبابا نفسه قد ذهب مرات كثيرة إلى فرنسا أثناء هذه الفترة لعقد مجامع ولإعلان حروب صليبية ولإرسال وفود إلى الأباطرة أو لاستقبال وفودهم. فأثر الإصلاح الغريغوري كثيرًا على كنيسة فرنسا، التي أصبحت السند الحقيقي للبابوية.

وفي العقود الأخيرة من القرن الحادي عشر بدأ العهد الذهبي للسيطرة الفرنسية على أوروبا ، فتطورت المدارس التي أسسها المطارنة ونشأت أديرة كثيرة أثرت فيما بعد تأثيرًا قويًا على أوروبا كلها، وأعطت فرنسا أيضًا قائمة طويلة من القديسين والأساقفة والواعظين والكتاب المشهورين. فبدأت تأخذ

الدور القيادي في الحياة السياسية والثقافية والدينية و هو الـــدور الذي سيدوم طويلا.

٣. ألمانيا والبابوية

أهم عنصر في تاريخ كنيسة ألمانيا في هذه الفـــترة هـــو العلاقة بين البابا والإمبراطور. فمن ناحية كان البابا بحاجـــة إلى مساعدة الإمبراطور ومن ناحية أخرى كان الإمبراطور يســـتغل هذه الفرصة ليستفيد من المشاكل الداخلية للكنيسة أو تشـــجيع الانشقاقات. فنجد أباطرة أتقياء مثل لوتاريوس، الـــذي خلـــف هنري الخامس والذي قبل نتائج اتفـــاق ورمـــس (Worms 1122) والإصلاح الغريغوري ونجد أباطرة من طراز آخر مثل فريدريـــك بارباروسا (Frederic Barbarossa:-1152—1190) وهو رجـــل سياســـي عظيم حاول الاقتداء بكارلوس الكبير وبـــأتون (Otton) لكنـــه لم يعتبر نفسه مختارا من الله لحكم الإمبراطورية وعرف كيف يمـــيز بين سلطة البابا وسلطته لكنه اعتقد أيضا أن أي قـــرار خـــاص بالحياة الاجتماعية في الإمبراطورية يجب أن يعود إليه. ومن هـــذا المنطلق أعطى لنفسه السلطة في تعيين وإقالة المطارنة، بالرغم مـــن أن ذلك كان ممنوعا في اتفاق ورمس. ووجد أمامه البابا إســـكندر الثالث (١١٥٩ — ١١٨١) الذي كـــان علامـــة في اللاهـــوت والقانون الكنسي وعرف كيف يأخذ الموقف الصحيـــح تجـــاه تحديات الإمبراطور. فعمل كثيرا في تنظيم الكنيسة وحدد علـــم القانون الكنسي وطوره وطالب بحق الكنيسة في أملاكها (الـــتي

كانت حتى الآن في أغلب الحالات ملك علمانيين أغنياء) وأعطى لنفسه فقط الحق في إعلان قداسة القديسين.

وأثناء حكم فريدريك أخذت ألمانيا وشمال إيطاليا الشكل الجيوغرافي الذي سيبقى لعدة قرون. فلم تعد اللومبارديا (شمال إيطاليا) جزءًا من الإمبراطورية ولم تعد الإمبراطورية ممثلة المسيحية الغربية. وأعطى انتشار أديرة النساك والاحترام للبابوية الذي نشره أعظم النساك مثل القديس برناردوس والقديس نوربيرتو، أعطى أسبابًا جديدة وروحية لانتماء المسيحيين إلى الكنيسة، أي لم يكن الإمبراطور هو الذي يوحد المسيحيين بل الدين ودور البابا القيادي. فتحقق الآن في كل المناطق ذلك الانفصال بين ما هو علماني وما هو ديني الذي كان يطالب به الإصلاح الغريغوري، وشعر الإكليروس بضرورة خضوعه للبابا كما كان يريد جميع المصلحين. لكن الأباطرة والملوك والعلمانيين الأغنياء لم يتركوا نهائيًا عاداتهم في اختيار المسؤولين الكنسيين وفي الاستفادة من أملاك الكنيسة. فاستمرت هذه المعركة بين الكنيسة والسلطة المدنية عبر التاريخ.

٤. إسبانيا في القرون الوسطى

لا نعرف الكثير عن إسبانيا في هذه الفترة التي عاشت فيها تحت الحكم الإسلامي. فقد كان نشر الإنجيل ممنوعًا وكذلك قبول مسيحيين جدد، لكن المسيحية لم تختف كلية وشيئًا فشيئًا

تكونت ممالك مسيحية في الشمال وقامت بـهجمات كثيرة على المسلمين واستعادت مناطق كثيرة.

وبدأ في القرن التاسع الإكرام للقديس يعقوب (٨٢٩) في كومبوستيلا(Compostella) وبنيت له كنيسة كبيرة في سنة ٨٩٩. فبدأ حجاج كثيرون يأتون من أوروبا كلها مما جعل إسبانيا في اتصال بالعالم المسيحي الأوروبي. وأتى أيضًا نساك من "كلوني" (Cluny) وأقاموا في كل الأديرة الموجودة في إسبانيا وفتحوا أديرة جديدة خاصة طول الطريق المؤدي إلى كومبوستيلا لمساعدة الحجاج. فنشاط النساك وتوافد الحجاج وهجوم الممالك الشمالية والانقسام الداخلي بين الأمراء المسلمين، كل ذلك أدى إلى عودة إسبانيا إلى المسيحية. وكان هناك دور للبابوية أيضًا خاصة في سنة ١٠٦٤ حيث اعتبرت المناطق المحررة خاضعة لها لأنها أعطيت لها من الإمبراطور قسطنطينوس. ففرض البابا تقاليد كنيسة روما واستبدل البابا إسكندر الثاني (١٠٦١ — ١٠٧٣) الليتورجيا الموزعربية بالليتورجيا الرومانية. وفي سنة ١١٤٧ كانت أغلبية البرتغال محررة من الحكم الإسلامي وكذلك أغلبية مناطق إسبانيا في نهاية القرن الثالث عشر.

وفي بداية القرن الثالث عشر أسس الإسباني دومينيك (Dominic، عبد الأحد، ١١٧٠ — ١٢٢١) رهبانية جديدة هدفها التبشير والدفاع عن الإيمان الصحيح بين الهراطقة. وستزدهر هذه الرهبانية وستؤثر كثيرًا على الكنيسة.

٥. الحروب الصليبية

٥-١. مقدمة

- لا شك أن من ينظر إلى الحروب الصليبية بعقلية اليوم يتشكك فيما حدث ويحكم عليها بقسوة. وليس المقصود هنا تبرير ما حدث، بل يجب أن نفهم الحروب الصليبية على ضوء الظروف السياسية والدينية الخاصة بذلك العصر وعلى ضوء العقلية الجارية، فلم يكن هناك تمييز بين الإيمان المسيحي والمجتمع المدني الذي كان مبنيًا عليه وكانا شيئًا واحدًا . فمن كان يعارض العقيدة كان يعارض المجتمع كله وبالتالي يعرضه للخطر، وعدو الإيمان هو عدو المجتمع، سواء أ كان من داخل الكنيسة (الهراطقة) أو من خارجها (الإسلام). أما نحن اليوم، فلا نقبل هذه الوحدة بين الدين والدولة ونقول إن كل شخص حر في اعتقاداته وعليه أن يحترم من لا يؤمن مثله. ونقول للمسيحيين إنه ليس هناك عدو لهم لأن كل إنسان، أيًا كان دينه، ابن الله وأخ للآخرين. لكن الأمر لم يكن كذلك في ذلك الحين.

وملاحظة أخرى هي أن البابا أوربانوس الثاني الذي شن الحرب الصليبية الأولى والبابوات الآخرين لم يكن قصدهم ذبح المسلمين بل إعادة الأماكن المقدسة إلى الحكم المسيحي لتسهيل حج المسيحيين إليها. فهناك فرق آخر بين اليوم والماضي: اليوم تستطيع قوانين ومنظمات دولية حماية المناطق والشعوب، أما في الماضي فكان كل شيء حسب مشيئة الملوك المحليين.

وأخيرًا، يجب أن نقول إن الصليبيين لم يحافظوا على الأهداف المحددة من البابوات بل جاوزوها وأصبحت الحروب الصليبية، بالنسبة لهم، فرصة للاغتناء عن طريق التجارة وفرصة للتأثير السياسي. ولهذا السبب فشلت الحروب الصليبية وأكثر من ذلك، حفرت بين الإسلام والمسيحية حفرة لاتزال تسبب سوء تفاهم وعدم ثقة متبادلة وعنف نعاني منه حتى اليوم، بعد سبعة قرون!

٥-٢. الحروب الصليبية

- كما ذكرنا في الفصل السابق، أعلن البابا أوربانوس الثاني، وهو في فرنسا، الحرب الصليبية الاولى في سنة ١٠٩٥. والسبب المباشر لهذا النداء هو أن إمبراطور القسطنطينية أليكسيوس الأول طلب مساعدة البابا على مقاومة الأتراك الذين استولوا على القدس (١٠٧١) وأنطاكيا (١٠٨٥). فانتشر بين الناس حماس شبه هيستيري وتقدم كثيرون (فلاحون، أغنياء، مجرمون) للذهاب إلى الشرق. واتفقوا مع الإمبراطور أليكسيوس بأن يعطوه المناطق التي سيحررونها من الأتراك. ولكن عندما هزموا الأتراك في أنطاكيا واستولوا عليها لم يسلموها للإمبراطور بل أسس فيها النورماني بويموندو (Boemondo) مملكة له. وسبب هذا الحادث عدم ثقة الإمبراطور بالصليبيين. فرفض الإمبراطور مواصلة الطريق معهم نحو القدس. وفي الوقت نفسه مات القائد العام للصليبيين المعين من البابا وهو الوحيد الذي كان بإمكانه تنظيم ذلك الجيش الغريب والمحافظة على الأهداف الحقيقية للهجوم الصليبي. فأصبح الصليبيون بدون قائد وبدون مراقبة عليهم وبدون تعاون من الإمبراطور، فذهبوا إلى القدس والفوضى

تعمهم ومستعدين لذبح كل من يعترض طريقهم. واستولوا على القدس في يوليو سنة ١٠٩٩ وعاملوا سكانها معاملة عنيفة. وأسسوا مملكة القدس اللاتينية وكانت إمارات أداسا وطرابلس وأنطاكيا تابعة لها. ولم تدم هذه المملكة كثيرا إذ في سنة ١١٨٧ انهزم الصليبيون في الناصرة وفقدوا القدس وكان المسلمون تحت قيادة صلاح الدين الأيوبي سلطان مصر.

وفي سنة ١٢٩١ انتهى وجود الصليبيين في الشرق.

– ما هي نتائج الحروب الصليبية السبع التي شنت ضد المسلمين والأتراك وحتى ضد المسيحيين البيزنطيين الأرثوذكس (في الحرب الصليبية الرابعة: ١٠٢٤)؟

إن هذه الحروب ساعدت على توحيد المسيحية الغربية وعلى تثبيت السلطة البابوية لكنها انتهت بالفشل لأنها أبعدت أكثر فأكثر المسيحيين عن المسلمين والمسيحية الغربية عن المسيحية الشرقية. والفائدة الوحيدة الناتجة عن ذلك التحرك هي في الميدان التجاري إذ وسعت إمارة البندقية (Venezia) أسواقها في الشرق وحققت تبادلا تجاريا مهما.

٥–٣. من الحروب الصليبية إلى الرسالة

وكانت للمسيحية علاقات أخرى أيضا مع من لا يشاركها في إيمانها. وتم في القرن الثاني عشر تبشير أوروبا باهتداء إسكندنافيا (شمال أوروبا) وشعوب آخرين مثل البروس. وغير فشل الحروب الصليبية أفكار بعض الشخصيات في الكنيسة: أ ليست محاولة إقناع المسلمين أفضل من محاربتهم؟

فأثناء الحرب الصليبية الخامسة قابل القديس فرنسيس الأسيزي سلطان مصر وفكر الفرنسيسكان الإسباني ريموند لول (Raymond Lulle، ١٢١٦ – ١٢٣٥) أن الاهتداء هو عمل ناتج من المحبة وبواسطة الذكاء.

– وبدأ في القرن الثالث عشر تبشير الصين بعمل الفرنسيسكان جون مونتيكورفينو (Fr. John from Montecorvino) الذي وصل إلى الصين سنة ١٢٩٣ وأقام هناك حتى موته سنة ١٣٢٨: أي مدة خمس وثلاثين سنة. واهتدى من السنة الأولى الملك (جورج) وبنى الأب جون الكنيسة الأولى في بيكينو في سنة ١٢٩٩ وبعد خمسة عشر عاما من التبشير، كان عدد المسيحيين ستة آلاف وأصبح الأب جون الأسقف الأول على بيكينو (١٣١٠) وأعطاه البابا السلطة المطلقة في اختيار سبعة كهنة آخرين ليرسمهم أساقفة.

ودامت هذه الكنيسة ما يقارب قرنا واحدا فقط إذ أن بعده التقلبات السياسية داخل البلاد والخاصة بالبلاد المسيحية الأخرى وخاصة الغرب، من حيث كان يأتي المرسلون، أدت إلى اختفاء هذه الكنيسة، ربما في نصف القرن الخامس عشر.

الفصل الثاني والعشرون

"أبواب الجحيم لن تقوى عليها"

مقدمة

نستطيع القول إن هذه الآية من إنجيل متى (١٦/١٨) قد تحققت في الحقبة التاريخية التي سندرسها الآن، لأن الكنيسة تعرضت لمشاكل في منتهى الخطورة لكنها تغلبت عليها. وإن كان هناك بعض الأخطاء فقد واصلت السير نحو هدفها في العالم.

عاشت الكنيسة في هذه الفترة أملا كبيرا في إعادة الوحدة بين شطريها الشرقي والغربي ولكن هذا الأمل قد خاب وبقي الانفصال قائما. وبالرغم من هذا الفشل، فإنها تمتعت بصحوة روحانية عميقة وبطريقة جديدة في الرسالة من خلال القديس فرنسيس الأسيزي والقديس دومينيك (عبد الأحد)، لكنها تألمت من كوارث التيارات الهرطوقية ومن كل ما نتج عن ذلك في نظامها الداخلي، كما أنها تألمت أيضا من نقل البابوية إلى أفينيون (فرنسا) ومن الانشقاق الغربي. وأعطت هذه التجارب نضوجا أكثر عمقا للكنيسة نفسها فهيأتها لمواجهة المصاعب اللاحقة.

١. الأمل في إعادة الوحدة

١–١ . من حرم الأشخاص إلى الانفصال النهائي بين الكنيستين

- بعد تبادل الحرم بين الوفد البابوي والبطريرك ميخائيل سيرولاريوس (١٠٥٤)، كانت أغلبية المسيحيين في الشرق وفي الغرب تعتقد أن الكنيسة كانت لاتزال واحدة. وفعلا كان هذا الحرم يخص الأشخاص الذين أعلنوه وليس الكنيستين بمؤمنيهما. وفي السنين الأخيرة من القرن الحادي عشر، أي بعد حادث سنة ١٠٥٤ بأربعين سنة تقريبا، في تلك الفترة كان ثيوفيلكت (Theophylacte)، أسقف بلغاريا وأبرز مثقف بيزنطي، يلوم مواطنيه بشدة لفضحهم العادات اللاتينية، وكان يقول: "لا أعتقد أن أخطاء اللاتين كثيرة أو أنها تبرر الانشقاق". وبالنسبة لقضية "والابن" قال إنها آتية من الجهل وليس من سوء النية. وفي الكنيسة الغربية كان يقول القديس برونوني (Brunone)، رئيس دير مونتكاسينو (Montecassino، في إيطاليا الوسطى) في بداية القرن الثاني عشر: "إننا نؤمن إيمانا واحدا مرتبطا ارتباطا وثيقا بالرأس الذي هو المسيح والذي هو واحد ويبقى واحدا في جسده".

وبرغم أن هذه الشهادات تدل على أن الانفصال سنة ١٠٥٤ كان منحصرا في بعض رجال الكنيستين فقط، فلم يشف هذ الجرح بل اتسع أكثر فأكثر خصوصا بسبب المشاكل اللاهوتية وبسبب عناصر أخرى دخلت في التاريخ.

- كانت الحرب الصليبية الرابعة المنظمة من البابا إنوسيتريوس الثالث قد انحرفت عن هدفها ووقعت تحت أيدي إمارة البندقية (Venezia، شمال شرق إيطاليا) التي استغلت الفرصة لتوسيع تأثيرها السياسي والاقتصادي. فهاجم الصليبيون القسطنطينية ونهبوها واستولوا عليها وأسسوا فيها الإمبراطورية

اللاتينية (١٢٠٤). ودامت هذه الإمبراطورية حتى سنة ١٢٦١ إذ قام البيزنطيون ضد المغتصبين وطردوهم من مدينتهم وأعادوا الإمبراطورية الشرقية. وتركت هذه الإمبراطورية اللاتينية، بكل ما سببته من نتائج سياسية واقتصادية وثقافية، أثرًا نفسيًا مرًا في قلب الشرقيين حتى اليوم.

وليست الظروف السياسية وحدها هي التي عمقت الانفصال بين الكنيستين فهناك أسباب لاهوتية أخرى مثل إضافة "والابن" لقانون الإيمان ومطالبة البابا بأنه وحده يملك العصمة على الحقيقة العقائدية وعلى إدارة الكنيسة جمعاء مماعزز الأسباب السياسية والاقتصادية وجعل الكنيستين تنفصل الواحدة عن الأخرى بصورة نهائية.

١-٢. مجمع ليون (١٢٧٤)

حسب الرأي البيزنطي، فالوحدة التي تمت في مجمع ليون كان دافعها فقط الظروف السياسية الخاصة بالإمبراطور ميخائيل الثامن. كان كارلو دانجو (ملك صقلية ونابولي Napoli، (جنوب إيطاليا) قد خطط للهجوم على القسطنطينية للاستيلاء عليها حتى يعيد الإمبراطورية اللاتينية مرة أخرى. فكان الإمبراطور ميخائيل يريد تدخل البابا ليدافع عنه ضد تهديدات الملك كارلو دانجو ورأى أن الوحدة مع روما كانت الوسيلة المثلى لتحقيق هدفه، فأعلن وحدة الكنيسة البيزنطية مع روما في مجمع ليون (١٢٧٤) ووقّع عليها شخصيًا، ثم شرح لمواطنيه أنه كان مدفوعًا إلى ذلك لأسباب سياسية. لكن الكنيسة البيزنطية رفضت قبول هذه

الوحدة، أي رفضت التصديق على إضافة "والابن" وعلى العقيدة الخاصة بسلطة البابا، مما أدى إلى فتنة شعبية عنيفة وإلى اضطهادات من طرف الإمبراطور خصوصًا ضد النسَّاك. ولم تدم هذه الوحدة كثيرًا، إذ أان البابا نفسه فسخها بعد سبع سنوات (١٢٨١) وقرر تأييد كارلو دانجو ضد الإمبراطور ميخائيل، الذي مات في سنة ١٢٨٢ محرومًا من بابا روما ومن بطريرك القسطنطينية.

وفيما بعد سجل التاريخ محاولات أخرى لإعادة الوحدة مع روما، لكن الشعب البيزنطي لم يقبل قط العقائد الكاثوليكية، بالرغم من خطر الأتراك العثمانيين المتصاعد الذين كانوا قد بدأوا الفتح في البلقان في منتصف القرن الرابع عشر . ولم تغير الوضع المحاولة المخلصة التي قام بها الإمبراطور يوحنا الخامس الذي أثناء سفره إلى روما في سنة ١٣٦٩ انضم إلى الكنيسة الكاثوليكية، فكانت هذه المبادرة شخصية فقط ولم تأت بفائدة على الإمبراطورية.

١-٣ . مجمع فلورنسا (١٤٣٩)

لا شك أن أكبر جهد يذكره التاريخ لتحقيق الوحدة بين الكنيستيَن البيزنطية والكاثوليكية كان في مجمع فلورنسا.

بدأ المجمع في سنة ١٤٣٨ في مدينية فيرارا (Ferrara، بين إيطاليا الوسطى وإيطاليا الشمالية) وانتهى في فلورنسا يوم ٦ يوليو ١٤٣٩ بإعلان الوحدة. وكان قد اشترك في المجمع وفد مهم من الشرق كان يرأسه الإمبراطور يوحنا الثامن وبطريرك

القسطنطينية. لكن البيزنطيين دخلوا في المفاوضات من موقع ضعف لأنهم كانوا بحاجة قصوى إلى مساعدة عسكرية من الغرب لحمايتهم من تهديد الأتراك للقسطنطينية. وطالب البابا أوجينيو (Eugenio) الرابع بقبول العقائد الكاثوليكية بلا تحفظ. وبالرغم من هذه المطالبة، فإنهم ناقشوا موضوع إضافة "والابن" وموضوع السلطة البابوية طويلاً. وظهر أن الشرقيين كلهم كانوا يريدون وحدة الكنيسة. وأخيرًا وقّع جميع الشرقيين على قرار الوحدة، ما عدا أسقف أفسس. ومن الملاحظ أنه كان هناك بطريرك القسطنطينية وأساقفة آخرون أيضًا مسؤولون عن إبراشيات مهمة جدًا، مثل أسقف نيقيا وأسقف "كيف" (Kiev) وروسيا كلها. وهكذا قِبل الشرق العقيدة الكاثوليكية حول قضية "والابن" وقضية سلطة البابا على كل الكنيسة، حتى وإن كان النص الخاص بسلطة البابا غير واضح على الإطلاق لأن آباء المجمع لم يريدوا إغضاب الشرقيين. وسمح المجمع للشرقيين أن يواصلوا استعمال الخبز الخمير (فيه خميرة) في الإفخارستيا.

وكانت هذه الوحدة أيضًا ضعيفة مثل التي تمت في مجمع ليون. ورفضت البطريركيات غير البيزنطية - الإسكندرية وأنطاكيا والقدس وروسيا وصربيا - هذا القرار، بينما في القسطنطينية كانت أقلية من الإكليروس والمثقفين والشعب يؤيدون الوحدة. وانضم إلى هذا التأييد الإمبراطوران الأخيران أيضًا، يوحنا الثامن وقسطنطينوس الحادي عشر. ولكن لم يستطع الإمبراطور مرّة أخرى فرض إرادته على الكنيسة. وشكك كثير من البيزنطيين في المسؤولين عنهم لأنهم استبدلوا نقاء الإيمان

الأرثوذكسي بفوائد سياسية مشكوك فيها. وبعد عودتهم إلى القسطنطينية أنكر كثير منهم توقيعه على وثيقة الوحدة، التي لم تعلن إلا يوم ١٢ ديسمبر ١٤٥٢ (أي بعد أكثر من ثلاث عشرة سنة من انتهاء المجمع!) في كاتدرائية القديسة صوفيا. وبعد خمسة أشهر تقريبًا من هذا الإعلان، أي في منتصف سنة ١٤٥٣، سقطت مدينة القسطنطينية في أيدي جيش محمد الثاني. وماتت الإمبراطورية الرومانية الشرقية وماتت معها أيضًا الوحدة المقررة في فلورنسا.

٢. روحانية جديدة وحياة جديدة!

– كان البابا إنوسينسيوس الثالث يشتكي من الأزمة المتصاعدة في الحياة الرعوية والروحية في أوروبا كلها ومن تدهور الحياة النسكية ومن انتشار الهرطقات بين الأغنياء. ولم يكن يتوقع أنه كانت هناك نهضة جديدة على الأبواب ستجعل من القرن الثالث عشر قرن غيرة رسولية ورعوية وإحياء لحياة ثقافية عظيمة وفيض بلا حدود من المواهب والنعم...

– وكانت قد ظهرت مجموعات من الرجال والنساء كانوا يعيشون الفقر وفي حياة جماعية وكانوا يقومون بأنشطة تبشيرية واجتماعات للصلاة، وأصبح البعض منهم هراطقة. فكلن الفقر والتبشير شيئين معروفين في ذلك الحين، لكنَّ القديس فرنسيس الأسيزي (أي من مدينة أسيزي، Assisi، في إيطاليا الوسطى) والقديس دومينيك (عبد الأحد)، لم يطورا نشاطًا

موجوداً بل خلقا روحانية جديدة أتت منها حياة جديدة للكنيسة كلها. لقد بقي دومينيك إنسان عصره بالرغم من قداسته وذكائه، بينما غيَّر فرنسيس الأسيزي مجرى التاريخ، أي فتح أبعاداً جديدة للعالم وللجماهير من المسيحيين.

- ولد فرنسيس في أسيزي سنة ١١٨١ تقريبًا لأب تاجر غني ، وترك وهو شاب الحياة الدنيوية التي كان يعيشها وسط أفراح العالم والراحة المادية وأصبح ناسكًا. وبدأ يعمل دون أن يكون له بيت أو مأوى مستقر، ثم صار مبشرًا. ودخل في نزاعات عنيفة مع أبيه الذي أخذه إلى المطران ليقنعه بخطأ اختياره، لكن فرنسيس بقي ثابتًا على قراره وانتزع عن نفسه كل الملابس التي كان يلبسها وقال إنه من ذلك الحين لن يدعو "أبًا" أباه بطرس بل "أباه الذي في السموات". وأخذ من تعليم يسوع للرسل برنامج حياته: "أعلنوا في الطريق أن قد اقترب ملكوت السموات. اشفوا المرضى، أقيموا الموتى، وأبرئوا البرص، واطردوا الشياطين. أخذتم مجانًا فمجانًا أعطوا. لا تقتنوا نقوداً من ذهب ولا من فضة ولا من نحاس في زنانيركم، ولا زاداً للطريق ولا قميصين ولا حذاء ولا عصًا، لأن العامل يستحق طعامه" (متى ١٠/٨-١٠).

وانضم إليه فوراً شباب آخرون وأراد فرنسيس أن يعيش معهم في الفقر. لكنه لم يختر الفقر في حد ذاته بل كنتيجة ضرورية لتطبيق الوصية الإنجيلية. التي كانت تدفع فرنسيس وإخوته إلى العمل لأجل ملكوت الله. وكانوا يعيشون من شغل أيديهم بدون أن يكون لهم مقر ثابت، فكانوا يبشرون بالتوبة (أي تغيير الحياة الأخلاقية) وكانوا يحبون بعضهم بعضًا حبًا أخويًا. ولم

يقصد قط فرنسيس تأسيس رهبانية لكن شخصيته وروحانيته الجذابة ونداءه إلى أسلوب من الحياة كان يتوق إليه الآلاف من الناس، هذا كله جلب إليه جماهير من إيطاليا الوسطى. وبعد قليل انتشرت رسالته إلى خارج إيطاليا فسافر إلى مصر وإلى سوريا. وعندما رجع إلى إيطاليا وجد أن إخوته كانوا في أزمة شديدة بسبب عدم وجود أي قانون يستندون عليه فكانوا معرضين بسهولة إلى الانحراف. فاضطر فرنسيس إلى كتابة قانون في سنة ١٢٢١، صدق عليه البابا أونوريوس (Onorio) الثالث في سنة ١٢٢٣، وبما أن فرنسيس لم يكن يريد أي قانون لأتباعه، فإنه ترك جماعته وواصل حياته مع مجموعة من إخوته الأولين. وعاش السنين الأخيرة من حياته في وسط آلام شنيعة بسبب السمات (جروح يسوع المصلوب) التي ظهرت في جسمه في سنة ١٢٢٤ ومات في أسيزي سنة ١٢٢٦، بعد أن كتب وصيته الأخيرة حيث منع أي حق في التملك وفي الامتيازات المختلفة وحيث عبر أيضا عن عدم ثقته بالعلم والثقافة.

والنهضة التي قام بها القديس فرنسيس كانت لها أهمية أساسية في ذلك الحين، إذ كانت أوروبا ممزقة بسبب الحروب الداخلية والنزاعات بين الكنيسة والإمبراطورية. وكما قلنا، لم يكن التبشير في حد ذاته شيئا جديدا لأنه قبل فرنسيس الأسيزي كانت هناك جماعات مكونة لهذا الهدف، فالجديد هنا أن هذه النهضة جاءت من داخل الكنيسة وبالطاعة لها. ولم يشتهر فرنسيس الأسيزي فقط لأنه أسس رهبانية جديدة بل لأنه اخترع طرقا جديدة للصلاة وللفكر المسيحي وللمحبة المسيحية. فليست

الحركة الفرنسيسكانية نظاما رهبانيا معترفا به من البابا ولا نظاما لاهوتيا خاصا بل طريقة عملية في تطبيق الإنجيل في الحياة المسيحية اليومية. لم يكن فرنسيس لاهوتيا متخرجا من الجامعات بل علمانيا وكانت مبادئه بسيطة جدا: قراءة الإنجيل والتبشير به للشعب لكي يجد المسيح وليس علم العالم. فالذي كان يسعى إليه فرنسيس الأسيزي هو الحياة حسب الإنجيل والاقتداء بالمسيح حتى الصليب، فعلى المسيحي أن يتنازل عن العالم وأن يعيش متواضعا.

- وكما ذكرنا، أسس القديس دومينيك (١١٧٠ – ١٢٢١) رهبانية لتبشير الشعب والأوساط الثقافية. وبعد قليل تواجد الفرنسيسكان والدومينيكان معا في المدن وفي الجامعات: الدومينيكان للدراسة والفرنسيسكان لدعوة النفوس إلى المسيح. فجذب الاثنان أهم الأساتذة والطلبة وكونا تيارات ثقافية وروحية أنقذت الكنيسة مرة أخرى من محنها الكثيرة.

- واشتهر من بين الفرنسيسكان القديس بونافينتورا (Bonaventura، ١٢٧٤ +) الذي يعد من الفلاسفة المسيحيين الكبار وكان قد اشترك في مجمع ليون (١٢٧٤)، واشتهر من بين الدومينيكان القديس توما الأكويني (١٢٧٤ +) الذي يعتبر أعظم لاهوتي في الكنيسة والذي أعطى أفكارا دقيقة عن الحياة والأخلاق المسيحية في مؤلفاته وحدد هدف الحياة الرهبانية والالتزامات الناتجة عنها، فأعطى هكذا تنظيما نظريا ولاهوتيا للأهداف الروحية التي كان يقدمها في الوعظ إخوته المبشرون.

٣. الهراطقة

– لم يكن في الغرب من القرن الخامس إلى القرن الحادي عشر هرطقات علنية خطيرة. بينما ظهر في منتصف القرن الحادي عشر حركات شعبية هرطوقية انتشرت سريعا وكونت جماعات ضد الكنيسة. وكان السبب الرئيس لنشأتها هو الثورة ضد تدين الأغنياء وضد سلطة الكنيسة ومظاهرها الخارجية، أي الأسرار.

– وبدأت هذه الحركات الهرطوقية الأولى في العقود الأولى من القرن الحادي عشر في مناطق كثيرة في فرنسا وشمال إيطاليا. وعارضت التجسد وبالتالي عقيدة الإفخارستيا وضرورة المعمودية وضرورة دور الأسقف في الرسامات الكهنوتية.

– ونشأ تيار آخر في إيطاليا وفي جنوب فرنسا في النصف الأول من القرن الثاني عشر كان يطالب الكهنة بالعودة إلى الفقر الذي كانت تعيشه الكنيسة الأولى.

– وبدأ تيار ثالث في مدينة القسطنطينية بعد منتصف القرن الثاني عشر واستمر طويلا لأنه تمتع بتنظيم كنسي شديد وبنشاط إرسالي قوي، وانتشر خصوصا في إيطاليا– شمالي روما– في النصف الثاني من القرن نفسه. وأخذت هذه الحركة اسم "الكتار"، أي الأطهار. وحسب هذه الهرطقة كان المسيح أعظم ملاك تبناه الله ولم يكن جسده وموته إلا مظهرا، وعلى كل حال لم يكن لهما أهمية لأن المسيح فدى البشرية بتعليمه وليس بآلامه. واعتقدت هذه الهرطقة أيضا أن الكنيسة الكاثوليكية هي النبت

الفاسد لجماعة كانت في البدء طاهرة، وأن العهد القديم شرير بينما العهد الجديد إلهي، وأن الزواج خبيث، وأن المرأة أقبح من الرجل.

– وقام في الكنيسة لاهوتيون وقديسون ردوا بكتاباتهم أوبأشخاصهم على الهرطقات ونذكر منهم القديس برناردو (Bernardo) وكثير من الفرنسيسكان والدومينيكان.

– وكان القانون الإمبريالي البيزنطي قد حكم بالإعدام على الهراطقة وبالإعدام حرقا على السحرة.

وفي سنة ١١٦٣ قرر مجمع تور (Tours، في فرنسا) إجراء تحقيقات كنسية ضد الهراطقة وتسليم المتهمين إلى السلطة المدنية.

وطبقت الحكومات الغربية المختلفة الإعدام حرقا بطريقة رسمية لأول مرة في سنة ١١٩٧. في حين أن الكنيسة والمجادلين اعترضوا لمدة طويلة على الحكم بالإعدام وعلى العقوبات الجسمانية. لكن الهرطقات كانت تنتشر أكثر فأكثر وكانت كنيسة "كتارية" قد أسست في إيطاليا ودخلت إلى ألمانيا. فاضطر بابوات القرن الثالث عشر إلى تنظيم التحقيقات الكنسية لمكافحة هذا الخطر الكبير. وفي سنة ١٢٢٤ قرر الإمبراطور الألماني فريديريك (Frederic) تطبيق الإعدام حرقا على الهراطقة. وخلال هذا القرن كله طبق الإمبراطور وملك فرنسا هذا القرار بعنف شديد لأنهما اعتبرا الهرطقة جريمة ضد الدولة أو خيانة عظمى. وتأثر القانون الكنسي أيضا بهذه القرارات، فكانت هناك عقوبات مختلفة.

- ويجب علينا أن نتذكر ما قلناه عن الحروب الصليبية وهو أن المجتمع في ذلك الحين لم يكن يميز بين قانون الدولة والإيمان، فمن كان يعترض على الإيمان كان يعد خطرا على الدولة. وهذا هو مصير من لا يميز بين الدين والدولة.

ويجب أن نقول أيضا إن المحققين لم يميزوا بين من كان ترك إراديا إيمانه المسيحي ومن كان نشأ منذ طفولته بين "الهراطقة"، وهذا درس في منتهى الأهمية بالنسبة لنا اليوم حتى لا نحكم على من لم ير في حياته إلا ما رآه وسمعه في حضن عائلته.

وأخيرا، لا ننسى أن الكنيسة إذا كان لها دور سلبي لأنها تأثرت بهذه المصائب، فهي لها دور إيجابي أيضا لأنها عرفت تواصل رسالتها من خلال القديسين العظماء الذين ذكرناهم والذين عاشوا في هذه الحقبة.

٤. البابوية في أفينيون Avignon

٤-١ البابا بونيفاسيوس الثامن (١٢٩٤ – ١٣٠٣)

- يسجل القرن الثالث عشر الفوز الديني والسياسي للبابوية؛ ففي الميدان الديني كان البابا إنوسينسيوس الثالث قد ثبت السيطرة الروحية والسياسية للبابا وكان قد انتصر على الهراطقة، خاصة على "الكتار". وفي الميدان السياسي نجح في مقاومة الإمبراطورية الألمانية التي كانت تريد إخضاع إيطاليا لها، فاستطاع البابا فرض سلطته. لكنه دفع في سبيل هذا الانتصار ثمنا

غاليا لأن التحالف مع مملكة فرنسا أدى إلى تدخل فرنسي في سياسة الكرسي الرسولي وأدى أيضا إلى تدخل الكرسي الرسولي في الانقسامات الداخلية في بعض المدن في إيطاليا، خاصة في فلورنسا. وقد أسفر تشجيع البابا للممالك الوطنية ضد نظام الحكم المطلق للإمبراطور الألماني عن ثورة ضد البابوية نفسها.

- واختير بابا سنة ١٢٩٤ الكردينال بينيديتو كايتاني (Benedetto Caetani) الذي أخذ اسم بونيفاسيوس الثامن. وعمل هذا البابا الجديد على إقامة الحكم المطلق للبابوية ولأجل ذلك قاوم بكل إمكاناته أعداءه الداخليين. أما في سياسته الخارجية فقد دعا شارل دي فالوا Charles De Valois اخا ملك فرنسا فيليبوس الرابع (الملقب "بالجميل")، إلى التدخل في فلورنسا ليقر السلام بين الأحزاب المتحاربة في تلك المدينة. لكن البابا لم ينجح في تحقيق هدفه إلا جزئيا وبرهن عن عدم فهمه لدور الممالك الوطنية. بينما حقق نجاحا روحيا عظيما بإعلان أول يوبيل في تاريخ الكنيسة سنة ١٣٠٠. فجذب جماهير كثيرة إلى روما؛ فالوعد بأن من يزور قبر القديسين بطرس وبولس خلال خمسة عشر يوما وينال سري التوبة والمناولة، سيحظى بالغفران الكامل عن العقوبات المترتبة بعد الاعتراف والتي يجب التعويض عنها على هذه الأرض أو في المطهر.

ولكن، إذا كانت البابوية قد عظمت جدا روحيا ومعنويا بهذه الخطوة، فإنها قد خسرت كثيرا سياسيا ووصلت تدريجيا إلى الفشل وذلك بسبب تحالفها مع مملكة فرنسا.

– وبسبب النفقات العالية من جرّاء الحرب القائمة بينهما، كان ملك فرنسا فيليبوس الرابع ("الجميل") وملك إنجلترا إدوارد الأول قد طالبا الإيكليروس بدفع الضرائب. فرد البابا بمرسوم في سنة ١٢٩٦ منع به أية سلطة علمانية بمطالبة الإيكليروس بدفع أي مبلغ بدون موافقة الكرسي الرسولي. وبينما قبل الملك إدوارد قرار البابا، رفض الملك فيليبوس وفي سنة ١٣٠١ طالب بحكم سلطته على جميع المواطنين، علمانيين كانوا أم إيكليروس بدفع الضرائب، وقبض على ممثل البابا واتهمه بالخيانة العظمى ضد المملكة. فأصدر البابا مرسومًا آخر دعا إلى روما إيكليروس فرنسا والملك نفسه. لكن الملك رد بدعوة المملكة كلها إلى عقد اجتماع عام. وشرّع هذا الاجتماع في يوم ١٠ أبريل ١٣٠٢ أن سلطة الملك تنحدر مباشرة من الله فلا يمكن أن تخضع لسلطة البابا. وأصدر البابا بونيفاسيوس في يوم ١٠ نوفمبر من السنة نفسها مرسومًا آخر حدد فيه مبادىء السلطة البابوية كما كان قد حددها البابا غريغوريوس السابع وإنوسينسيوس الثالث وهي أن السلطة الروحية أعلى من أية سلطة مدنية فتستطيع الأولى أن تحكم الثانية، وأن السلطة المدنية يجب عليها الخضوع والطاعة للسلطة الروحية. وبرّر البابا هذا المبدأ بأربعة أسباب:

– حق الكنيسة في جمع العشور

– البابا هو الذي يدهن الإمبراطور ويتوجه إمبراطورًا

– استخدم الله في العهد القديم الكهنة لإقامة السلطة المدنية

– في الكون كله يسيطر الروح على المادة.

وبعد تحديد هذا الموقف العقائدي حـــرم البابـــا الملـــك فيليبوس وحل مواطنيه من قسم الخضوع له.

فعقد فيليبوس اجتماعًا عامًا آخر حيث أعلن أن البابـــا بونيفاسيوس غير شرعي وقرر انعقاد مجمع في ليون وطالب البابـــا بالحضور إلى المجمع، ثم أرسل ممثليه إلى إيطاليا ليخـــبروا بانعقـــاد المجمع، لكنهم أثاروا بعض الأحزاب المعارضة للبابا فقاموا بثـــورة ضده وقبضوا عليه وأذلوه وطالبوه بالتنازل عن منصبـــه. فتـــأثر شعب روما بما جرى وتصدى للثوار وأطلق سراح البابا الـــذي توفي بعد أيامٍ قليلة متأثرًا بـــهذه الأحداث المؤلمة.

٤-٢. سقوط البابوية تحت سيطرة الملكية الفرنسية

– والنتيجة الأولى لما حدث للبابا بونيفاسيوس هـــي أن البابوية أصبحت تحت سلطة الملكية الفرنسية لسنوات عديدة، من ١٣٠٥ الى ١٣٧٧. فنقلت مقرها من روما إلى أفينيون (Avignon، في جنوب فرنسا) وكانت المملكة تتدخـــل كثـــيرًا في اختيـــار البابوات.

– وكان البابا الأول في أفينيـــون كليمنـــت (Clement) الخامس (١٣٠٥ – ١٣١٤)، الذي رفض أن يـــأتي إلى رومـــا متذرعًا بالأسباب الأمنية مسيرًا من قبل الملك فيليبوس الذي كـــان يوجه سياسته وقراراته.

و هكذا بدأت تلك الفترة الطويلة في تاريخ البابوية الـتي تسمى أيضًا "بالمنفى الأفينيوني"، تشبيهًا بمنفى شعب إسـرائيل في بابل الذي يحدثنا عنه الكتاب المقدس.

- وإذا كان ضعف البابوات واضحًا في ذلك الحين، فإننا يجب أيضًا أن نلقي نظرةً شاملةً على هذه الحقبة.

كانت في روما نزاعات شـديدة واضطرابـات عنيفـة وبالإضافة إلى ذلك تمردت بعض المناطق التي كانت تحت حكـم البابا، فكانت المكاتب البابوية بحاجة إلى سند مـن فرنسـا لأن الإمبراطورية الألمانية وإيطاليا كانتا معاديتين لها.

وقد أثبت المؤرخون حديثًا أن أغلبية البابوات في أفينيـون كانوا أتقياء ومخلصين وأن بعضًا منهم حقق إصلاحـات جديـة وأسّس نظامًا إداريًا وماليًا أفضل وأكثر فعالية من ملوك أوروبـا الآخرين، وأثبتوا أيضًا- على الرغم من التبعية للملكية الفرنسـية- أنـهم قد اتخذوا القرارات بطريقة مستقلة.

- لكن ورغم هذا اعتبر "المنفى الأفينيوني" شيئًا سـلبيًا للكنيسة؛ لأنـها امتزجت في كيانـها بطرق وأهداف العالم وقد أساء ذلك إليها أكثر مما كان قد أساء إليها في الماضي التصـرف الخاطئ لبعض المسؤولين الكنسيين. وأدان الشعب أيضًا إقامة البابا بعيدًا عن مدينة الرسولَيْن بطرس وبولس التي كانت منـذ نشـأة الكنيسة مركزًا للإيمان.ولا نستطيع أن ننكر أيضًا أن هذا لمنفـى يعد السبب الرئيس للانشقاق الذي سيؤلم الكنيسة فيما بعد.

- فانتقد أناس كثيرون هذا الواقع ونذكر منهم خاصة القديسة كاترينا الأسينية (St. Caterina from Siena، من سيانا، Siena، في إيطاليا الوسطى) التي كتبت إلى البابا رسائل مليئة بالمحبة المسيحية الصحيحة وواضحة تجاه هذه الظروف وحاولت إقناعه بالعودة إلى روما. وفي سنة ١٣٦٢ اختير بابا أوربانوس الخامس (١٣٦٢ – ١٣٧٠) وهو رجل نزيه وقديس، وهو الذي في سنة ١٣٦٧ أخذ القرار الشجاع بالعودة إلى روما. وبقي في إيطاليا ثلاث سنوات ثم رجع الى أفنيون حيث مات. وخلفه غريغوريوس الحادي عشر (١٣٧٠ – ١٣٧٨)، الذي عاش حياة بلا لوم والذي أقنعته القديسة كاترينا الأسينية بالعودة إلى روما، فرجع إلى مدينة الرسولَيْن في سنة ١٣٧٧. وهكذا انتهى "المنفى الأفينيوني".

- وحلّ في سنة ١٣٤٨-١٣٤٩ وباء أسود قضى على ثلث سكان أوروبا. ودخلت أوروبا - المنقسمة والمدمرة من الحروب والمحطمة من الوباء الأسود والمحرومة من أية نهضة- إلى حياة جديدة أو إلى ما يسميه المؤرخون "خريف (بدء انهيار) القرون الوسطى". وأثناء هذه الفترة تأرجح الموقف الديني بين اللامبالاة والإهانة وبين التمسك به حتى التطرف؛ فلم يعرف التاريخ قط فترة مثل هذه الفترة التي تصاعدت فيها حدة الانتقادات للكنيسة إلى درجة العنف الشديد القاسي.

ولكن هذه الأزمة الدينية الأخلاقية كانت تمثل جزءًا من الأزمة العامة التي شملت النواحي الثقافية والسياسية والاقتصادية وكل الهيئات الإدارية: الإمبراطورية والبابوية والنظام الإقطاعي

وهيأت لتأسيس الممالك والدول الحديثة. فهذا الخريف هو فعلاً انتهاء لقرون وعقلية مضت ومطلع لفجر آخر. وقبل الدخول في هذا الجو الجديد، كان على الكنيسة أن تتألم مرة أخرى نتيجة انشقاق كبير مزقها طيلة أكثر من خمسين سنة.

٥. الانشقاق الكبير

بعد وفاة البابا غريغوريوس الحادي عشر في سنة ١٣٧٨، كان الشعب الروماني خائفاً من انتخاب بابا فرنسي يريد العودة إلى أفينيون، فقاموا بمظاهرات مطالبين بأن يكون البابا الجديد إيطاليا. واختير مطران باري (Bari، من جنوبإيطاليا)، وأخذ اسم أوربانوس السادس (١٣٧٨ – ١٣٨٩). لكن الكرادلة الفرنسيين اعترضوا على هذا الاختيار واعتبروه باطلاً لأنه تم تحت ضغط الشعب. وبينما كان أوربانوس السادس يستقر في روما، اجتمع الكرادلة الفرنسيون واختاروا بابا آخر وهو مطران جنيف، الذي أخذ اسم كليمنت (Clement) السابع (١٣٧٨ – ١٣٩٤) واستقر في أفينيون. وبدأ هكذا الانشقاق الغربي، وانقسم العالم الكاثوليكي إلى فئتين: من يطيع بابا روما ويقول إنه البابا الشرعي، ومن يتخذ الموقف نفسه بالنسبة لبابا أفينيون. و لم تكن المسألة مجرد سلطة وشرف بل كان هناك اقتناع مخلص لدى الطرفين، فكانت القديسة كاترينا الأسينية تعترف بأن أوربانوس السادس هو البابا الشرعي، بينما كان القديس فينسيترو فيريري (Vincenzo Ferreri) يؤيد البابا كليمنت السابع.

وأصبح الانشقاق أكثر خطورة عندما اجتمع مرة أخرى الكرادلة الفرنسيون والإيطاليون لإنهاء الانفصال فعقدوا مجمعا في بيزا (Pisa، في إيطاليا الوسطى) واختاروا بابا جديدا أخذ اسم إسكندر الخامس (١٤٠٩ – ١٤١٠). فصار الوضع من سيء إلى أسوأ لأنه كان هناك ثلاثة بابوات في آن واحد. ودامت هذه الحال حتى سنة ١٤١٧ حيث انعقد مجمع في ألمانيا الجنوبية وأقيل البابوات الثلاث واختير بابا جديد أخذ اسم مارتينو (Martino) الخامس (١٤١٧ – ١٤٣١).

– وكاد الانشقاق ينتهي، لو لا وقوع أزمة جديدة، وذلك عندما– في سنة ١٤٣٨– نقل البابا أوجينيو (Eugenio) الرابع (١٤٣١ – ١٤٤٧) مقر المجمع من فيرارا (Ferrara) إلى فلورنسا ليقوم بالإشراف عليه مباشرة. ورفضت أغلبية المجمع هذا النقل وأقالوا البابا أوجينيو في سنة ١٤٤٠ وانتخبوا البابا فيليسي (Felice) الخامس (١٤٤٠ –١٤٤٩). وهنا أيضا لم يكن الرفض نتيجة أسباب أو مصالح شخصية أو مادية بل لأسباب لاهوتية وهي أن الكرادلة كانوا مقتنعين بأن سلطة المجمع هي أعلى من سلطة البابا فأرادوا إثبات ذلك. وهكذا لم يتنازل البابا أوجينيو الرابع فقط بل اتسعت شهرته خاصة بعد تحقيق الوحدة (المؤقتة) بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية التي تمت في فلورنسا، كما كتبنا. وقد ضعف تدريجيا مبدأ الكرادلة حتى استقال البابا فيليسي الخامس في سنة ١٤٤٩ وانتهى الانشقاق الغربي نهائيا.

وبالرغم من ضعفها البشري، استطاعت الكنيسة أن تتخطى مرة أخرى أزماتها الخطيرة فتحقق هنا أيضا كلام الرب: "أبواب الجحيم لن تقوى عليها" (متى ١٦/١٨).

الفصل الثالث والعشرون

من أوروبا إلى العالم

مقدمة

انتهى الحكم الإسلامي في إسبانيا في سـنة ١٤٩٢ وفي السنة نفسها وصل الإيطالي كريستوفورو كولومبـو (Cristoforo Colombo) إلى ما اعتقده الهند بينما كان ما وصل إليه هو أمريكـا الوسطى حاليا.

إن اكتشاف أمريكا ومناطق جديدة في أفريقيـا جعـل الكنيسة تخرج من حدود أوروبا وتنفتح على العالم.

١. انتهاء الحكم الإسلامي في إسبانيا

كانت غرناطة (Granada) المملكة الإسلامية الأخـيرة في إسبانيا ودامت الحملة للاستيلاء عليها عشر سنوات. دخل الجيش الإسباني في مالاقة (Malaga)، المدينة الكبرى في غرناطـة، سـنة ١٤٨٧ وحول الجامع إلى كاتدرائية، وسقطت المملكـة سـنة ١٤٩٢.

لقد أشرنا في الفصل الخامس إلى الأسباب الـتي أدت إلى عودة إسبانيا إلى المسيحية ونريد أن نضيـف هنـا أن الشـعب الإسباني نفسه كان قد أخذ مواقف عنيفة جدا ضد من لم يكـن

في حظيرة الكنيسة، سواء أكانوا يهوداً أم مسيحيين هراطقـــة أم مســـلمين. فـــاضطر الملـــك فردينـــاندو (Ferdinando) الملقـــب "بالكاثوليكي" إلى تأسيس محاكم كنسية في إسبانيا حتى يكـــون هناك حكم موضوعي للمتهمين وليس حكمًـــا شـــعبيًا متـــأثرًا بالتطرف والغضب. ولكن هذه المحاكم أصبحت وسيلة مطلقـة في أيدي الملك، الذي استعملها مرات كثيرة لأغراض سياسية فقـط. ومثالاً على ذلك كان طرد اليهود في سنة الاستيلاء على غرناطـة إجراءا سياسيا محضا. وكذلك لم يف الملك بوعده بإعطاء المغاربة حرية الدين. فنستطيع أن نقول إن الوحدة الدينية في إسبانيا تمـت إثر قرارات سياسية اتخذها الملك الذي اعتبر نفسه المدافـــع عـــن الإيمان والذي فرض سلطته على الكنيسة الإسبانية كلها.

٢. انتشار المسيحية في العالم

طلب الإيطالي كريستوفورو كولومبو (Cristoforo Colombo) من ملك إسبانيا سنة ١٤٩٢ دعمه في مشروعه بـــأن يصـــل إلى الهند بحرا متجها نحو الغرب. فسافر يوم ٣ أغسطس من الســـنة نفسها ووصل يوم ٢١ أكتوبر إلى الشواطئ الأمريكية بـــدون أن يعلم ذلك. وقام فيما بعد بثلاث سفرات أدت إلى اكتشـــافات جديدة مما أثار اهتماما كبيرا بـــهذا المجال. فبدأ بحارون جريئـــون ومغامرون وفاتحون يقتدون به فذهبوا متحمسين إلى العالم الجديـد حيث غرسوا فيه العلم الإسباني وصليب المسيح.

ولا شك أن كريستوفورو كولومبو قام بأسفاره "من أجل الله والمال" وقد أعطى للمناطق الجديدة أسماء مسيحية (المخلص، San Salvador، الثالوث، Trinidad، إلخ...) وبطريقة ما بدأ تبشيرها. فتخطت الكنيسة الحدود الغربية وكانت آفاق جديدة تنفتح أمامها، أي العالم أجمع. وفي عيد ظهور الرب سنة ١٤٩٤ أُقيم القداس لأول مرة في العالم الجديد ، وفي شهر سبتمبر من السنة نفسها أُعطيت المعمودية للمرة الأولى وبدأت الكنيسة تعيش فترة من أجمل وأعظم فتراتها التبشيرية.

وانتقل إلى العالم الجديد جماعات من الفرنسيسكان والدومينيكان وكان هؤلاء المرسلون غيورين وأتقياء ومثقفين فألّفوا قواميس وكتبًا لتعليم الدين باللغة المحلية. وفي مدة عشرين سنة تقريبًا وصل عدد المسيحيين إلى الملايين، حيث لم يكن من النادر أن يمنح كاهن في يوم واحد ثمانية آلاف أو عشرة آلاف او أربعة عشر ألفا معمودية!

٣. برتولوميو دي لاس كازاس Bartolomeo de Las Casas

– أصبح الإسبانيون القادمون إلى هذا العالم الجديد مستعمرين وأصحاب أراضٍ واسعةٍ ورأوا في السكان المحليين (الهنود) يدًا عاملةً رخيصةً أوَّ مجانيةً. وبما أنهم وثنيون فلم يكن لهم، حسب بعض الناس، الحق في الانضمام إلى الجماعة المسيحية. ولو لم يكن هناك تدخل من قبل المرسلين، لكان قد بدأ نوع جديد من العبودية. لكن المرسلين وقفوا ضد هذا الظلم، مما أدى

إلى صراع طويل للدفاع عن المبادئ الأساسية وحقوق الإنسان لدى الهنود. وهذا الموقف يعتبر من أهم إنجازات الكنيسة في الوصول إلى المساواة العرقية، وذلك بدون استعمال العنف ومن خلال التعليم والمعارضة العلنية والالتزام الشخصي للأساقفة والكهنة. وبرز في هذه الرسالة برتولوميو دي لاس كازاس.

- لقد نال الإسبانيون الذين خدموا العالم الجديد بطريقة أو بأخرى حقَّ مطالبة الهنود- الذين أصبحوا مسؤولين عنهم طوال الحياة- بدفع الضرائب والعمل مجانًا. فلم يكن يعني هذا النظام إلا أشغالاً شاقة للهنود في المناجم والمزارع. وفهم لاس كازاس -الذي كان قد وصل إلى "هاييتي" (Haiti) سنة ١٥٠٢ لوظيفة مهمة والذي سيُرسم كاهنًا فيما بعد- أن هذا النظام ظالم، فتنازل عن منصبه وذهب إلى ملك إسبانيا ليدافع عن قضية الهنود. لكنه لم ينجح كثيرًا في مسعاه، فانضم لاس كازاس إلى رهبانية الدومينيكان حتى يستطيع مواصلة معركته من أجل الهنود. وكتب مذكرة عنيفة إلى "المجلس الخاص بالهنود" في إسبانيا حيث قال "إن مجيء الإسبان إلى العالم الجديد يبرره دافع واحد فقط هو الواجب التبشيري" وقال أيضًا "إن الطريق الوحيد لنشر الإيمان المسيحي هناك هو الكرازة والقبول الحر للإيمان". أخيرًا نال من الملك كارلوس كوينتو (Carlos Quinto) اتخاذ قرارات سميت "بالقوانين الجديدة" (١٥٤٢) منعت العبودية وأثبتت تعادل الهنود والإسبان في موضوع الضرائب. وعندما عُيِّن لاس كازاس أسقفًا في المكسيك، أراد تطبيق هذه القوانين، لكن المستعمرين الإسبان قاوموه فاضطر إلى العودة إلى إسبانيا حيث أصبح مستشار الملك

ومن هناك تابع نضاله من أجل الهنود. حتى بعد أن بلغ الثانية والثمانين من عمره ذهب ليقابل الملك فيليبو الثاني للدفاع عن حقوق الهنود.

نستطيع أن نقول إن لاس كازاس اكتشف غنى التعاون بين الحضارات الأجنبية، وكان قد طالب الكنيسة –من قبل- بأن تكيف طرقها التبشيرية مع هذه الحضارات. فبينما كانت عامة الناس تتساءل عمًّا إذا كان الهنود وثنيين أم هراطقة ويشكون فيما إذا كانوا مثل بقية الناس الآخرين أو في درجة بين الإنسان والحيوان، أكد لاس كازاس التساوي التام بين الهنود وعامة الناس في كل أنحاء العالم، (وسيخوض دانيال كمبوني، مطران الخرطوم (١٨٣١ – ١٨٨١) المعركة نفسها في أوروبا ليثبت أن الأفارقة ليسوا أقل من الناس الآخرين بل إنهم يتمتعون بكل الصفات الإنسانية مثل بقية سكان الأرض).

٤. الكنيسة في أفريقيا (جنوبي منطقة الصحراء)

٤–١. التبشير في القرنين الخامس عشر والسادس عشر

بدأ البرتغال في القرن الخامس عشر يستكشف شواطئ أفريقيا فانتهزت رهبانيات برتغالية مختلفة الفرصة لكي تبشر تلك البلاد الجديدة. وأرسل البابا بيوس الثاني الفرنسيسكان إلى غينيا، سنة ١٤٦٢، والدومينيكان إلى السنغال. وتأسست كنيسة في بنين سنة ١٤٨٥، وبدأ تبشير منتظم في الكونغو سنة ١٤٩٠، و بانضمام الملك ألفونس (١٥٠٦ – ١٥٤٣) إلى المسيحية انتشر

الدين الجديد بمنتهى السهولة وفي سنة ١٥٩٧ أصبحت العاصمة كرسي الإبراشية. ووصل التبشير إلى موزمبيق أيضًا في النصف الأول من القرن السادس عشر وتعمَّد الإمبراطور نفسه سنة ١٥٦١. وفي سنة ١٥٩١ كان عدد المسيحيين في موزمبيق ٢٠ ألفًا. وذهب مرسلون برتغاليون إلى مدغشقر أيضًا ولكن لم تنجح هذه الإرسالية مثل الإرساليات الأخرى.

٤-٢. الأسباب التي أدّت إلى الزوال

وبالرغم من الجهود الرائعة التي بذلها المرسلون البرتغاليون في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، فإن المسيحية كانت قد تلاشت تمامًا في أفريقيا في بداية القرن التاسع عشر. ومن ضمن الأسباب التي ربما أدت إلى هذا الزوال يجب أن نذكر الآتي:

- كانت الإرساليات التي تحت منطقة الصحراء قد أُسندت إلى البرتغال الذي طالب الكرسي الرسولي بامتيازات لرعايته لها ونالها ، فلم يستطع "مجمع انتشار الإيمان" أن يقوم بأي دور في إدارة التبشير في تلك البلاد.

- بناء على امتيازات الرعاية، استبعد البرتغال التعاون مع مرسلين من بلاد أوروبية أخرى وفي الوقت نفسه لم يقدِّر إرسال عدد كاف من المرسلين إلى هذه الإرساليات التي كانت تحت رعايته.

- لقد فضَّلت الحكومة البرتغالية، في كثير من المرات، المصالح التجارية على الهدف الآخر وهو انتشار الإيمان، والأسماء التي سميت بها البلاد الجديدة (شاطئ العاج، شاطئ الذهب،

شاطئ العبيد) تدل بوضوح على أهداف الحكومة البرتغاليـــة في القيام بنشاطاتـــها في أفريقيا.

- ما عدا الرهبان الإيطاليين (الكبوشيين، وهم فرع مـــن الفرنسيسكان) في الكونغو وأنجولا، لم يحاول المرسلون البرتغاليون أن يتعلموا اللغات الأفريقية ولا أن يفهموا تقاليد وعقليـــة هـــذه الشعوب.

- لقد أودى الجو الاستوائي بحياة كثير من المرسلين بعد فترة قصيرة من وصولهم إلى هذه البلاد.

وهكذا اختفت المسيحية من أفريقيا، لكنها ستعود إليـــها مرة أخرى مع النهضة التبشيرية التي ستظهر في القـــرن التاســـع عشر.



History of the Church from its Origin to the End of ... Fifteenth Century

تصميم الغ...

Dr. Dr. Camillo Ballin